الفكر الجديد
22-12-2017
فنان من العالم العائم
كازو إيشيغورو
ترجمة: هالة صلاح الدين
الفائز بجائزة نوبل للآداب 2017

فنان من العالم العائم

فنان من العالم العائم

كازو إيشيغورو

ترجمة: هالة صلاح الدين

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

مكتبة الفكر الجديد

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

An Artist of The Floating World
First published in 1986 by Faber and Faber Limited.
Text Copyright © Kazuo Ishiguro, 1986
Kazuo Ishiguro's photo © Jeff Cottendan

Cover photo: Luca Elvira / Shutterstock.com

حقوق الترجمة © هالة صلاح الدين، ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول
على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد
في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٠١٨

مكتبة قطر الوطنية ببيانات الفهرسة- أثناء- النشر (فان)

كازو،إيشيغورو ،1954- مؤلف.

[An Artist of the floating world]. Arabic

فنان من العالم العائم / تأليف إيشيغورو كازو ؛ ترجمة هالة صلاح الدين. – الطبعة العربية الأولى.

الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-129-01-8

ترجمة كتاب: An Artist of the floating world.

1. اليابان -- تاريخ -- الاحتلال المتحالف، 1945-1952 -- قصص. 2. الحرب العالمية، 1939-1945 -- الفن والحرب -- قصص. 3. الأباء والأبناء -- قصص 4. الفنانون -- قصص -- مترجمات إلى العربية. ب. صلاح الدين، هالة، مترجم. ج. العنوان.

PR6059.S5 A89125 2018

892.736– dc23

201826230458

إلى والديّ

مكتبة
الفكر الجديد

أكتوبر 1948

إذا تسلقتَ في يوم مشمس الطريق المنحدر الذي يرتقي إلى أعلى مبتدئاً بالجسر الخشبي الصغير؛ ذاك الجسر الذي ما زال يشار إليه في هذه الأنحاء بـ "جسر التردد"، فلن تضطر إلى المشي بعيداً قبل أن يتراءى لك سطح منزلي من بين قمتين من قمم أشجار الجنكة. وحتى لو لم يحتل المنزل مثل هذا الموقع المطل على التل، سيظل بارزاً من بين كل المنازل المجاورة، وعليه فقد تتساءل، إن صعدتَ الطريق، عن ماهية الثري الذي يمتلكه.

بيد أني لست رجلاً واسع الثراء وما كنتُ أبداً. وربما يمكن تفسير أبهة المظهر الخارجي للمنزل لو أنبأتُك أن بانيه هو سلفي الذي لم يكن سوى أكيرا سوجيمورا. بالطبع قد تكون غريباً عن هذه المدينة وفي هذه الحالة لن تألف اسم أكيرا سوجيمورا. لكن اذكره لأي شخص عاش هنا قبل الحرب وسوف تعلم أن سوجيمورا كان بلا مراء من بين أكثر رجال المدينة احتراماً ونفوذاً زهاء ثلاثين عاماً.

لو أخبرتُك بهذا، فلعلك تتساءل حقاً - عند وصولك إلى سطح التل ووقوفك عليه متطلعاً إلى المدخل الجميل المصنوع من خشب الأرْز، والمساحة الواسعة المحاطة بسور الحديقة، والسطح بقراميده الفاخرة ورافدته المنقوشة بأناقة التي تبرز قبالة المنظر - كيف تأتى لي الحصول على مثل هذا العقار مع كوني حسبما أزعم رجلاً متوسط الدخل. الحق أني ابتعت المنزل بثمن بخس لا يكاد يستحق الذكر - بل بسعر قد لا يساوي نصف القيمة الفعلية

مكتبة الفكر الجديد

للعقار في تلك الآونة. وقد تيسر ذلك بسبب إجراء غاية في الغرابة - يمكن أن يصفه البعض بالحماقة - طبقتْه عائلة سوجيمورا في أثناء البيع.

مضى الآن على هذه الحادثة نحو خمس عشرة سنة. في تلك الأيام عندما ظهر التحسن على أحوالي بمرور الشهور، جعلتْ زوجتي تلح عليّ للعثور على منزل جديد. وببصيرتها المعتادة، ناقشتْ أهمية امتلاكنا لمنزل يتماشى مع مقامنا - ليس من قبيل الزهو ولكن من أجل احتمالات زواج ابنتينا. أدركتُ صواب رأيها، ولكن بما أن سيتسوكو، كبرى أطفالنا، كانت لا تزال في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، لم أشرع في الأمر على عجل. وبرغم ذلك، قضيت حوالي سنة كلما أسمع عن منزل مناسب للبيع، كنت أتذكر أن أستعلم عنه. كان واحداً من تلاميذي هو أول من نبهني إلى أن منزل سوجيمورا معروض للبيع عقب سنة من وفاته. بدت فكرة شرائي لمثل هذا المنزل منافية للعقل ورددت الاقتراح إلى الاحترام المبالغ فيه الذي طالما خلعه عليّ تلاميذي. استفسرتُ مع ذلك عن المنزل وحظيت برد لم أتوقعه.

زارتني بعد ظهر أحد الأيام سيدتان متعجرفتان ذواتا شعر أشيب واتضح أنهما بنتا أكيرا سوجيمورا. ولما عبّرتُ عن دهشتي لمثل هذا الاهتمام الشخصي بي من قِبل عائلة بهذا السمو، أنهت الأخت الكبرى إليّ بلهجة باردة أنهما لم تحضرا بدافع الكياسة فقط. ففي خلال الشهور السابقة تلقت العائلة عدداً كبيراً من الاستعلامات حول منزل والدهم الراحل غير أن العائلة قررت في النهاية رفضها جميعاً عدا أربعة طلبات. وقد تحرى أفراد العائلة الدقة في انتخاب المتقدمين الأربعة؛ إذ تم اختيارهم على أساس محض من كرم الخلق وحسن الإنجاز.

واصلتْ الأخت الكبرى: "إنه لغاية في الأهمية بالنسبة لنا أن يؤول المنزل الذي بناه أبونا إلى شخص يوافق عليه ويعتبره جديراً به. ترغمنا الظروف بطبيعة الحال على مراعاة الجانب المادي إلا أن هذا الجانب ثانوي تماماً. وقد حددنا بناء على هذا سعراً."

مكتبة الفكر الجديد

عند هذه اللحظة أعطتني الأخت الصغرى، التي لم تفه بكلمة واحدة، ظرفاً، وراقبتاني بوجوه متجهمة وأنا أفتحه. كانت بداخله ورقة واحدة خالية من الكتابة فيما عدا رقم كُتب بأناقة بفرشاة حبر. هممت بالتعبير عن دهشتي للثمن الضئيل إلا أني رأيت وقتها من خلال تصفح الوجوه أمامي أن أية مناقشة أخرى للماديات ستعد بغيضة. قالت الأخت الكبرى ببساطة: "لن يكون في مصلحة أي منكم أن يحاول المزايدة على غيره. فنحن لا نرغب في أن نحصل على أي شيء سوى الثمن المحدد. إذ نهدف من الآن فصاعداً إلى إدارة مزاد يتسم بالوجاهة."

وشرحتْ أنهما قد حضرتا شخصياً لسؤالي رسمياً بالنيابة عن عائلة سوجيمورا أن أُخضع نفسي - مع المتقدمين الثلاثة الآخرين بالطبع - لتحر أدق عن خلفيتي وأوراق اعتمادي. وهكذا سوف يتم اختيار مشترٍ مناسب.

كان إجراء غريباً وإن لم أجده بغيضاً، فقد كان في النهاية أشبه بالانخراط في مفاوضات زواج. انتابني في الحقيقة شيء من الإطراء لاعتباري جديراً بالترشيح من قِبل هذه العائلة العتيقة المحافظة. وعندما وافقتُ على التحري وأفضيت إليهما بامتناني، خاطبتني الأخت الصغرى للمرة الأولى قائلة: "كان أبونا رجلاً مثقفاً يا سيد أونو. وكان يكن عظيم الاحترام للفنانين. وكان بحق على دراية بعملك."

أجريت استفساراتي الخاصة في الأيام التالية واكتشفتُ صحة كلمات الأخت الصغرى؛ فقد كان أكيرا سوجيمورا بالفعل متحمساً للفن حيث دعم المعارض بأمواله في عدة مناسبات. صادفتُ أيضاً إشاعات أثارت اهتمامي: يبدو أن عدداً كبيراً من أفراد عائلة سوجيمورا وقف ضد فكرة بيع المنزل على أي نحو ودارت مجادلات مريرة حول المسألة. في النهاية كانت الضغوط المادية تعني حتمية البيع، وكانت إجراءات الصفقة الغريبة بمثابة التسوية التي تم التوصل إليها مع مَن لم يشاؤوا أن يخرج البيت عن العائلة. لا يمكن إنكار وجود شيء تعسفي يداخل هذه الترتيبات لكني من جانبي كنت مستعداً أن أتعاطف مع أحاسيس عائلة لها هذا التاريخ المميز. بيد أن زوجتي لم تتقبل فكرة التحري.

مكتبة الفكر الجديد

اعترضتْ الزوجة: "من يخالون أنفسهم، ينبغي أن نقول لهم إننا لا نريد أية علاقة بهم بعد الآن."

فأوضحتُ لها: "لكن ماذا سيضيرنا من الأمر؟ لا تعيبنا شائنة لا نود أن يكتشفوها. صحيح أني لست من أصول ثرية، لكن بالقطع يعلم آل سوجيمورا ذلك بالفعل، وما زالوا يعتقدون أننا مرشحون جديرون بالمنزل. فدعيهم يتحرون، فلن يسعهم إلا أن يجدوا ما في صالحنا." وكان من اللازم أن أضيف: "مهما يكن الأمر هم لا يفعلون أكثر مما كانوا سيفعلون لو أننا نتفاوض معهم في زواج. سوف نضطر إلى الاعتياد على مثل هذه الأمور."

يضاف إلى ذلك أن هناك بالتأكيد ما يدعو إلى الكثير من الإعجاب بفكرة "المزاد المتسم بالوجاهة" كما أسمته الأخت الكبرى. ويتساءل المرء عما يحول دون حسم الأمور بمثل هذه الوسائل. كم هو نبيل هذا التنافس، حيث تُقدَّم أخلاق المرء وإنجازاته كشواهد دالة عليه بدلاً من حجم ثروته. لا زلت أتذكر ما اعتراني من رضا عميق عندما علمتُ أن آل سوجيمورا اعتبروني عقب تحر مستفيض أجدر مَن يتملك المنزل الذي يجلونه عظيم الإجلال. لا شك في أن المنزل يستحق تحمل بعض الإزعاج من أجله؛ ففضلاً عن مهابة مظهره الخارجي المؤثر، تجده من الداخل مصنوعاً من أخشاب ناعمة طبيعية اختيرت لجمال تجزعاتها، وكل مَن عاش منا فيه ألفاه باعثاً على الاسترخاء والهدوء.

وبرغم ذلك تجلى تحكم آل سوجيمورا في كل الجوانب في أثناء عقد جلسات الصفقة، فلم يحاول بعض أفراد الأسرة أن يخفوا عداءهم حيالنا، وربما شعر مشترٍ آخر أقل تفهماً بالإهانة ونبذ الأمر برمته. حتى فيما تلا من سنين كنتُ أحياناً أصادف بعض أفراد العائلة الذين كانوا يقفون في الشارع ليستجوبوني عن حالة المنزل وعن أي تغيير قمت به بدلاً من تبادل المعتاد من مهذب الحديث.

قلما أسمع هذه الأيام عن آل سوجيمورا. مع ذلك زارتني – عقب فترة وجيزة من الاستسلام – الأخت الصغرى التي فاتحتني في الموضوع وقت البيع. أحالتها سنون الحرب إلى عجوز نحيفة. وكما هو أشبه بطبائع العائلة

مكتبة الفكر الجديد

لم تجاهد لإخفاء أن همها ينصب على ما حدث للمنزل خلال الحرب، وليس على سكانه؛ عزتني عزاء وجيزاً عند سماعها بما حدث لزوجتي ولكنجي قبل البدء في السؤال عما أسفر عنه القصف من ضرر. تميزتُ من الحنق عليها في مبدأ الأمر؛ بيد أني بدأت حينذاك ألحظ كيف كانت عيناها تترددان في الحجرة تردداً لا إرادياً وكيف كانت تتوقف أحياناً فجأة وسط إحدى جُملها المدروسة الرسمية، فأدركتُ أنها تكابد جيشاناً عاطفياً لمّا وجدتْ نفسها تؤوب إلى هذا المنزل مجدداً. وعندما خمنتُ أن معظم أفراد عائلتها الذين كانوا موجودين في أثناء البيع قد عاجلتهم المنية الآن. انطوى صدري على شفقة عليها وعرضتُ أن أريها المكان.

أصيب المنزل بنصيبه من دمار الحرب. كان أكيرا سوجيمورا قد بنى جناحاً شرقياً للمنزل يضم ثلاث حجرات واسعة يصلها بالجزء الرئيسي من المنزل ممر طويل يقطع جانباً واحداً من الحديقة. كان هذا الممر مفرط الطول حتى أوحى البعض أن سوجيمورا بناه - مع الجناح الشرقي - من أجل والديه اللذين كان يريدهما بمنأى عنه. على كل حال كان الممر واحداً من أبرز عوامل الجذب في المنزل؛ فعند الظهيرة كان يتعامد بالكامل مع الأضواء المنبعثة من أوراق النباتات وظلالها في الخارج حتى ليشعر المرء أنه يمشي في حديقة على هيئة نفق. وقد أثر أغلب ما خلفه القصف من دمار على هذا الجزء من المنزل، وإذ كنا نعاينه من الحديقة، أبصرتُ الآنسة سوجيمورا وقد أوشكتْ على البكاء. تخلصتُ في هذه اللحظة من كل إحساسي السابق بالضيق من العجوز وطمأنتُها بقدر استطاعتي أن الضرر سوف يتم إصلاحه في أول فرصة وأن المنزل سيعود مره أخرى إلى سابق عهده كما بناه والدها.

لم أدر عندما قطعتُ هذا الوعد أن التجهيزات ستظل ضئيلة للغاية؛ فبعد مضي مدة طويلة من الاستسلام، كان من الممكن أن ينتظر المرء أسابيع حتى يحصل على قطعة معينة من الخشب أو إمداد من المسامير. وتحت مثل هذه الظروف كان لا بد أن يتم ما استطعت صنعه في الجزء الرئيسي من المنزل -

مكتبة الفكر الجديد

الذي لم ينج كلية من الدمار - أما العمل في ممر الحديقة والجناح الشرقي فقد كان بطيئاً. لم آل جهداً كي أمنع أي تدهور خطير يحل به لكننا ما زلنا لا نستطيع أن نعيد فتح هذا الجزء من المنزل. إلى جانب أن وجود شخصين هنا دون سواهما، أنا ونوريكو، جعلنا لا نتعجل توسيع مساحة معيشتنا.

إذا أخذتك اليوم إلى خلفية المنزل وأزحت جانباً الحاجز الثقيل كي أسمح لك أن تحدق في بقايا ممر حديقة سوجيمورا، ربما تولد لديك - رغم ذلك - الانطباع بما كان عليه من روعة فيما مضى. لكنك ستلاحظ أيضاً بلا شك ما لم أستطع منع تكونه من خيوط العنكبوت والعفن، وما تخلل السطح من فجوات واسعة لا يحجبها عن السماء سوى ألواح من المشمع. أحياناً ما كنت أزيح هذا الحاجز في الصباح الباكر لأجد ضوء الشمس يتدفق من خلال المشمع في صورة أشعة باهتة تكشف عن سحب من التراب معلقة في الهواء وكأن السطح قد انهار في نفس هذه اللحظة.

وباستثناء الممر والجناح الشرقي أصاب الشرفة أكبر الضرر. كان أفراد أسرتي، ولا سيما ابنتيّ، مغرمين دوماً بقضاء الوقت جالسين هناك، يثرثرون ويتفرجون على الحديقة؛ لذا عندما زارتنا سيتسوكو - ابنتي المتزوجة - لأول مرة عقب الاستسلام، لم أجد عجباً لرؤية حزنها العميق على حال الشرفة. كنت وقتها قد أصلحت أسوأ ما في الدمار إلا أن أحد أطرافها كان لا يزال متموجاً ومتهدماً حيث دفع تأثير الانفجار الألواح من أسفل. عانى كذلك سطح الشرفة من الخراب، فقد كنا نضطر إلى أن نَصف الأواني على ألواح الأرضية لتلتقط الماء المتساقط في الأيام المطيرة.

غير أني استطعت أن أحرز بعض التقدم على مدار السنة السابقة. وبحلول زيارة سيتسوكو التالية الشهر الماضي، كانت الشرفة قد رُممت بالكامل تقريباً. أخذت نوريكو إجازة من العمل من أجل زيارة أختها، وهكذا ومع استمرار الجو الصحو قضت ابنتاي الاثنتان الكثير من وقتهما في الخارج مثلما كانتا تفعلان في الأيام الخالية. غالباً ما كنت أنضم إليهما، وبين الفينة والأخرى كان الحال

مكتبة الفكر الجديد

يشبه تقريباً ما كان يجري في سنوات سابقة عندما تجتمع العائلة هناك في الأيام المشمسة لتبادل الأحاديث المسترخية، الفارغة في الغالب. وفي وقت ما من الشهر الماضي – ربما كان الصباح الأول من وصول سيتسوكو – كنا جالسين هناك في الشرفة بعد الإفطار عندما قالت نوريكو:

"أنا مرتاحة لأنك حضرتِ أخيراً يا سيتسوكو. سوف ترفعين عن كاهلي قليلاً مسؤولية أبي."

"كفاك يا نوريكو..." عدّلت أختها الكبرى من جلستها على الوسادة بما ينم عن عدم راحتها.

"أبي في حاجة إلى الكثير من الرعاية بعد أن تقاعد،" استرسلتْ نوريكو في الحديث وعلى وجهها ابتسامة خبيثة. "لا بد أن تشغلي وقته وإلا سيبدأ في التجول في المنزل."

"حقاً..." ابتسمتْ سيتسوكو بعصبية ثم بدرتْ منها التفاتة نحو الحديقة وتنهدتْ:

"يبدو أن شجرة القيقب قد تعافت بالكامل. تبدو رائعة الجمال."

"يظهر أن سيتسوكو ليست لديها أية فكرة يا أبي عن طباعك هذه الأيام. إنها تتذكرك فقط عندما كنت طاغية آمراً لنا طوال الوقت. أنت الآن أكثر رقة، أليس كذلك؟"

أطلقتُ ضحكة لأبين لسيتسوكو أن كل هذا الكلام مجرد دعابة غير أن الضيق لم يفارق وجه ابنتي الكبرى. التفتت نوريكو إلى أختها وأضافت: "لكنه بالفعل يحتاج إلى الكثير من الرعاية لأنه يتجول في المنزل طيلة اليوم."

"كلام فارغ كالعادة" قلت بدوري مقاطعاً. "إذا كنتُ أقضي اليوم بأكمله في التجول، كيف تأتى لي إنجاز كل هذه الإصلاحات؟"

"فعلاً" قالت سيتسوكو منصرفة ببصرها نحوي وهي باسمة الثغر. "إن المنزل يبدو الآن في منتهى الروعة. لا بد أن أبي قد عمل جاهداً على إصلاحه."

"لقد أحضر رجالاً لمعاونته في جميع الأجزاء الصعبة. يبدو أنك

مكتبة الفكر الجديد

لا تصدقيني يا سيتسوكو. لقد تغير أبي تغيراً كبيراً الآن. ما عادت بنا حاجة إلى الخوف منه. فقد أصبح أكثر رقة وأكثر حباً للحياة المنزلية."

"ويحك يا نوريكو..."

"بل إنه يطبخ من آن لآخر. لا يمكنك تصديق ذلك، أليس كذلك؟ إلا أن أبي أصبح طباخاً ماهراً هذه الأيام."

قالت سيتسوكو بصوت هادئ: "أعتقد أننا ناقشنا هذا الأمر بما فيه الكفاية يا نوريكو، أليس كذلك يا أبي؟ أنتَ تحرز الكثير من التقدم."

ابتسمتُ ابتسامة أخرى وهززت رأسي تعباً. أذكر أنه عند هذه اللحظة ندت عن نوريكو التفاتة نحو الحديقة وأغمضتْ عينيها لتتقي ضوء الشمس ثم قالت: "حسنا، لا يستطيع الاعتماد على أن أرجع وأطبخ حين أتزوج. سيكون عندي ما يكفي لعمله بدون الاعتناء بأبي أيضاً."

حين تفوهتْ نوريكو بهذه الكلمات، رمتني أختها الكبرى بنظرة سريعة توحي بالتساؤل بعد أن كانت تتحفظ في إخفاء تحديقتها حتى لحظتها. مرة ثانية تحولتْ عيناها عني في الحال، فقد كانت مضطرة إلى رد ابتسامة نوريكو. غير أن سلوك سيتسوكو داخَله اضطراب جديد أعمق وبدت ممتنة عندما هيأ لها ابنها الصغير الفرصة لتغيير الموضوع. مر بنا سريعاً في اتجاه الشرفة فنادت عليه: "إشيرو، اهدأ أرجوك!"

لا شك في أن إشيرو أخذه الانبهار بمساحة منزلنا الواسعة بعد أن ألِف شقة والديه الحديثة. على أي حال ظهر أنه لا يشاركنا افتتاننا بالجلوس في الشرفة، إذ فضّل الجري بسرعة كبيرة جيئة وذهاباً بطول الشرفة منزلقاً أحياناً على الألواح المصقولة. أوشك أكثر من مرة أن يقلب صينية الشاي ولم تفلح إلى الآن دعوات أمه في إقناعه أن يجلس. وحين دعته سيتسوكو أن يقعد معنا، مكث في نهاية الشرفة يكلله العبوس.

ناديت عليه: "تعال يا إشيرو، أشعر بالملل من الكلام مع النساء طوال الوقت. تعال واقعد بجانبي لنتكلم في مواضيع الرجال."

مكتبة الفكر الجديد

أحضره هذا الكلام في الحال. وضع وسادته بجانبي وجلس كالمهذب، يداه على فخذيه وكتفاه مدفوعان جيداً إلى الخلف.

"أوجي" قال في حدة، "عندي سؤال."

"نعم يا إشيرو، ما هو؟"

"أريد أن أعرف عن الوحش."

"الوحش؟"

"هل هو مخلوق من قبل التاريخ؟"

"من قبل التاريخ؟ أنت تعرف بالفعل مثل هذه التعبيرات؟ أنتَ أكيد صبي ذكي."

بدأ تهذيب إشيرو يتراجع في هذه اللحظة. فقد تخلى عن وضعه المتكلف واستلقى على ظهره وطفق يلوح بقدميه في الهواء.

"إشيرو!" همستْ سيتسوكو بلسان متعجل. "يا لها من تصرفات سيئة أمام جدك. اعتدل!"

ما كان من إشيرو إلا أن ترك قدميه تنخفضان بلا حراك على ألواح الأرضية. عندئذ ضم ذراعيه على صدره وأرخى عينيه.

"أوجي،" قال بصوت ناعس، "هل الوحش مخلوق من قبل التاريخ؟"

"أي وحش هذا يا إشيرو؟"

"أرجوك لا تؤاخذه،" قالت سيتسوكو في حين علت وجهها ابتسامة عصبية. "عند وصولنا بالأمس كان هناك ملصق يعلن عن فيلم خارج محطة القطار. لقد أزعج سائق التاكسي بالعديد من الأسئلة. خسارة أني لم أر الملصق بنفسي."

"أوجي! هل الوحش مخلوق من قبل التاريخ أم لا؟ أريد إجابة!"

"إشيرو!" رمته أمه بنظرة مخيفة.

"لستُ متأكداً يا إشيرو. أعتقد أنه علينا أن نرى الفيلم لنعرف."

مكتبة الفكر الجديد

"متى سنرى الفيلم إذاً؟"

"أأ. من الأفضل أن تناقش ذلك مع والدتك. مَن يدري؟ فربما يكون مرعباً رعباً لا يتحمله الأطفال الصغار."

ما قصدتُ أن تكون الملحوظة مستفزة بيد أن تأثيرها كان مروعاً على حفيدي. فقد تراجع جالساً ورشقني بعينيه صائحاً: "كيف تجرؤ! ماذا تقول!"

"إشيرو!" صرختْ سيتسوكو فزعة. إلا أن إشيرو ظل يرصدني بنظرات جد مرعبة حتى إن أمه اضطرت أن تبرح وسادتها لتجيء إلينا. "إشيرو!" همستْ وهي تهز ذراعه. "لا تحملق إلى جدك هكذا."

استجاب إشيرو بالاستلقاء على ظهره مرة أخرى مؤرجحاً قدميه في الهواء. وجهتْ إليّ أمه ابتسامة عصبية أخرى.

"إن خلقه في منتهى السوء." ثم بدت مرتبكة تتعثر لإيجاد كلمات مناسبة فعاودها الابتسام.

نادت نوريكو وهي تنهض: "يا سيد إشيرو، لِم لا تأتي لتساعدني في تنظيف مائدة الإفطار؟"

رد إشيرو وقدماه تتأرجحان: "هذا عمل النساء."

"هكذا لن يعاونني إشيرو؟ عندي الآن مشكلة. المائدة ثقيلة جداً ولست قوية بما يكفي لتحريكها بمفردي. ترى من يمكنه مساعدتي إذاً؟"

حمل هذا الكلام إشيرو على الوقوف فجأة ليدخل المنزل بخطى واسعة دون أن يولينا نظرة خلفه. ضحكتْ نوريكو وتبعتْه إلى الداخل.

ألقت سيتسوكو نظرة خاطفة عليهما ثم رفعتْ براد الشاي وبدأتْ تملأ فنجاني من جديد. أسرتْ إليّ بصوت منخفض: "لم أكن أعلم أن الأمور تطورت إلى هذا الحد، أقصد بخصوص مفاوضات زواج نوريكو."

"لم تتطور الأمور إلى أي حد بالمرة،" قلت محركاً رأسي. "في الواقع لم يستقر أي شيء البتة. نحن ما زلنا في مرحلة مبكرة."

"معذرة، لكن ما ذكرتْه نوريكو من لحظة جعلني بطبيعة الحال أظن أن

مكتبة الفكر الجديد

الأمور تقريباً ..." تثاقلتْ كلماتها ثم عادت تقول: "معذرة" لكنها نبست بالكلمة بطريقة أبقت سؤالاً معلقاً في الهواء.

قلت: "ليست للأسف المرة الأولى التي تتكلم فيها نوريكو هكذا. فهي في الحقيقة تتصرف تصرفات غريبة منذ بدء المفاوضات الحالية. لقد زارنا السيد موري الأسبوع الماضي - هل تتذكرينه؟"

"بالطبع، كيف حاله؟"

"بخير. كان فقط ماراً بالمنزل فعرج ليقدم التحية. القصد أن نوريكو راحت تتكلم عن مفاوضات الزواج أمامه واتخذتْ ذات الموقف الحالي قائلة إن كل شيء قد بت فيه. كان الموقف غاية في الإحراج حتى إن السيد موري هنأني أيضاً وهو خارج وسألني عن مهنة العريس."

"فعلاً" قالت سيتسوكو وهي مستغرقة في التفكير. "لا بد أنك وجدت حرجاً كبيراً."

"لكنها ليست غلطة السيد موري. فقد سمعتِها بنفسك الآن. ما المفترض أن يظن الغريب؟"

تركتْ ابنتي الجواب على هذا وجلسنا في صمت عدة دقائق. وبينما كنت أتطلع إليها في مرة من المرات، وجدتُها تحملق إلى الحديقة في الخارج وهي تمسك فنجانها بكلتا يديها كأنما نسيت وجوده. كانت تلك واحدة من مرات عديدة خلال زيارتها الشهر الماضي ألفيت نفسي أتأمل مظهرها - ربما بسبب الطريقة التي وقع بها الضوء على وجهها أو شيء من هذا القبيل. فما من شك أن سيتسوكو أصبحت أجمل مع تقدم سنوات عمرها. ففي صباها مسني وأمها القلق لأنها كانت عادية أكثر مما ينبغي حتى إنها لن تستطيع الفوز بزواج جيد. حتى وهي طفلة كانت لسيتسوكو ملامح رجولية بدأتْ تتضح في سن المراهقة، لدرجة أنه كلما تعاركتْ ابنتاي، كانت نوريكو دائمة التغلب على أختها الكبرى بمناداتها "يا صبي! يا صبي!" ومن يدري تأثير هذه الأمور على تكوين الشخصيات؟ هي ليست صدفة بالتأكيد أن أصبحت نوريكو عنيدة وأصبحت

مكتبة الفكر الجديد

سيتسوكو خجولة ومنكمشة على نفسها. لكن يبدو أن مظهر سيتسوكو بعد أن شارفتْ الثلاثين بات الآن يتخذ وقاراً جديداً لا تخطئه الأعين. أستطيع تذكر والدتها وهي تتنبأ بهذا - كانت كثيراً ما تقول: سوف تزهر ابنتنا سيتسوكو في الصيف. وقد خلتها فقط طريقة زوجتي لمواساة نفسها غير أني ذهلت بالفعل مراراً الشهر الماضي من صواب ظنها.

استيقظتْ سيتسوكو من حلم اليقظة الذي استغرقتْ فيه وأولت المنزل نظرة أخرى ثم قالت: "أحسب أن ما حدث العام الماضي نال من نوريكو، ربما أكثر مما تصورنا."

أرسلتُ تنهيدة وأومأتُ قائلاً: "احتمال أني لم أعرها الاهتمام الكافي وقتها."

"أنا متأكدة أن أبي بذل ما في وسعه. لكن بالطبع مثل هذه الأمور تمثل صفعة فظيعة للمرأة."

"لا بد أن أعترف أني خلتها تمثل قليلاً، كما تفعل أختك أحياناً. لقد أصرت على أنه 'زواج عن حب' وبالتالي عندما فشل اضطرت أن تتصرف وفقا لذلك. لكن ربما لم يكن كله تمثيلاً."

"لقد ضحكنا وقتذاك لكن علَّه كان زواجاً عن حب بالفعل."

عدنا إلى الإطراق، ومن داخل البيت أمكننا سماع صياح إشيرو المتكرر.

"عذراً" نبست سيتسوكو بصوت غريب. "لكن هل عرفنا أبداً سبب إخفاق طلب الزواج العام الماضي؟ لقد كانت خطوة غير متوقعة تماماً."

"ليس عندي أي علم بما حدث. الأمر بالكاد يعنينا الآن، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد، عذراً." بدا لي أن أفكار سيتسوكو قد حامت حول شيء لحظة ثم استأنفتْ الكلام: "غاية الأمر أن سويشي يلح في سؤالي من آن لآخر عما جرى العام الماضي، عن سبب انسحاب آل مياك هكذا." ضحكتْ ضحكة واهنة، تقريبا لنفسها. "يبدو مقتنعاً أني أعلم سراً ما وأننا جميعاً نخفيه عنه. يتعين عليّ أن أطمئنه باستمرار أني أنا نفسي لا أعرف أي شيء."

مكتبة الفكر الجديد

قلت بقليل من البرود: "أؤكد لك أن المسألة لا تزال لغزاً بالنسبة لي مثلك تماماً. ولو كنت أفقه شيئاً، ما كنت لأحجبه عنك وعن سويشي."

"بالتأكيد. أرجوك اعذرني. ما كنت لألمِّح إلى أن ..." ومرة أخرى تثاقلتْ كلماتها ارتباكاً.

ربما بدوت جافاً قليلاً مع ابنتي هذا الصباح لكنها لم تكن المرة الأولى التي تستجوبني فيها سيتسوكو بمثل هذا الأسلوب بشأن العام الماضي وانسحاب آل مياك. لماذا تحسبني أكتم شيئاً عنها، لا أدري. لو لدى آل مياك سبب خاص لتراجعهم على هذا النحو، فمن المنطقي أنهم لن يفضوا به إليّ.

تخميني الشخصي أنه لا يوجد أي شيء غير اعتيادي في المسألة. صحيح أن انسحابهم في اللحظات الأخيرة كان خارج التوقعات، لكن لِم يجب أن يظن المرء الظنون؟ إحساسي أن الأمر لا يخرج عن شعورهم بوضعية العائلة. فآل مياك، مما رأيته عليهم، من النوع المغرور الصريح الذي لن يستريح إلى فكرة زواج ابنهم من فتاة تفوقه اجتماعياً، بل لعلهم كانوا سيتراجعون حقاً على نحو أسرع لو وقع ذلك منذ بضع سنوات. لكن مع ادعاء الاثنين أنه "زواج عن حب" ومع الحديث أيامها عن أساليب الحياة الجديدة، حل على آل مياك الاضطراب فيما إذا كانوا على الطريق المستقيم من عدمه. والتفسير بلا مراء ليس أعقد من ذلك.

من الجائز أيضاً أن ارتباكاً قد تولاهم لموافقتي الصريحة على الزواج، لأني أهملت التفكير في الوضع الاجتماعي، فغريزتي ببساطة لا تشغلني بمثل هذه المسائل. والحق أني لم أكن واعياً في أية مرحلة من حياتي لمكانتي الاجتماعية، بل إني غالباً ما أندهش الآن عندما يُذكرني حدث أو قول ذكره شخص ما بما أحظى به من احترام رفيع نوعاً ما. ففي إحدى الأمسيات مثلاً كنت في حي المتعة القديم الخاص بنا، أحتسي الخمر في حانة السيدة كاواكامي حيث ألفينا، أنا وشينتارو، نفسينا الزبونين الوحيدين مثلما يحدث على نحو متزايد هذه الأيام. كنا جالسين كالمعتاد على كرسيينا المرتفعين بالبار، نتبادل التعليقات مع السيدة كاواكامي، ومع مرور الساعات وعدم وفود زبائن آخرين، اصطبغتْ

مكتبة الفكر الجديد

أحاديثنا بالمزيد من الألفة. كانت السيدة كاواكامي تتحدث ذات مرة عن أحد أقاربها وتشكو أن الشاب لم يستطع الحصول على وظيفة تتناسب مع قدراته عندما صاح شينتارو فجأة: "لا بد أن ترسليه إلى المعلم يا أوباسان! وبتوصية جيدة من المعلم في المكان الصحيح لن يلبث قريبك أن يجد وظيفة جيدة."

اعترضتُ قائلاً: "ماذا تقول يا شينتارو؟ أنا الآن متقاعد. وليست لديّ اتصالات هذه الأيام."

ألح شينتارو: "إن توصية من رجل في مثل مكانة المعلم تستحق الاحترام من أي شخص. أرسلي الشاب إلى المعلم يا أوباسان."

طغى عليّ الاندهاش في البداية من اقتناع شينتارو بتأكيداته بيد أني أدركت ساعتئذ أنه ما زال يتذكر كل هذه السنوات ما أسديته إلى أخيه الأصغر من صنيع متواضع.

يرجع هذا إلى عام 1935 أو 1936 أو نحو ذلك. كان أمراً روتينياً للغاية كما أتذكر - خطاب توصية لأحد معارفي في وزارة الخارجية، شيئاً من هذا القبيل - ما كنت لأطيل التفكير في الأمر وقتها غير أني كنت أسترخي بالبيت بعد ظهيرة أحد الأيام حين أبلغتني زوجتي بقدوم زوار لي بالمدخل.

"أدخليهم من فضلك."

"لكنهما مصران ألا يزعجاك بالدخول."

خرجتُ إلى المدخل حيث وقف شينتارو وأخوه الأصغر الذي كان شاباً حينذاك. وما إن وقعتْ أعينهما عليّ حتى بدآ في الانحناء والقهقهة.

قلت لهما: "أرجوكما تفضلا." إلا أن غاية أمرهما أن استمرا في الانحناء والقهقهة. "من فضلك يا شينتارو، تقدم إلى الحصيرة."

"لا يا معلم." قال وهو لا ينقطع عن الابتسام والانحناء.

"إنها منتهى الوقاحة منا أن نأتي إلى منزلك هكذا، منتهى الوقاحة. لكننا ما استطعنا أن نلبث في البيت أكثر من ذلك بدون أن نوجه إليك شكرنا."

"فلتدخلا. أعتقد أن سيتسوكو تعد بعض الشاي."

مكتبة الفكر الجديد

"لا يا معلم. إنها منتهى الوقاحة حقاً." ثم تلفت شينتارو نحو أخيه هامساً بسرعة: "يوشيو! يوشيو!"

كف الشاب عن الانحناء للمرة الأولى ورفع إليّ وجهاً تعلوه العصبية ثم قال: "سوف أظل ممنوناً لك بقية عمري. سوف أجهد كل ذرة في كياني لأكون عند حسن ظن توصيتك بي. أؤكد لك أنني لن أخذلك. سأعمل جاهداً وأكافح من أجل إرضاء رؤسائي. ومهما شجعني أحد في المستقبل لن أنسى قط الرجل الذي مكنني من بدء مستقبلي."

"حقاً لم آت بشيء ذي بال. فأنت أهل للوظيفة."

حملهما هذا التعليق على سلسلة من الاعتراضات المهتاجة، ثم خاطب شينتارو أخاه: "يا يوشيو، لقد فرضنا نفسينا على المعلم بما يكفي. لكن قبل أن نغادر، تفرس مرة أخرى في وجه الرجل الذي عاونك. إن من حسن طالعنا أن رجل الخير الذي أحسن إلينا ينعم بمثل هذا النفوذ والكرم."

"بالفعل" غمغم الشاب وحدق في وجهي.

"من فضلك يا شينتارو. أنت تحرجني. تفضل لو سمحتَ لنحتفل بشرب بعض الساكي."

"لا يا معلم، لا بد أن نغادر الآن. إنها منتهى الوقاحة أن نأتي إلى هنا هكذا ونفسد عليك ظهيرتك لكننا لم نقدر أن نؤجل شكرك لحظة أخرى."

عليّ أن أعترف أن هذه الزيارة خلفتْ في سريرتي شعوراً بإنجاز ما بعده إنجاز. ففي وسط مهنة مشحونة لا تسمح بالتوقف والتقييم، كانت تلك إحدى اللحظات التي ألقت فجأة الضوء على ما آل إليه المرء تحديداً. الحقيقة هي أني بدأت مستقبلي بلا تفكير تقريباً، بدأتُه كشاب يعمل في مهنة جيدة. ومنذ أعوام قليلة كان لا يمكن تخيل مثل هذه المكانة، وقد استطعت رغم ذلك تبوؤ مثل هذا المركز دون وعي مني تقريباً.

أوضحتُ في تلك الليلة بحانة السيدة كاواكامي: "تبدلتْ أشياء كثيرة عما عهدنا في السابق يا شينتارو. أنا الآن متقاعد، وليس لديّ العديد من الاتصالات."

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرغم من كل ما أحيط به علماً، لعل شينتارو لم يكن مخطئا كلياً في افتراضاته. لعلي لو اخترت أن أختبر منزلتي، سأندهش من جديد من مدى نفوذي. فأنا كما قلت لم أكن أبداً مدركاً تمام الإدراك لمكانتي الاجتماعية.

على أية حال حتى لو أظهر شينتارو سذاجة في بعض الأحايين بخصوص أمور معينة، فذلك لا يقلل من شأنه. فليس من السهل أن يقابل المرء شخصاً لم يتلوث بسخرية أيامنا ومرارتها. إن الطمأنينة تداخلني حين أمضي إلى حانة كاواكامي لأجد شينتارو جالساً هناك عند البار، تماماً مثلما كان يمكن أن تجده في أية أمسية خلال السبع عشرة سنة الماضية أو نحوه، يدير وهو شارد الذهن قبعته في دوائر على الطاولة بطريقته المعهودة كما لو أن الدنيا ما فتئت حقاً على حالها أمام عينيه. سوف يحييني بأدب جم كأنه ما زال تلميذي، وطوال المساء ومهما كان مخموراً سيستمر في مخاطبتي بـ "يا معلم" محافظاً على غاية الاحترام في سلوكه نحوي. بل إنه أحياناً ما يسألني، بكل ما يعتري الشاب المبتدئ من لهفة، أسئلة تتعلق بالطريقة أو الأسلوب الفني. على أن الحقيقة بالطبع هي أن اهتمام شينتارو بأي فن حقيقي قد توقف منذ أمد طويل. فقد كرس وقته منذ بضع سنوات للرسوم التوضيحية، وتخصصه الآن فيما أعتقد هو سيارات المطافئ. سوف يعمل يوماً بعد يوم في حجرته العلوية إياها مخططاً السيارة بعد السيارة. لكن في الأمسيات وعقب بضع كؤوس أتصور أن شينتارو يحلو له الاعتقاد أنه لا يزال الفنان الشاب المثالي الذي أشرفتُ عليه في أول الأمر.

كثيراً ما كان جانب شينتارو الطفولي مصدر تسلية للسيدة كاواكامي التي كانت شخصيتها تتصف بشيء من الأذى.

فمؤخراً مثلاً حضر شينتارو في إحدى الليالي في أثناء عاصفة ممطرة. هرول داخل الحانة الصغيرة وأخذ يعصر قبعته فوق ممسحة الأرجل بالخارج.

"ويحك يا سيد شينتارو!" صاحت فيه السيدة كاواكامي. "يا لها من سلوكيات بشعة!"

مكتبة الفكر الجديد

عند هذا القول ارتفعتْ عينا شينتارو بانزعاج بالغ شأنه شأن مَن ارتكب بحق جريمة نكراء. طفق شينتارو حينها يسرف في الاعتذار مما شجعها على المضي في توبيخه.

"ما عهدتُ قط مثل هذه السلوكيات يا سيد شينتارو. يظهر أنك لا تكن لي أي احترام على الإطلاق."

"توقفي الآن يا أوباسان،" ناشدتُها بعد وهلة. "كفاك، قولي له إنك كنت تمزحين معه فحسب."

"أمزح؟ أنا لست بمازحة على الإطلاق. إنها قمة السلوكيات السيئة."

وهكذا توالى الموقف إلى أن صارت مشاهدة شينتارو جد مثيرة للشفقة. لكن في مواقف أخرى يكون شينتارو مقتنعاً أنها تغيظه بينما هي في الواقع تكلمه بكل جدية. ومر وقت كان فيه شينتارو يُعَرض السيدة كاواكامي لمواقف محرجة كأن يصرح بلسان المبتهج عن جنرال نُفذ فيه حكم الإعدام للتو لأنه مجرم حرب: "أنا دائم الإعجاب بهذا الرجل منذ كنت غلاماً. ماذا يفعل الآن يا ترى. لا ريب أنه تقاعد."

كان حاضراً في تلك الليلة زبائن جدد رشقوه بنظرات تشي بالاستهجان. ولما ذهبتْ السيدة كاواكامي إليه بدافع القلق على زبائنها وأخبرتْه بنبرة هادئة عن مصير الجنرال، ضج شينتارو بالضحك وتصاعد صوته: "حقاً يا أوباسان. أنتِ تبالغين في بعض النكات."

ما أكثر ما يلاحظ الناس جهل شينتارو بمثل هذه المسائل لكن حسبما أقول لا يغض هذا من قدره. إذ يتعين على المرء أن يشعر بالامتنان لوجود مَن لم يتلوثوا بالتيار الراهن الغاص بالسخرية. في الحقيقة ربما تكون نفس هذه الصفة التي يتحلى بها شينتارو، نفس الحاسة التي احتفظ بها سالمة بطريقة أو بأخرى – هي ما جعلتني أستمتع بصحبته أكثر فأكثر خلال هذه الأعوام الأخيرة.

أما السيدة كاواكامي، فبرغم أنها تبذل قصارى جهدها لئلا تسمح للمزاج الحالي أن يطولها، لا نستطيع أن ننكر أنها شاخت كثيراً بفعل سنوات الحرب.

مكتبة الفكر الجديد

فقبل الحرب ربما كان لا يزال ممكناً الاعتقاد أنها "شابة" لكن يبدو أن شيئاً بداخلها قد انكسر ووهن منذ ذلك الحين. وعندما يتذكر المرء مَن فقدتْهم في الحرب، لا تصيبه الدهشة لحالها. تزايدتْ كذلك صعوبة العمل؛ يشق عليها بالتأكيد تصديق أن هذه المنطقة هي نفس المنطقة التي افتتحتْ فيها حانتها الصغيرة منذ ستة عشر عاماً أو سبعة عشر عاماً. فما عاد هناك الآن بالفعل شيء باق من حي المتعة الصغير الخاص بنا، إذ أغلق كل منافسيها القدامى تقريباً محلاتهم ورحلوا عن المكان، ولا بد أن السيدة كاواكامي فكرت أكثر من مرة في أن تحذو حذوهم.

كان محلها، عند ظهوره لأول مرة، محشوراً وسط العديد من الحانات والمطاعم الأخرى. أتذكر أن بعض الناس قد تشككوا في استمرار المحل طويلاً. والحق أنك لم تكن لتستطيع المشي في تلك الشوارع الضيقة بدون أن تمر بالعديد من الرايات القماشية التي تستحثك من كل الجهات وتميل عليك من واجهات المحلات، معلنة بكتابات صارخة عن مَواطن الجاذبية في المنشأة. غير أنه في تلك الأيام جرى العرف بالمنطقة على الإبقاء على ازدهار أي عدد من هذه المنشآت. كانت المنطقة في الأمسيات الأكثر دفئاً بالذات تمتلئ بالناس، يتجولون على مهل من حانة إلى أخرى أو يكتفون بالوقوف في منتصف الشارع ليطرقوا شتى الأحاديث. وقد أحجمتْ السيارات منذ وقت طويل عن التجرؤ على العبور بل إن أية دراجة لا يمكنها اختراق حشود المشاة غير المبالية دون أن تُدفع بمشقة عبرها.

أشير إليه بـ "حي المتعة الخاص بنا" لكني أحسب أنه لم يكن بالفعل سوى مكان للشرب والأكل والحديث. فلا بد أن تقصد وسط المدينة لتشهد أحياء المتعة الحقيقية - لترى منازل فتيات الجيشا ومسارحهن وإن كنت عن نفسي أوثر دائماً منطقتنا، فهي تجتذب حشداً مفعماً بالحيوية والاحترام. الكثير منهم أشخاص مثلنا - فنانون وكُتاب أغراهم الوعد بأحاديث صاخبة تتتابع طوال الليل. كانت مجموعتي تتردد على منشأة تسمى ميجي - هيداري وكنا

مكتبة الفكر الجديد

نقف عند موضع تقاطع ثلاثة شوارع جانبية عند أحد المناطق المرصوفة. كانت الميجي - هيداري على عكس المحلات المجاورة مكاناً متسعاً يمتد في غير اتساق ويلحق به طابق علوي. كانت العديد من المضيفات يرتدين الزي الغربي وكذلك التقليدي. وقد لعبتُ دوراً صغيراً في تفوق الميجي - هيداري على منافسيه، وتقديراً لذلك، وفّر المكان لمجموعتي مائدة في أحد الأركان لاستخدامنا الخاص. الواقع أن مَن نادمتُهم هناك كانوا من خيرة مَدرستي: كورودا، موراساكي، تاناكا - شباب لامعون ذوو سمعة متنامية. كلهم استطابوا الحوار، وأذكر أن الكثير من المناقشات الحامية قد دارت حول هذه المائدة.

يتحتم عليّ أن أقول إن شينتارو لم يكن قط واحداً من هذه المجموعة المنتقاة. فأنا عن نفسي ما كنت لأعترض على انضمامه إلينا، على أنه كان هناك إحساس قوي بالتسلسل الهرمي بين تلاميذي، وشينتارو لم يُعد بالقطع في المرتبة الأولى بينهم. أستطيع في الواقع استدعاء إحدى الليالي، بعد فترة وجيزة من زيارة شينتارو وأخيه، التي ناقشتُ فيها هذه الحادثة حول المائدة. أتذكر كيف هزأ أمثال كورودا من إحساس الأخوين بالامتنان للحصول على "وظيفة رسمية"؛ إلا أنهم أصغوا إليّ جميعاً بإجلال حين أدليت برأيي؛ فبينتُ لهم أن السلطة والمنزلة الرفيعة بوسعهما أن يباغتا شخصاً يعمل بهمة، ليس تعقباً لهذه الغايات في حد ذاتها إنما بهدف إشباع رغبته في إنجاز مهامه على أفضل وجه مستطاع. في هذه اللحظة انحنى أحدهم إلى الأمام - كان بلا شك كورودا - وقال:

"لقد استولى عليّ لفترة من الوقت شعور بأن المعلم لا يفطن إلى ما يخلعه عليه أهالي هذه المدينة من احترام بالغ. والحق أن صيته قد ذاع الآن إلى ما وراء عالم الفن، إلى كل حقول الحياة مثلما يوضح بإسهاب المثال الذي رواه للتو. إلا أن عدم إدراك المعلم لوضعيته خليق بطبعه المتواضع. فمن طبع المعلم أن يكون هو نفسه أكثر الناس دهشة بما يُمنح له من تقدير. لكن نحن جميعاً هنا لا يباغتنا هذا بالدهشة. ويسعني حقيقة أن أقول إنه على الرغم مما يناله من

مكتبة الفكر الجديد

احترام جم من قِبل الجماهير عامة، نحن الجالسون هنا إلى هذه المائدة نعلم وحدنا مدى ضآلة هذا الاحترام حتى الآن. إلا أني شخصياً لا يساورني الشك في أن شهرته ستحلق في الآفاق، وسوف يشرفنا في السنوات المقبلة أن نفخر بأن نقول للآخرين إننا كنا في يوم من الأيام تلاميذ ماسوجي أونو."

لم يشذ هذا الخطاب عن المألوف؛ ففي وقت ما من المساء عندما كنا نشرب جميعنا قليلاً، جرت العادة أن يلقي مَن أرعاهم من التلاميذ خطب الولاء لي. وقد نهض كورودا على الأخص بأكثر الخطب، إذ كانوا يرنون إليه باعتباره متحدثاً باسمهم. درجتُ بالطبع على تجاهلهم، لكن في هذه المناسبة بالذات حين وقف شينتارو وأخوه ينحنيان ويقهقهان بالمدخل، راودني شعور بعظيم الرضا يدفئ قلبي.

على أن الإيحاء بأني لم أخالط سوى خيرة تلاميذي ليس صحيحاً. فأنا أعتقد حقاً أن أول مرة في حياتي أخطو فيها داخل حانة السيدة كاواكامي كانت لرغبتي في قضاء الأمسية أناقش إحدى المسائل مع شينتارو. واليوم عندما أحاول استحضار هذا المساء، ألفي ذاكرتي عنه مختلطة بأصوات كل الأمسيات الأخرى وصورها؛ المشكاوات المعلقة أعلى المداخل، الرواد المتجمعون يتضاحكون خارج الميجي - هيداري، رائحة الطعام المقلي في الأواني العميقة، مضيفة بحانة تقنع شخصاً بالرجوع إلى زوجته - تتردد أصداء مقبلة من كل حدب وصوب، أصداء صنادل خشبية لا عد لها تطقطق على الإسمنت. أذكر أني في إحدى ليالي الصيف الدافئة عندما لم أجد شينتارو بالأماكن التي تعود الاختلاف إليها، تجولتُ في تلك الحانات الصغيرة لبعض الوقت. ورغم المنافسة التي لا بد وأنها احتدمت بين تلك المنشآت، سادت روح مودة بينها. فكان أمراً طبيعياً تماماً عند السؤال عن مكان شينتارو بإحدى تلك الحانات ليلتئذ أن تنصحني المضيفة بلا أدنى استياء أن أحاول العثور عليه في "المكان الجديد".

لا ريب أن السيدة كاواكامي تشير إلى تغييرات عديدة - (تحسيناتها) الطفيفة

مكتبة الفكر الجديد

التي قامت بها خلال السنوات الماضية. بيد أن انطباعي أن محلها الصغير تراءى اليوم على ما كان عليه في تلك الليلة الأولى. فعند دخول الحانة يستوقف المرء التناقض بين طاولة البار المضاءة بأضواء دافئة منخفضة وباقي الحجرة القابعة في الظلام. يؤثر معظم زبائنها الجلوس ضمن محيط الضوء عند البار مما يبعث في المكان إحساساً بالراحة والألفة. أتذكر في تلك الليلة الأولي أني أجلت نظرات تستحسن المكان، واليوم ما تزال حانة السيدة كاواكامي ممتعة كالعهد أبداً بها رغم ما بدل العالم المحيط من تغييرات.

إلا أن التغيير قد طال معظم الأماكن الأخرى. فحينما تخرج الآن من حانة السيدة كاواكامي، ستقف عند مدخلها وستخال أنك كنت تحتسي الخمر للتو في معقل من معاقل الحضارة. لكن لن يحيط بك سوى صحراء من الحجارة المتهدمة. وحسبك العديد من خلفيات المباني النائية كي تتذكر أنك لست بمنأى عن وسط المدينة. "إنه دمار الحرب" حسبما تطلق عليه السيدة كاواكامي. لكني أتذكر أني تجولت بالحي عقب فترة وجيزة من الاستسلام وكانت الكثير من تلك المباني لا تزال قائمة. كان الميجي - هيداري ما زال موجوداً وإن نُسفت كل نوافذه وسقط جزء من السطح. أذكر أني حين سرت بجوار تلك المباني المحطمة، تساءلتُ في قرارة نفسي ما إذا كانت ستعود أبداً إلى الحياة ثانية ثم عرجتُ على المكان في صبيحة أحد الأيام فوجدتُ أن الجرافات قد هدمت كل شيء.

هكذا انقلب الآن ذلك الجانب من الشارع إلى مجرد حطام. لا ريب أن السلطات لديها خطط لإعماره إلا أن تغييراً لم يطرأ على الحال طيلة ثلاث سنوات. يتجمع المطر في برك صغيرة ويركد وسط حطام الطوب. ونتيجة لهذا اضطرت السيدة كاواكامي أن تضع أسلاكاً على نوافذها حماية من الناموس - وبرغم عدم جدواها، تخال السيدة كاواكامي أنها ستجتذب الزبائن.

ظلت المباني قائمة على جانب الشارع الذي تقع به حانة السيدة كاواكامي غير أن العديد منها كان شاغراً؛ فمثلاً العقارات الكائنة إلى جانبيها شاغرة منذ فترة مما يقض عليها مضجعها. وهي تخبرنا كثيراً أنها إن صارت ثرية فجأة،

مكتبة الفكر الجديد

ستشتري كل المتاح من تلك العقارات وتتوسع. وهي تنتظر في غضون ذلك أن ينتقل أحدهم إليها؛ ولا مانع عندها أن يفتتحوا حانات مثل حانتها، أي شيء شريطة ألا تُرغم على العيش وسط مقبرة.

لو خرجتَ من حانة السيدة كاواكامي عندما يبسط الظلام رداءه، قد تضطر إلى أن تتوقف لحظة لتحدق فيما يترامى أمام ناظريك من خراب. لعلك مع ذلك تستطيع أن تميز عبر الظلام تلك الأكوام من الطوب والخشب، وربما تجد هنا أو هناك أجزاء من أنابيب تنتأ من الأرض كما الأعشاب الضارة. وإذ تمشي بجانب المزيد من أكوام الحطام، ستومض العديد من البرك الصغيرة لحظة حين يسقط عليها ضوء المصباح.

وإذا بلغتَ سفح التل الذي يرتفع ليصل إلى منزلي، سوف تتوقف عند جسر التردد وسترمي بناظريك خلفك صوب بقايا حي المتعة القديم، وإن لم تغب الشمس تماماً بعد، قد ترى صف أعمدة التلغراف القديمة - ما زالت بلا أسلاك تصلها - وهو يختفي في العتمة نزولاً نحو الطريق الذي جئت منه للتو. وربما تستطيع أن تتبين مجموعات الطيور الداكنة وهي تجثم في ضيق على أسطح الأعمدة كما لو كانت في انتظار الأسلاك التي اصطفت عليها في السماء ذات مرة.

وفي إحدى الأمسيات القريبة، كنتُ أقف على ذلك الجسر الخشبي الصغير ووقعتْ عيناي من بعيد على عمودين من الدخان يرتفعان من بين الحطام. لعل عمال الحكومة يواصلون برنامجاً تباطأ لدرجة تبعث على السأم أو بعض الأطفال ينخرطون في لعبة ما جانحة. إلا أن منظر هذين العمودين المرتفعين قبالة السماء بث في روعي حالة من الانقباض. فقد كانا أشبه بمحرقتين في جنازة هجرها المشيعون. إنها مقبرة على حد قول السيدة كاواكامي. ومتى يتذكر المرء كل هؤلاء الأشخاص الذين ترددوا ذات يوم على هذه المنطقة، لا يسعه إلا أن يبصر المحيط على هذه الصورة.

إلا أني انحرفت عن الموضوع الرئيسي. فقد كنتُ أحاول هنا أن أستدعي إلى ذهني تفاصيل إقامة سيتسوكو معنا الشهر الفائت.

مكتبة الفكر الجديد

مثلما أشرت من قبل، أنفقتْ سيتسوكو جل اليوم الأول من زيارتها جالسة في الشرفة تأخذ مع أختها بأطراف الحديث. وقرب نهاية الظهيرة لمّا استغرقتْ ابنتاي في أحاديث النساء، أذكر أني مضيت عنهما باحثاً عن حفيدي الذي هرب إلى داخل المنزل منذ دقائق معدودة.

وفيما كنتُ أجتاز الممر، رجَّت ضربة ثقيلة المنزل بأسره، فأوسعتُ الخطى مرعوباً إلى حجرة الطعام. تكون حجرة الطعام في ذلك الوقت من النهار شديدة الإظلام، وبعد تعرض عينيّ لنور الشرفة الساطع، احتجت إلى لحظة أو اثنتين لأتحقق أن إشيرو ليس في الغرفة مطلقاً. وردتْ بعدها ضربة ثقيلة أخرى تلتها ضربات عديدة إضافية يصاحبها صوت حفيدي وهو يصيح: "ياه! ياه!" كانت الضوضاء تنطلق من حجرة البيانو المجاورة فذهبتُ إلى المدخل وأنصت لحظة ثم أزحت الحاجز بهدوء.

على عكس حجرة الطعام، تنعم حجرة البيانو بالشمس طوال اليوم وتشع بنور حاد ساطع. ولو كانت أوسع، لأصبحتْ مكاناً مثالياً لتناول وجباتنا. استخدمتُها في فترة من الفترات في تخزين اللوحات والأدوات إلا أن الحجرة عاطلة الآن من الأثاث عدا البيانو الألماني القائم. ولا مراء أن عدم وجود فوضى ألهب حماسة حفيدي على النحو عينه الذي سلف أن أحدثتْه الشرفة؛ فقد وجدتُه يتقدم عبر الأرضية بحركة عجيبة ضارباً الأرض بقوة، ففهمتُ أنه يمثل دور شخصية تعدو على صهوة جواد عبر أرض مفتوحة. ولأنه ولى المدخل ظهره، مرت بضع لحظات قبل أن يفطن إلى أنه مراقَب.

"أوجي!" قال مستديراً بغضب. "ألا ترى أني مشغول؟"

"آسف يا إشيرو، لم أدرك ذلك."

"لا أستطيع اللعب معك الآن!"

"أنا جد آسف. لكن بدا الأمر في منتهى الإثارة من هنا بالخارج لذا تساءلتُ إن أمكنني الدخول لمشاهدة ما يحدث."

مكتبة الفكر الجديد

راح حفيدي يرمقني بنزق هنيهة ثم قال وهو متجهم الوجه: "طيب. لكن عليك أن تجلس هادئاً. فأنا مشغول."

"حسناً، حسناً" قلت ضاحكاً. "شكراً جزيلاً يا إشيرو."

ظل حفيدي يرنو إليّ وأنا أقطع الحجرة وأتخذ مجلسي بجوار النافذة. عندما وصل إشيرو مع أمه المساء الماضي، أعددت له هدية عبارة عن كراسة رسم ومجموعة أقلام شمع ملونة. لاحظتُ الآن أن الكراسة موضوعة على الحصيرة وثمة ثلاثة أقلام شمع أو أربعة مبعثرة حولها. تمكنتُ من أن أرى أن الصفحات القليلة الأولى من الكراسة مرسوم عليها. هممت أن أمد يدي إلى الكراسة حتى أتفحص الرسم عندما استأنف إشيرو فجأة الدراما التي قاطعتُها.

"ياه! ياه!"

راقبتُه لفترة وجيزة غير أني لم أفهم ما مثله من مشاهد. كان يكرر حركة حصانه في الفواصل؛ وفي أحيان أخرى كان يتبدى وكأنه في قتال مع الكثير من الأعداء غير المنظورين. ما انفك في أثناء هذا كله يكمل سطوراً من حوار هامس. حاولتُ جهدي أن أتبينها لكنه على حد علمي لم يكن يستخدم كلمات حقيقية، مجرد أصوات بلسانه ليس إلا.

ورغم أنه بذل وسعه لكي يتجاهلني، كان من الواضح أن وجودي ساهم في كبته. إذ تسمر عدة مرات أثناء حركته وكأن الوحي قد هجره بغتة قبل أن يلقي بنفسه في الحركة مرة أخرى. ثم ما لبث أن استسلم وسقط بقوة على الأرضية. تساءلتُ إن كان عليّ أن أصفق لكني راجعت نفسي.

"لقد أبهرتَني يا إشيرو. لكن أخبرني، مَن كنتَ تمثل؟"

"خمن يا أوجي."

"أ أ. ربما الأمير يوشيتسون؟ لا؟ محارب من الساموراي إذاً؟ أ أ. أم لعله محارب النينجا؟ نينجا الرياح."

"أوجي غلطان تماماً."

" أخبرني إذاً. مَن كنتَ؟"

مكتبة الفكر الجديد

"الجوال الوحيد!"[1]

"ماذا؟"

"الجوال الوحيد! هيا يا سيلفر!"[2]

"الجوال الوحيد؟ هل هذا راعي بقر؟"

"هيا يا سيلفر!" أخذ إشيرو يركض ثانية بالفرس محدثاً هذه المرة ضجة بصهيل الفرس.

راقبتُ حفيدي برهة ثم سألتُه في آخر الأمر: كيف تعلمتَ لعب دور راعي البقر يا إشيرو؟ لكن ما كان منه سوى أن استمر في العدو والصهيل.

"إشيرو!" قلت بلهجة تحمل مزيداً من الحزم، "انتظر لحظة واستمع إليّ. إنه لأكثر إمتاعاً، أكثر إمتاعاً بمراحل، أن تتظاهر بأنك شخص مثل الأمير يوشيتسون. أخبرك عن السبب؟ اسمع يا إشيرو، سيشرح لك أوجي المسألة. إشيرو استمع إلى جدك السيد أوجي يا إشيرو."

يجوز أني رفعت صوتي أكثر مما قصدت لأنه توقف وحدجني بتعبير مشدوه يرين على ملامحه. أدمت النظر إليه لحظة ثم أطلقتُ تنهيدة.

"آسف يا إشيرو، ما وجب عليّ مقاطعتك. بمقدورك طبعاً أن تكون أي شخصية تشاء، حتى لو كان راعي بقر. لا بد أن تغفر لجدك السيد أوجي. فقد نسيت ذلك لحظة."

ظل حفيدي يحملق إلى وجهي وجال بخاطري أنه على وشك الإجهاش بالبكاء أو أنه سيهرع إلى خارج الحجرة.

"من فضلك يا إشيرو، واصل فقط ما كنتَ تفعله."

ظل إشيرو يحدق في وجهي برهة أطول ثم باغتني بصياحه: "الجوال

---

1 الجوال الوحيد: دراما إذاعية للصغار انطلقت عام 1933 من إحدى الإذاعات الأمريكية. وتدور حول البطل ذي القناع الذي استطاع بمساعدة رفيقه، أحد الهنود الحمر، التصدي للشر وفرض القانون بإحدى الولايات الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية.

2 سيلفر: اسم حصان الجوال الوحيد.

مكتبة الفكر الجديد

الوحيد! هيا يا سيلفر!" واستأنف العدو من جديد. ضرب قدميه بعنف أشد من ذي قبل اهتزت له الحجرة كلها من حولنا. تابعتُه بعيني وهلة ثم مددت يدي لألتقط كراسة الرسم الخاصة به.

أهدر إشيرو أول أربع أو خمس أوراق. ما كان أسلوبه سيئاً كلية غير أنه ترك الرسوم التخطيطية لعربات الترام والقطارات في مرحلة مبكرة جداً. انتبه إشيرو إلى أني أتفحص كراسته فخفَّ إليّ.

"يا أوجي! مَن سمح لك بالنظر إليها؟" حاول انتزاع الكراسة مني، ولكني أمسكتها بعيداً عن متناول يده.

"لا تكن فظاً الآن يا إشيرو. يود أوجي أن يرى ما كنتَ تصنعه بأقلام الشمع التي أعطاها لك. هذا من الإنصاف فحسب." أنزلتُ الكراسة وفتحتُها على أول رسم. "إنه جد مبهر يا إشيرو. أ أ. لكن هل تعلم أنك تستطيع كذلك أن تحسِّن رسمك إن رغبتَ."

"غير مسموح لأوجي برؤيتها!"

حاول حفيدي أن ينتزع الكراسة ثانية فدفعني إلى أن أبعد يديه بذراعي.

"أوجي! أرجع لي كراسي!"

"كفاك الآن يا إشيرو. دع جدك أوجي يتفرج."

"انظر يا إشيرو، أحضر لي أقلام الشمع الملقاة هناك. آتني بها وسنرسم شيئاً معاً. أوجي سيريك."

خلفتْ هذه الكلمات أثراً مذهلاً. إذ امتنع حفيدي من فوره عن المقاومة ثم راح ليجمع ما تبعثر على الأرضية من أقلام شمع. لمّا عاد، خالج سلوكه صفة جديدة، نوع من الافتتان. جلس بجانبي وقدّم إليّ أقلام الشمع، راقبني بانتباه إنما بصمت.

فتحتُ صفحة جديدة ووضعتُها على الأرضية أمامه قائلاً: "دعني أولاً أراك ترسم شيئاً يا إشيرو ثم سيرى أوجي إذا ما كان يستطيع أن يساعد في جعل رسمك أجمل. ماذا تريد أن ترسم؟"

مكتبة الفكر الجديد

غدا حفيدي آية في الهدوء. أخفض بصره إلى الصفحة الخالية متأملاً إياها لكنه لم يحرك ساكناً للبدء في الرسم.

فاقترحتُ عليه: "لِم لا تحاول أن ترسم شيئاً رأيتَه بالأمس؟ شيئاً رأيتَه عند وصولك إلى المدينة في بادئ الأمر."

استمر إشيرو ينظر إلى كراسة الرسم ثم رفع وجهاً متسائلاً: "أكان أوجي رساماً مشهوراً في يوم من الأيام؟"

"رساماً مشهوراً؟" علت ضحكتي. "أظنك تستطيع أن تقول هذا. أهذا ما تقوله أمك؟"

"يقول أبي إنك كنت رساماً مشهوراً لكنك اضطررت إلى أن تتوقف."

"لقد تقاعدتُ يا إشيرو. الكل يتقاعد بعد بلوغ سن معينة. هذا هو الواجب فقط، فهم يستحقون الراحة."

"يقول أبي إنك اضطررت إلى أن تتوقف لأن اليابان انهزمت في الحرب."

فرت مني ضحكة أخرى ثم مددت يدي لأتناول كراسة الرسم. قلبتُ الصفحات إلى الوراء متفحصاً رسوم حفيدي لعربات الترام. أمسكتُ أحدها بطول ذراعي حتى أحصل على رؤية أفضل. "لما يبلغ الإنسان سناً معينة يا إشيرو، يود أن يستريح من عمله. سيتوقف أبوك هو أيضاً عن العمل عندما يبلغ سني. وذات يوم ستصل إلى سني وسترغب أنت أيضاً في أخذ قسط من الراحة. الآن" – عدت إلى الصفحة الخالية ووضعتُ الكراسة أمامه مجدداً – "ماذا سترسم لي يا إشيرو؟"

"هل رسم أوجي اللوحات المعلقة في حجرة الطعام؟"

"لا، رسمها فنان يدعى يورايامـا. لماذا؟ هل تعجبك؟"

"هل رسم أوجي اللوحات المعلقة في الممر؟"

"تلك لوحات فنان آخر بارع، صديق قديم لأوجي."

"أين هي لوحات أوجي إذن؟"

مكتبة الفكر الجديد

"محفوظة الآن في مكان بعيد. دعنا الآن نعود إلى المهم يا إشيرو. ماذا سترسم لي؟ ماذا تتذكر من الأمس؟ ما الأمر يا إشيرو؟ أصبحتَ هادئاً فجأة."

"أريد أن أرى لوحات أوجي."

"أنا على ثقة أن ولداً ذكياً مثلك يستطيع تذكر الكثير من الأشياء. ماذا عن ملصق الفيلم الذي شاهدتَه؟ المرسوم عليه وحش ما قبل التاريخ. أنا متأكد أن شخصاً مثلك يقدر أن يرسمه بكفاءة عالية، ربما حتى أحسن من الملصق الأصلي."

لاح لي أن إشيرو يتدبر المسألة لحظة ثم انكفأ على صدره وجعل يرسم ووجهه قريب من الورقة.

استخدم قلم شمع لونه بني غامق ليرسم في أسفل الصفحة صفاً من الصناديق سرعان ما صارت أشباحاً لمباني المدينة. ثم انبثق من هناك مخلوق هائل أشبه بالسحلية يقف على رجليه الخلفيتين ويلوح مخيفاً فوق المدينة. بدل حفيدي عند هذه النقطة قلم الشمع البني بآخر أحمر وأخذ يرسم خطوطاً براقة حول السحلية كلها.

"ما هذه يا إشيرو؟ نار؟"

تابع إشيرو رسم الخطوط الحمراء دون أن أظفر منه بجواب.

"لماذا توجد نار يا إشيرو؟ هل هي مرافقة لظهور الوحش؟"

"أسلاك أعمدة كهربائية،" رد إشيرو وتنهد تبرماً.

"أسلاك أعمدة كهربائية؟ إن هذا مثير للاهتمام. تُرى لِم تتسبب أسلاك الأعمدة الكهربائية في إشعال الحرائق. أتعلم؟"

ارتفعتْ تنهيدة ثانية من إشيرو وواصل الرسم. التقط قلمه الغامق مرة أخرى وبدأ يرسم في أسفل الصفحة أشخاصاً يفيض بهم الخوف ويفرون رعباً في الاتجاهات كافة.

علّقتُ: "يا لك من رسام بارع يا إشيرو. قد يكافئك أوجي باصطحابك لمشاهدة الفيلم غداً. هل تود هذا؟"

مكتبة الفكر الجديد

كف حفيدي عن العمل ورفع بصره قائلاً: "ربما يخيف أوجي زيادة عن اللزوم."

"أشك،" قلت ضاحكاً. "غير أنه قد يفزع أمك وخالتك بالفعل."

فور سماعه لهذه العبارة انفجر إشيرو في ضحك صاخب. انقلب على ظهره وأغرق في الضحك ثم صاح ناظراً إلى السقف: "ستموت أمي وخالتي نوريكو من الرعب."

"لكن نحن الرجال سنستمتع به، أليس كذلك يا إشيرو؟ سنذهب غداً. أيوافقك هذا؟ سنأخذ النساء معنا وسنشاهدهما وهما مرعوبتان."

والى إشيرو الضحك بصوت مرتفع: "سترتعب خالتي نوريكو فوراً."

"يُحتمل فعلاً،" قلت ضاحكاً مرة أخرى. "حسناً، سنذهب كلنا غداً. الآن يا إشيرو من الأفضل أن تواصل رسمك."

"ستخاف خالتي نوريكو! وستريد أن تغادر!"

"هيا نتابع الرسم الآن يا إشيرو. كنتَ تجيد الرسم."

انكفأ إشيرو ثانية على صدره ورجع إلى رسمه. بدا مع ذلك أنه فقد تركيزه السابق؛ إذ شرع في إضافة المزيد والمزيد من الأشكال الهاربة في أسفل رسمه إلى أن تداخلتْ الصور وباتت خالية من أي معنى. انتهى به الأمر إلى أن تخلى عن كل عناية وطفق يخربش بتهور في كل الجزء السفلي من الصفحة.

"يا إشيرو ماذا تفعل؟ لن نذهب إلى الفيلم إن تصرفتَ بهذه الطريقة. توقف يا إشيرو!"

هب حفيدي واقفاً وصاح: "هيا يا سيلفر!"

"اقعد يا إشيرو. أنت لم تفرغ بعد."

"أين خالتي نوريكو؟"

"تتحدث مع أمك. الآن يا إشيرو، أنت لم تنته من رسمك بعد."

إلا أن حفيدي أسرع إلى خارج الحجرة صائحاً: "الجوال الوحيد! هيا يا سيلفر!"

لا أستطيع أن أتذكر على وجه الدقة ما قمت به خلال الدقائق العديدة التالية.

مكتبة الفكر الجديد

احتمال كبير أني لبثت جالساً هناك بحجرة البيانو، أتفرس في رسوم إشيرو بذهن خال من أي شيء مثلما أميل أن أفعل على نحو متزايد هذه الأيام. نهضتُ في النهاية ومضيت باحثاً عن أسرتي.

ألفيت سيتسوكو جالسة بمفردها في الشرفة، ترنو إلى الحديقة. كانت الشمس لم تزل مشرقة إلا أن النهار أصبح أكثر برودة. لمّا ظهرتُ، استدارت سيتسوكو وزحزحتْ وسادة إلى رقعة من ضوء الشمس لأجلس عليها.

"أعددنا شاياً طازجاً. أتريد بعضاً منه يا أبي؟"

شكرتُها، وفيما كانت تصب لي الشاي، حدقتُ في الحديقة بالخارج.

على الرغم مما قاسته حديقتنا خلال الحرب، فقد استردت عافيتها بشكل جيد، ومازال يمكن التعرف عليها باعتبارها ذات الحديقة التي أقامها أكيرا سوجيمورا منذ حوالي أربعين سنة خلت. استطعت رؤية نوريكو وإشيرو عند الطرف البعيد القريب من السور الخلفي، كانا يتفحصان شجيرة خيزران. كان سوجيمورا قد غرس تلك الشجيرة وهي كاملة النمو بعد أن جاء بها من مكان آخر بالمدينة مثلها تقريباً مثل كل الشجيرات والأشجار الأخرى بالحديقة. وفي الحق أن ثمة شائعة أن سوجيمورا طاف بنفسه في أنحاء المدينة مدققاً النظر فوق سياجات الحدائق ليعرض مبالغ ضخمة على صاحب أي شجيرة أو شجرة يرغب في استئصالها لنفسه. لو صحت هذه الإشاعة، إذاً فقد انتقى حديقته بمهارة تستحق الإعجاب؛ فخرجتْ النتيجة - التي ظلت إلى اليوم - آية في التناسق. ويعتري المرء إحساس بأن الحديقة طبيعية معرشة، تكاد تخلو من أي ملمح لتصميم صناعي.

"تجيد نوريكو دائماً التعامل مع الأطفال. إن إشيرو مولع بها." علقتْ سيتسوكو دون أن تنحي وجهها عنهما.

"إن إشيرو ولد ممتاز. فهو ليس خجولاً مثل الكثير من الأطفال في سنه."

"أرجو ألا يكون قد أزعجك منذ قليل، فبمقدوره أن يكون شديد العناد في بعض الأوقات. من فضلك لا تتردد في توبيخه إن أضحى مصدر إزعاج لك."

مكتبة الفكر الجديد

"أبداً. نحن على وفاق تماماً. كنا في الحقيقة نرسم معاً للتو."

"حقاً؟ أنا موقنة أنه استمتع بوقته."

"وقد مَثّل لي أيضاً أحد السيناريوهات. إنه موهوب في التمثيل."

"آه أجل. هو يشغل نفسه طويلاً بهذه الطريقة."

"هل يؤلف كلماته بنفسه؟ حاولتُ الإصغاء لكني لم أتبين ما قاله."

رفعتْ ابنتي يدها لتداري ضحكتها قائلة: "لا بد أنه كان يمثل دور رعاة البقر. عندما يمثل دور رعاة البقر، يحاول التحدث بالإنجليزية."

"الإنجليزية؟ عجيبة! هكذا كان الأمر إذاً."

"اصطحبناه مرة إلى السينما لمشاهدة فيلم أمريكي عن رعاة البقر. ومنذ ذلك الحين وهو مغرم برعاة البقر حتى إننا اضطررنا إلى شراء قبعة رعاة البقر له. وهو على قناعة بأن رعاة البقر يصدرون ذاك الصوت العجيب الذي يصدره. لا بد أنك قد وجدت الأمر غريباً."

"تلك هي المسألة إذاً،" قلت ضاحكاً. "أصبح حفيدي راعي بقر."

كانت أوراق النباتات بالحديقة تتمايل على أثر هبوب النسيم. انحنت نوريكو بجوار المشكاة الحجرية القديمة بالقرب من السور الخلفي لتري إشيرو شيئاً ما.

قلت متنهداً: "مع ذلك منذ سنين قليلة فحسب لم يكن مسموحاً لإشيرو بمشاهدة ما يسمى بفيلم رعاة بقر."

قالت سيتسوكو ونظرها لا يغيب عن الحديقة: "سويشي يعتقد أنه يحسن به أن يحب رعاة البقر على أن يقدس أشخاصاً مثل ميامونو موساشي. يعتقد سويشي أن الأبطال الأمريكيين قدوة أحسن للأطفال في هذه الآونة."

"أحقاً؟ ذلك رأي سويشي إذاً."

بدا على إشيرو عدم الانبهار بالمشكاة الحجرية لأننا رأيناه يسحب ذراع خالته بعنف، وإلى جانبي ضحكتْ سيتسوكو بحرج.

"إنه متغطرس جداً، فهو يجذب الناس جيئة وذهاباً. إن سلوكياته سيئة."

"على فكرة، قررنا أنا وإشيرو الذهاب إلى السينما غداً."

مكتبة الفكر الجديد

"أحقاً؟"

كان بوسعي أن أبصر على الفور ما تخلل سلوك سيتسوكو من شك.

فقلت لها: "أجل، يبدو أنه متقد الحماسة لوحش ما قبل التاريخ هذا. لا تقلقي، لقد بحثتُ عن الفيلم في الجريدة، وهو مناسب تماماً لولد في مثل سنه."

"نعم، أنا متأكدة."

"كنتُ أفكر في الواقع أن نذهب كلنا، نذهب في نزهة عائلية إذا جاز القول."

ازدردتْ سيتسوكو ريقها بعصبية وقالت: "سنستمتع بذلك كل الاستمتاع لكن ربما تعد نوريكو أيضاً بعض الخطط للغد."

"حقاً؟ ما هي تلك الخطط؟"

"أعتقد أنها أرادت أن نمضي كلنا إلى متنزه الغزلان لكني متأكدة أننا نستطيع الذهاب في وقت آخر."

"لم أكن أعلم أن نوريكو لديها أية خطط. فهي بالقطع لم تسألني عنها البتة. إلى جانب أني أخبرت إشيرو بالفعل أننا سنذهب إلى الفيلم غداً، ونفسه تواقة الآن للذهاب."

"بالفعل، أنا متأكدة أنه سيود الذهاب إلى السينما."

أقبلتْ نوريكو إلينا من ممر الحديقة وإشيرو يقودها ممسكاً يدها. كان بمقدوري ولا شك مناقشة موضوع اليوم التالي معها بلا تردد لكنها وإشيرو لم يبقيا بالشرفة، إذ دخلا لغسل أيديهما. ولم أستطع في الواقع أن أطرح المسألة إلا بعد العشاء في هذه الأمسية.

على الرغم من أن حجرة الطعام تبدو مكاناً كئيباً إلى حد ما خلال النهار، إذ لا تتوهج بأشعة الشمس إلا في النادر، إلا أنها بعد حلول الظلام ومع خفض مظلة المصباح فوق المائدة، تتمتع بجو دافئ يريح الجالسين. كنا قد قعدنا إلى المائدة منذ بضع دقائق - نطالع الجرائد والمجلات - عندما قلت لحفيدي: "حسناً يا إشيرو، هل أخبرتَ خالتك بخطط الغد؟"

مكتبة الفكر الجديد

رفع إشيرو عينيه عن كتابه وهو في حيرة من أمره.

"هل سنأخذ النساء معنا أم لا؟ تذكر ما قلناه، ربما تجدانه مخيفاً للغاية."

فهمني حفيدي هذه المرة وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة قائلاً: "ربما يكون مخيفاً بالنسبة لخالتي نوريكو. هل تريدين المجيء يا خالة نوريكو؟"

تساءلتْ نوريكو: "أجيء إلى أين يا سيد إشيرو؟"

"فيلم الوحش."

شرحتُ لها: "كنتُ أفكر في أن نذهب كلنا إلى السينما غداً في نزهة عائلية إذا جاز القول."

"غداً؟" جرت عينا نوريكو عليّ ثم التفتتا إلى حفيدي: "حسناً، لا يمكننا الذهاب غداً، أليس كذلك يا إشيرو؟ نحن ذاهبون إلى متنزه الغزلان، أتذكر؟"

"متنزه الغزلان لن يطير. الولد يتطلع الآن إلى رؤية فيلمه."

ردت نوريكو: "كلام فارغ، كل شيء مرتب. سنعرج على السيدة واتاناب في طريق عودتنا، فقد كانت تريد أن تلتقي بإشيرو. على أية حال نحن قررنا منذ فترة طويلة. أليس كذلك يا إشيرو؟"

"هذا كرم جم منك يا أبي،" قاطعتْها سيتسوكو. "لكني عارفة أن السيدة واتاناب تتوقع مجيئنا. ربما علينا إرجاء السينما إلى اليوم التالي."

اعترضتُ قائلاً: "لكن إشيرو يتطلع إلى مشاهدة الفيلم، أليس كذلك يا إشيرو؟ يا لهن من مزعجات هؤلاء النسوة."

لم يكن إشيرو ينظر إليّ، إذ عاوده الانهماك في كتابه على ما يظهر.

فقلت له: "قل لهؤلاء النسوة يا إشيرو."

ظل حفيدي يحملق إلى كتابه.

"إشيرو."

أسقط كتابه فجأة على المائدة وهب واقفاً ثم جرى إلى خارج الحجرة متجهاً نحو غرفة البيانو.

مكتبة الفكر الجديد

ضحكتُ في خفوت وقلت لنوريكو: "أرأيتِ؟ لقد أحبطته. كان عليك ترك الأمور على حالها."

"لا تكن سخيفاً يا أبي. لقد رتبنا زيارة السيدة واتاناب منذ أمد طويل علاوة على أنه من السخافة أن تأخذ إشيرو لمشاهدة مثل هذا الفيلم، فهو لن يستمتع بمثله، أليس كذلك يا سيتسوكو؟"

ابتسمتْ ابنتي الكبرى ابتسامة توحي بضيقها ثم قالت بهدوء: "إنك حنون للغاية يا أبي، ربما في اليوم التالي..."

أطلقتُ تنهيدة هازاً رأسي وعدت إلى جريدتي. لكن عندما انقضت عدة دقائق وغدا من الواضح أن ابنتيّ لن تعيدا إشيرو، نهضتُ بنفسي واتجهتُ إلى حجرة البيانو.

عجز إشيرو عن الوصول إلى سلك مظلة المصباح فأضاء المصباح الموضوع أعلى البيانو. ألفيته جالساً على كرسي البيانو وقد اتكأ جانب رأسه على غطاء البيانو ولبستْ ملامحه التي انضغطت على الخشب الداكن هيئة الاستياء.

"آسف على ما حدث يا إشيرو. لكن لا داعي للإحباط، سنذهب في اليوم التالي."

لم ينبس إشيرو ببِنت شفة، فقلت: "حقاً يا إشيرو، المسألة لا تحتمل كل هذا الإحباط."

اتجهتُ نحو النافذة. كان الظلام الدامس قد حل في الخارج، فلم أستطع أن أرى سوى انعكاسي وانعكاس الحجرة من خلفي. واستطعت سماع المرأتين تتكلمان في الحجرة الأخرى بأصوات منخفضة النبرات.

"لا تبتئس يا إشيرو. لا شيء يدعو إلى الانزعاج. سوف نذهب في اليوم التالي. هذا وعد مني بذلك."

عندما استدرت ثانية إلى إشيرو، كان رأسه يتكئ على غطاء البيانو كما كان؛ بيد أنه كان يحرك أصابعه على طول الغطاء كما لو كان يعزف على المفاتيح.

مكتبة الفكر الجديد

بدرتْ مني ضحكة خافتة وقلت: "طيب يا إشيرو سنذهب بعد غد. فلا ينبغي أن ندع النساء تسيطرن علينا، أليس كذلك؟" ضحكتُ ثانية. "أحسبهما ظنتاه مرعباً إلى أبعد الحدود، أليس كذلك يا إشيرو؟"

ظل حفيدي مطرقاً إلا أنه ما فتئ يحرك إصبعه على غطاء البيانو، فقررتُ أنه من الأفضل أن أدعه بمفرده بضع دقائق ورجعتُ إلى حجرة الطعام تصحبني ضحكتي.

وجدتُ ابنتيّ جالستين في صمت تقرآن المجلات. حينما اتخذتُ مجلسي، تنهدتُ تنهيدة عميقة لم يند عنهما أي رد فعل إزاءها. أعدت نظارة القراءة إلى وجهي وأوشكتُ أن أشرع في قراءة الجريدة عندما قالت نوريكو بنبرة هادئة: "هل نعد بعض الشاي يا أبي؟"

"هذا لطف بالغ منك يا نوريكو لكني لا أرغب فيه الآن."

"ماذا عنك يا سيتسوكو؟"

"شكراً يا نوريكو لكني لا أريد أنا الأخرى."

تابعنا القراءة والسكون يلفنا لبضع لحظات أخرى ثم قالت سيتسوكو: "هل سيأتي أبي معنا غداً؟ ما زال يمكننا القيام بنزهة عائلية."

"أود ذلك إنما لا أظن، عليّ أن اضطلع ببعض الأمور غداً."

قاطعتني نوريكو: "ماذا تعني؟ ما هي تلك الأمور؟" ثم التفتت إلى سيتسوكو قائلة: "لا تبالي بكلام أبي، فليس لديه ما يقوم به هذه الأيام. سوف يهيم فقط في أرجاء المنزل كما هي عادته الآن."

"سيكون الخروج لطيفاً جداً لو رافقتَنا يا أبي،" وجهتْ سيتسوكو حديثها إليّ.

أجبتها وعيناي تنخفضان ثانية إلى الجريدة: "لكني للأسف عندي أمر أو اثنان لأعنى بهما."

"وهكذا ستمكث بالبيت وحيداً؟" سألتني نوريكو.

"يظهر أني سأضطر إلى ذلك إن كنتم ستخرجون كلكم."

مكتبة الفكر الجديد

علت كحة – تنم عن الكياسة – من سيتسوكو التي قالت: "إذن ربما أبقى في البيت أنا أيضاً، فالفرصة لم تسنح لي لتبادل الأخبار مع أبي."

حدقت نوريكو في وجه أختها عبر المائدة قائلة: "لا داعي لأن تفوتك الفرصة. لقد قطعتِ كل هذه المسافة ولن يطيب لك قضاء الوقت كله في المنزل."

"لكني سأستمتع أيما استمتاع بالبقاء مع أبي. أتوقع أن يكون لدينا الكثير من الأخبار لتبادلها."

"انظر إلى ما صنعتَه يا أبي،" اشتكت نوريكو ثم قالت لأختها: "إذاً سيتبقى أنا وإشيرو فقط."

"سيستمتع إشيرو بإمضاء اليوم معك يا نوريكو،" أخبرتْها سيتسوكو مبتسمة. "فأنت حقاً الأثيرة لديه الآن."

سعدتُ بقرار سيتسوكو بالمكوث في البيت، فنحن بالفعل لم تتسن لنا فرصة الحديث بلا مقاطعة؛ وثمة بالطبع العديد من الأشياء التي يود الأب أن يعرفها عن حياة ابنته المتزوجة ولا يمكنه السؤال عنها صراحة. لكن لم يرد على خاطري قط في ذلك المساء أن سيتسوكو عندها أسبابها الخاصة وراء رغبتها في البقاء معي بالمنزل.

قد يكون اعتيادي التجول في الغرف بدون أدنى غاية علامة على تقدمي في السن. عندما فتحتْ سيتسوكو باب حجرة الاستقبال في تلك الظهيرة – في اليوم الثاني لزيارتها – لا بد وأنني كنت قد أطلت الوقوف هناك تائهاً في خضم أفكاري.

"آسفة. سأعود في وقت لاحق."

استدرت وقد أجفلت لأجد ابنتي راكعة على عتبة الباب ممسكة بزهرية مليئة ببعض الأزهار وشتلات النباتات.

"لا، تفضلي أرجوك. لم أكن أفعل شيئاً معيناً."

إن التقاعد يتيح لك مزيداً من الوقت. والحق أن إحدى متع التقاعد هي أنك

مكتبة الفكر الجديد

تستطيع أن تنساق في تيار اليوم على مهلك مطمئناً لعلمك أنك قد بذلت عظيم جهدك وإنجازك في الماضي. ومع ذلك لا بد أني أصبحت غائب العقل فعلاً لأني أتجول بلا هدف في حجرة الاستقبال دون باقي الحجرات. ويعود ذلك إلى أني احتفظت طوال سنوات عمري بإحساس غرسه فيّ أبي، وهو أن حجرة الاستقبال مكان لا بد أن يحظى بالاحترام، مكان لا بد أن يُحافظ عليه غير متسخ بتوافه الحياة اليومية كي يعد لاستقبال الضيوف المهمين أو للصلاة عند المذبح البوذي. وهكذا تمتعتْ حجرة الاستقبال بمنزلي دوماً بجو أكثر مهابة مما يوجد في أغلب المنازل الأخرى؛ وعلى أني لم أسن قاعدة للأمر مثلما فعل أبي، فقد نهيت أولادي في صغرهم عن دخول الغرفة ما لم يصدر لهم تحديداً أمر بذلك.

قد يبدو احترامي لحجرات الاستقبال مبالغة مني بحق لكنك يجب أن تدرك أن المنزل الذي نشأتُ فيه - بقرية تسوروكا على مسافة نصف يوم بالقطار من هنا - حظر عليّ مجرد دخول حجرة الاستقبال حتى بلغتُ الثانية عشرة. ولما كانت تلك الحجرة محور المنزل من نواح عديدة، دفعني الفضول إلى بناء صورة لتصميمها الداخلي من خلال ما تمكنتُ من التقاطه من لمحات عابرة. وفي وقت لاحق من حياتي كنتُ كثيراً ما أدهش زملائي بقدرتي على إدراك منظر مرسوم على نسيج الكنفا معتمداً فقط على لمحات عابرة أشد ما تكون إيجازاً؛ يجوز أني أدين بالشكر لأبي لتعزيزه فيّ تلك المهارة وللتدريب غير المتعمد الذي وهبه لعيني - عين الرسام - خلال سنوات تكويني. على كل عندما بلغتُ الثانية عشرة، بدأتْ "اجتماعات العمل"، فألفيت نفسي حينها داخل تلك الحجرة مرة كل أسبوع.

"سنناقش أنا وماسوجي العمل الليلة،" كان أبي يعلن أثناء العشاء. فكان بذلك يخدم غرضين: الأول استدعائي لتقديم نفسي عقب الوجبة، والثاني تحذير موجه إلى بقية العائلة من مغبة إصدار أية ضوضاء بجوار حجرة الاستقبال في ذلك المساء.

كان أبي يختفي داخل الحجرة بعد العشاء ويطلبني بعدها بحوالي خمس

مكتبة الفكر الجديد

عشرة دقيقة. والحجرة التي دخلتُها تضيئها شمعة واحدة طويلة تقوم وسط الأرضية. وفي دائرة الضوء الذي تلقي به، يجلس أبي متربعاً على الحصيرة وأمامه "صندوق العمل" الخشبي الخاص به. كان يومئ إليّ كي أجلس قبالته في الضوء، وعندما أجلس، كان نور الشمعة يطرح باقي الحجرة في العتمة. تمكنتُ بصورة مبهمة ليس إلا من تمييز ما يقع وراء كتف أبي سواء المذبح البوذي بجوار الحائط القصي أو ما يزين فجوات الحائط من معلقات قليلة.

يبدأ أبي بعدئذ في الحديث. ومن داخل "صندوق العمل" الخاص به، يُخرج مفكرات صغيرة سميكة ويفتح بعضها ليشير إلى أعمدة من الأرقام المتراصة بكثافة. وأثناء ذلك، يتوالى حديثه بنبرة مدروسة رزينة ليتوقف فقط بين الفينة والأخرى حين يرنو إليّ وكأنه يبغي الحصول على تصديق مني على ما يقول. فأتفوه بعجلة: "أجل، بالفعل."

كان بالطبع من رابع المستحيلات أن أتابع ما يقوله أبي. فقد كان يرطن ويسرد ما يريد في صورة حسابات مطولة دون أن يقدم أية تنازلات لكونه يحادث ولداً صغيراً. لكن لاح لي أن من المحال كذلك أن أطلب منه الكف والشرح لأني - كما تصورت - لم يُسمح لي بدخول حجرة الاستقبال إلا لاعتباري ناضجاً بما يكفي لفهم مثل هذا الحديث. وكان شعوري بالخجل لا يضارعه سوى خوف رهيب أن أومر في أية لحظة أن أتفوه بأكثر من "أجل، بالفعل" وعندها ستنكشف حيلتي. وعلى الرغم من مرور الشهر تلو الشهر دون أن يُطلب مني مطلقاً أن أنبس بالمزيد، تلبَّسني الرعب من "اجتماع العمل" التالي.

من الواضح الآن بالطبع أن أبي ما توقع لحظة قط أن أفهم كلامه إلا أني لم أتحقق البتة من السبب الحقيقي الذي من أجله عرّضني لهذه المحن. لعله أراد أن يطبع في ذهني منذ تلك السن المبكرة توقعه أني سأتولى إدارة أعمال العائلة في النهاية. أو ربما أحس أنه باعتباري كبير العائلة في المستقبل، وجب فحسب استشارتي في جميع القرارات التي من المرجح أن تمتد آثارها إلى سن بلوغي؛ وبهذه الطريقة، كما ربما حسبها أبي، لن أشكو إن ورثتُ أعمالاً فاشلة.

مكتبة الفكر الجديد

وعندما بلغتُ الخامسة عشرة، أتذكر أني استدعيت إلى حجرة الاستقبال لحضور اجتماع من نوع مختلف. كانت الحجرة مضاءة كعادتها بشمعة طويلة يجلس أبي في منتصف نورها إلا أنه وضع أمامه في ذلك المساء آنية فخارية ثقيلة عوضاً عن صندوق الأعمال الخاص به مما أوقعني في الحيرة، فهذا القدر هو الأكبر بالمنزل وكان يخرج في المعتاد للضيوف دون سواهم.

"أحضرتَها كلها؟" سأل.

"لقد نفذتُ أوامرك."

وضعتُ بجانب أبي كومة اللوحات والمخططات التي كنت ممسكاً بها لتتكوم بلا انتظام صفحات من مختلف الأحجام والأصناف وقد التوى أغلبها أو تجعد بالألوان.

جلستُ يغشاني الصمت على حين كان أبي ينظر بدقة إلى أعمالي. كان يتفحص كل لوحة لحظة ثم يضعها جانباً. وعندما تفحص ما يقرب من نصف مجموعتي، خاطبني بدون أن يرتقي بناظريه:

"أموقن يا دون أن كل أعمالك هنا؟ ألا توجد لوحة أو اثنتان لم تحضرهما؟"

لم أجب على الفور، فتطلع إليّ متسائلاً: "حسناً؟"

"ربما هناك لوحة أو اثنتان لم أحضرهما."

"بالفعل، ولا شك يا ماسوجي أن اللوحات الغائبة هي أكثر ما تفتخر به. أليس هذا صحيحاً؟"

خفض عينيه إلى اللوحات مجدداً فلم أجبه. راقبتُه عدة لحظات أخرى وهو يتفحص الكومة. أمسك في مرة من المرات لوحة بالقرب من لهب الشمعة قائلاً: "هذا هو الطريق المنحدر من تل نيشييما، أليس كذلك؟ لا مراء أنك التقطت الصورة ببراعة فائقة، ذلك هو المنظر بالضبط وأنت هابط من التل. يا لمهارتك."

"شكراً."

مكتبة الفكر الجديد

"أتدري يا ماسوجي" – ما تزال عينا أبي مركزتين على اللوحة – "سمعتُ شيئاً غريباً من أمك. يبدو أنها قد خالجها الانطباع أنك تبتغي اتخاذ الرسم مهنة."

لم يصغ عبارته على هيئة سؤال، لذا لم أرد عليه في بادئ الأمر. غير أنه رفع بصره وكرر: "أمك يا ماسوجي لديها الانطباع أنك تبتغي اتخاذ الرسم مهنة، وهي بطبيعة الحال مخطئة في هذا التصور."

"بطبيعة الحال،" قلت بهدوء.

"تعني أنها أساءت الفهم."

"بلا شك."

"مفهوم."

ما انفك أبي يدرس اللوحات دقائق معدودة أخرى فيما جلستُ أنا هناك أشاهده مطرقاً. ثم قال من غير أن يرفع عينيه: "أعتقد أن هذا صوت أمك وهي تعبر الردهة في الخارج. أسمعتَها؟"

"لا أظن أني سمعت أحداً."

"أعتقد أنها أمك. اطلب منها أن تدخل هنا بما أنها مارة بنا."

نهضتُ وذهبتُ إلى المدخل. كان الممر مظلماً خالياً كما كنت أعلم. ومن ورائي أتى صوت أبي يقول: "بينما تحضرها يا ماسوجي، اجمع باقي لوحاتك وآتني بها."

عندما رجعتُ إلى الحجرة بعد دقائق معدودة بصحبة أمي، وصلني الانطباع أن الآنية تحركتْ قليلاً إلى جانب الشمعة لكن ربما كان هذا من وحي خيالي. ظننت أيضاً أن ثمة رائحة حريق تفوح في الهواء لكني رميت الآنية بنظرة سريعة ولم أجد علامة على أنها تعمل.

وضعتُ النماذج الأخيرة من أعمالي بجانب الكومة الأولى فأومأ أبي وهو شارد الذهن. كان ما زال بادياً عليه الانشغال بلوحاتي. انصرم بعض الوقت تجاهلني فيه أنا وأمي، فجلستُ أمامه يطوقني الصمت. انتهى به الأمر إلى

مكتبة الفكر الجديد

أن تنهد ورفع وجهه مخاطباً إياي: "لا أخالك يا ماسوجي لديك وقت طويل لتقضيه مع القساوسة المتجولين، أليس كذلك؟"

"القساوسة المتجولين؟ لا أعتقد."

"في جعبتهم الكثير ليقولوه عن هذا العالَم. أنا لا أعيرهم اهتماماً في أغلب الأوقات إلا أنه على المرء أن يكون دمثاً مع القساوسة من قبيل التهذيب فحسب وإن صدموك أحياناً بوصفهم مجرد شحاذين."

توقف برهة عن الكلام، فأكدتُ: "أجل، بالفعل."

حانت من أبي التفاتة ناحية أمي قائلاً: "هل تتذكرين يا ساشيكو القساوسة المتجولين الذين أَلِفوا الظهور في هذه القرية؟ قصد أحدهم هذا المنزل بعد ولادة ابننا هذا مباشرة. كان شيخاً نحيفاً مبتور اليد لكنه كان رجلاً قوياً رغم ذلك. هل تتذكرينه؟"

أجابت أمي: "نعم، أذكره بالطبع، لكن لعله من المفروض ألا نأخذ كلام بعض هؤلاء القساوسة مأخذ الجد."

قال أبي: "لكن أتذكرين أن هذا القسيس استبصر قلب ماسوجي استبصاراً عميقاً وخلَّف وراءه تحذيراً لنا، أتذكرين يا ساشيكو؟"

"لكن ابننا كان مجرد طفل آنذاك،" تفوهتْ أمي وقد انخفض صوتها كأنها تتمنى بطريقة أو أخرى ألا يتناهى كلامها إلى أذني. على النقيض علا صوت أبي بلا ضرورة كمن يخاطب جمهوراً قائلاً: "ترك لنا تحذيراً. قال لنا إن أطراف ماسوجي موفورة الصحة لكنه مولود بخلل في طبعه، بمسحة واهنة ستصيبه بميل إلى الكسل والخداع. هل تذكرين هذا يا ساشيكو؟"

"لكني أعتقد أن القسيس نعت ابننا بالعديد من السجايا الإيجابية."

"هذا صحيح. فابننا يتمتع بالعديد من الصفات الحميدة، وقد أشار إليها القسيس بالفعل. لكن أتذكرين هذا التحذير يا ساشيكو؟ قال إنه لو غلبتْ النقاط الحميدة، نحن القائمون على تربيته يتحتم علينا أن نحترس ونتحقق من تلك

مكتبة الفكر الجديد

المسحة الواهنة متى حاولتْ أن تُظهر نفسها. وإلا، والكلام للقسيس، سيكبر ماسوجي ليصبح شخصاً غير صالح لعمل أي شيء."

قالت أمي بلهجة حذرة: "لكن قد لا يكون من رجاحة العقل أخذ كلام هؤلاء القساوسة على محمل الجد."

لم يبد على أبي عظيم الاندهاش لهذه الملحوظة. وبعد لحظة أومأ برأسه وهو مستغرق الخاطر كما لو كانت أمي قد أثارت نقطة محيرة. ثم عاد إلى الحديث: "كنتُ عن نفسي رافضاً أن آخذ كلامه بجدية حينها بيد أني كنت مجبراً في كل مرحلة من مراحل نضوج ماسوجي على التسليم بصحة كلمات ذاك الشيخ. فلا يمكن إنكار وجود نقيصة في شخصية ابننا، فبداخله القليل من المكر. لكن ينبغي لنا أن نقاوم وبلا انقطاع كسله وكرهه للعمل النافع وإرادته الضعيفة."

ثم التقط أبي متأنياً ثلاث لوحات من لوحاتي أو أربعاً وأمسكها بكلتا يديه كأنه يزنها ثم اتجه بنظرته الشاخصة صوبي قائلاً: "خالج أمك يا ماسوجي الانطباع أنك ترغب في مزاولة الرسم كمهنة. هل تكون أساءت الفهم من جانبها؟"

غضضت بصري وأمسكتُ عن القول. التقطتُ بعدها صوت أمي بجانبي يقترب من الهمس: "هو لا يزال غراً صغيراً. يقيني أنه مجرد هوى طفولي منه."

توقف الحديث وهلة ثم سأل أبي: "أخبرني يا ماسوجي، هل عندك أية فكرة عن نوعية الحياة التي يعيشها الرسامون؟"

أبقيت على صمتي مسدداً ناظريّ إلى الأرضية أمامي.

استمر صوت أبي: "إن الرسامين يحيون في قذارة وفقر. يقيمون في عالم يسبغ عليهم كل المغريات كي يغدوا ضعاف العزيمة فاسدي الأخلاق. أو لستُ على حق يا ساشيكو؟"

أيدتْه أمي: "بلا مراء، وعلى الرغم من هذا قد يوجد واحد أو اثنان قادران على مواصلة مسيرتهما الفنية. ومع ذلك عليك تحاشي مثل هذه الأخطار."

"قطعاً هناك استثناءات،" رد عليها أبي. ظل بصري مطرقاً لكني استطعت

مكتبة الفكر الجديد

أن أتبين من صوته أنه عاد يومئ برأسه مجدداً بطريقته الدالة على الحيرة. "إنهم حفنة من ذوي العزيمة القوية والشخصية الاستثنائية لكن يؤسفني أن ابننا بعيد كل البعد عن مثل هذه الشخصية. الحق أنه العكس تماماً. ومن واجبنا حمايته من هذه الأخطار. فنحن في النهاية نتمنى له أن يصبح رجلاً يرفع رؤوسنا عالياً، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد،" قالت أمي.

رفعتُ بصري بسرعة. كانت الشمعة محترقة إلى منتصفها واللهب يضيء أحد جوانب وجه أبي بحدة. كان قد وضع اللوحات الآن في حِجره، ولاحظتُ كيف كانت أصابعه تتحرك في تبرم.

قال: "لك أن تنصرف الآن يا ماسوجي. أبغي التحدث مع أمك."

يمكنني تذكر القليل مما جرى لاحقاً في تلك الليلة. أذكر أني التقيت أمي مصادفة في الظلام، احتمال أني قابلتها في أحد الممرات وإن كنتُ لا أذكر ذلك. ولا تعي ذاكرتي سبب تجولي في المنزل في الظلام إلا أن هذا لم يكن بالتأكيد بغية التصنت على والديّ - لأني أتذكر أنه قد صحت عزيمتي على عدم الالتفات لما حدث بحجرة الاستقبال بعد مغادرتي. وفي تلك الأيام كانت كل المنازل سيئة الإضاءة بالطبع، ومن ثم لم يكن غريباً أبداً أن نقف في الظلام ونتحاور. وسعني تمييز هيئة أمي أمامي لكني لم أستطع رؤية وجهها.

أعلمتُها: "هناك رائحة شيء يحترق في أرجاء المنزل."

"يحترق؟" لاذت أمي بالصمت هنيهة ثم قالت: "لا، لا أظن. لا بد أنه من وحي خيالك يا ماسوجي."

"لقد شممت رائحة حريق. ها هي، لقد شممتها للتو مرة أخرى. أما زال أبي في حجرة الاستقبال؟"

"أجل. إنه يتولى أمراً ما."

"إن ما يفعله بالداخل أياً كان لا يزعجني البتة."

مكتبة الفكر الجديد

لم تنطق أمي بكلمة وبالتالي أردفتُ: "الشيء الوحيد الذي فلح أبي في إشعاله هو طموحي."

"يسرني سماع ذلك يا ماسوجي."

"لا تسيئي فهمي يا أمي. أنا لا أريد أن ألفي نفسي في السنين المقبلة جالساً حيثما يجلس أبي الآن لأحدث ابني عن الحسابات والأموال. هل ستفخرين بي إن كبرتُ وصرت على هذه الحال؟"

"ما في ذلك من شك يا ماسوجي. فبحياة أبيك الكثير مما لا تستطيع إدراكه على أي نحو في سنك."

"أنا لن أشعر بالفخر مطلقاً. وحين قلتُ إن الطموح يراودني، قصدتُ أني أرجو أن أسمو فوق مثل هذه الحياة."

استعانت أمي بالصمت بضع لحظات ثم باحت إليّ: "عندما تكون صغيراً في السن، تتراءى لك الكثير من الأشياء رتيبة لا حياة فيها. لكنك حينما تكبر، ستجد أن هذه الأشياء هي الأهم بالنسبة لك."

لم أرد على كلامها، وبدلاً من ذلك أعتقد أني قلت: "كنتُ فيما مضى مرعوباً من اجتماعات عمل أبي لكنها أضحت الآن منذ فترة باعثة على الملل ليس إلا. هي في الواقع تثير اشمئزازي. ما كنه تلك الاجتماعات التي يشرفني حضورها عظيم الشرف؟ عد النقود المتناثرة والتقاط العملات ساعة تلو الأخرى؟ لن أغفر لنفسي بتاتاً لو صارت حياتي هكذا." سكتُّ وهلة وانتظرتُ لأرى ما إذا كانت أمي ستقول أي شيء. قام في نفسي إحساس غريب لحظة؛ وهو أنها سارت بعيداً في صمت وأنا أتكلم وأني أقف الآن وحدي في المكان. غير أني سمعت حركتها أمامي مباشرة، لذا أعدت على مسامعها: "إن ما يفعله أبي بحجرة الاستقبال لا يزعجني البتة. فكل ما أشعله هو طموحي."

مهما يكن من أمر أعتقد أني انحرفت عن الموضوع. فقد كنتُ أنوي أن أسجل هنا الحوار الذي دار بيني وبين سيتسوكو الشهر المنقضي لمّا دخلتْ حجرة الاستقبال لتغيير الأزهار.

مكتبة الفكر الجديد

أذكر أن سيتسوكو جلست أمام المذبح البوذي وطفقتْ تنزع أكثر الأزهار المزينة للمذبح ذبولاً. كنتُ قد اتخذت مجلسي وراءها قليلاً، أرقب كيف تنتزع كل فرع بحرص قبل أن تحطه على حجرها. أخالنا تحدثنا وقتها عن شيء مسل لكنها قالت دون أن تصرف عينيها عن أزهارها: "اعذرني لذكر هذا الأمر يا أبي، فلا شك لديّ أنه قد جرى ببالك من قبل."

"ما هو ذلك الأمر يا سيتسوكو؟"

"أنا لا أذكره إلا لأني أظن أنه من المنتظر أن تتقدم مفاوضات زواج نوريكو."

أخذتْ سيتسوكو تنقل الشتلات النضرة الواحدة بعد الأخرى من زهريتها إلى الزهريات المحيطة بالمذبح. كانت تؤدي هذه المهمة بعناية أي عناية متوقفة بعد وضع كل زهرة لتتأمل تأثيرها على الناظرين. استطردتْ: "رغبتُ فحسب أن أقول إنه حالما تبدأ المفاوضات جدياً، ربما يجب على أبي أيضاً اتخاذ إجراءات وقائية معينة."

"إجراءات وقائية؟ أكيد، سنخوض في المسألة باحتراس. لكن ماذا يدور بخلدك بالضبط؟"

"أستميحك عذراً، كنتُ أشير تحديداً إلى التحريات."

"مفهوم، بالطبع، سنتوخى فيها الشمول اللازم. سوف نستأجر نفس المتحري الذي استأجرناه العام الماضي. فهو أهل للاعتماد عليه كما قد تذكرين."

عدّلتْ سيتسوكو من وضع ساق إحدى النباتات بحذر قائلة: "اعذرني، لا ريب أني لا أعبر عن نفسي بجلاء تام. كنتُ في الحقيقة أشير إلى تحرياتهم."

"آسف، لستُ متأكداً من فهم مرماك. لم أكن أدرك أن لدينا ما نضمره."

ارتفعتْ من سيتسوكو ضحكة عصبية: "لا بد أن تسامحني يا أبي. فأنا كما تدري لست موهوبة في إجراء الأحاديث. وسويشي دائماً ما يعنفني لأني لا أجيد التعبير عن نفسي، فهو يعبر عن نفسه ببلاغة فائقة. عليّ ولا شك أن أسعى إلى التعلم منه."

مكتبة الفكر الجديد

"أنا متأكد أن حديثك لا غبار عليه لكني للأسف لا أفهم تماماً ما تقصدين."

رفعتْ سيتسوكو فجأة يديها كاليائسة. "النسيم" قالت متنهدة ثم مدت يديها إلى أزهارها مجدداً. "أحبها على هذا الوضع إنما يظهر أن النسيم لا يوافقني الرأي". انشغلتْ عني من جديد لحظة ثم قالت: "يجب أن تعذرني يا أبي. لو كان سويشي في مكاني لأحسن التعبير لكنه بالطبع ليس موجوداً. ما أردت أن أقوله هو أنه قد يكون من الحكمة أن يتخذ أبي إجراءات وقائية معينة لضمان عدم حدوث أي سوء تفاهم. فنوريكو رغم كل شيء تبلغ الآن حوالي ست وعشرين سنة. ونحن لا نستطيع أن نتحمل خيبة أمل أخرى مثل تلك التي جرت العام الماضي."

"علام سيكون سوء الفهم يا سيتسوكو؟"

"عن الماضي. لكن أرجوك، أنا موقنة أني أتكلم بلا داع. لا ريب أن أبي قد تفكر قبل الآن في كل هذه النقاط وسيتولى أمر كل ما هو ضروري."

جلستْ منحنيةً إلى الوراء متأملة عملها ثم استدارت إليّ وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة. "لستُ ماهرة في التعامل معها،" قالت مشيرة إلى الأزهار.

"إنها تبدو رائعة."

صوبتْ إلى المذبح نظرة تمتلئ تشككاً ثم ضحكتْ بارتباك.

بينما كنتُ استمتع برحلة الترام إلى ضاحية أراكاوا الهادئة بالأمس، طافت بعقلي ذكرى تلك المحادثة التي وقعتْ بحجرة الاستقبال، فعانيت موجة من الحنق. كنتُ أطالع من النافذة منظراً أمسى بالتدريج أخف جلبة واضطراباً كلما اتجهنا جنوباً، فاسترجعتُ صورة ابنتي وهي جالسة أمام المذبح ناصحة إياي باتخاذ "إجراءات وقائية". تذكرتُ كيف أدارت وجهها قليلاً تجاهي لتردف: "فنوريكو رغم كل شيء تبلغ الآن حوالي ست وعشرين سنة. ونحن لا نستطيع أن نتحمل خيبة أمل أخرى مثل تلك التي جرت العام الماضي." استدعيت أسلوبها العليم بالشرفة في أول صباح من زيارتها حين ألمحتْ أني أخفي سراً خاصاً وراء انسحاب آل مياك العام الماضي. كانت تلك الذكريات قد أفسدت

مكتبة الفكر الجديد

مزاجي من قبل خلال الشهر الفائت؛ بيد أني استطعت بالأمس - خلال السكون الذي غلف سفري وحدي إلى أطراف المدينة الأكثر هدوءاً - أن أتدبر حقيقة مشاعري بصورة أوضح لأفطن إلى أن غضبي ليس موجهاً في الحقيقة إلى سيتسوكو بل إلى زوجها.

أتصور أنه من الطبيعي بمكان أن تتأثر الزوجة بأفكار زوجها - حتى عندما يعوزها المنطق كلية كما هو الحال مع أفكار سويشي. لكن عندما يحرض رجل زوجته على إثارة أفكار مريبة حول أبيها، إذاً فهذا بالقطع سبب كاف للاستياء. لقد حاولتُ في الماضي أن أقف موقف المتسامح تجاه جوانب معينة من سلوك سويشي بسبب ما لا بد وقد كابده في منشوريا؛ فلم آخذ على محمل شخصي مثلاً ما أظهره نحو جيلي من أمارات مرارة متكررة. لكني كنت دائم الافتراض أن مثل هذه الأحاسيس سوف تتلاشى مع مرور الزمن. بيد أنه يتراءى لي حقاً أنها تتفاقم حدة وتطرفاً في حالة سويشي.

كل هذا ما كان ليزعجني الآن - فسيتسوكو وسويشي برغم كل شيء يعيشان بعيداً، وأنا لا أراهما مطلقاً أكثر من مرة في السنة - لولا أنه يلوح لي مؤخراً أن عين هذه الأفكار المجردة من المنطق تفسد عقل نوريكو وذلك منذ زيارة سيتسوكو الشهر الماضي. هذا ما أثار غضبي وحثني عدة مرات خلال هذه الأيام القليلة الماضية على كتابة خطاب مشحون بالغضب لسيتسوكو. أنا لست معترضاً على أن يشغل زوج وزوجة نفسيهما بتخمينات سخيفة لكن عليهما أن يحتفظا بها لنفسيهما. أي أب أشد صرامة كان ليفعل بلا ريب شيئاً منذ وقت طويل.

ففي أكثر من مرة الشهر الماضي، تصادف أن وجدتُ ابنتيّ منهمكتين في الحديث ولحظتُ أنهما قطعتا حديثهما بأسلوب مشوب بالذنب قبل أن تبدآ حديثاً جديداً غير مقنع نوعاً ما. بمقدوري في الواقع تذكر حدوث ذلك ثلاث مرات على الأقل في غضون الخمسة أيام التي قضتها سيتسوكو هنا. ثم حدث منذ عدة أيام بالضبط أن كنتُ أنا ونوريكو نفرغ من طعام الإفطار عندما بادرتْ بالحديث:

مكتبة الفكر الجديد

"كنتُ أسير بجوار مركز شيميزو التجاري بالأمس وخمن مَن رأيته واقفاً عند الترام؟ جيرو مياك!"

"مياك؟" رفعتُ بصري عن الصحن وقد أخذتني الدهشة لسماع نوريكو تذكر الاسم بمنتهى الجرأة. "ياه، ياله من سوء حظ."

"سوء حظ؟ الحق يا أبي أني شعرت بقدر من السعادة لرؤيته. وبالرغم من ذلك تعثر هو بأذيال الارتباك، لذا لم أطل الحديث إليه. على كل حال كان عليّ أن أعود إلى المكتب، فما كنتُ خارجة إلا لقضاء مهمة ما. لكن هل علمتَ أنه خاطب الآن؟"

"هل أخبرك بهذا؟ يا لوقاحته."

"لم يتطوع طبعاً بتقديم المعلومة. لقد سألتُه. نقلتُ إليه أني أخوض الآن مفاوضات جديدة وسألتُه عن احتمالات زواجه، سألتُه بمنتهى السهولة، فاحمر وجهه خجلاً! لكنه باح بما عنده وقال إنه تقريباً خاطب الآن وإن كل شيء تقريباً محسوم."

"حسبك يا نوريكو، عليك التحلي بالمزيد من الكتمان. لماذا ذكرتِ موضوع الزواج من أصله؟"

"تملكني الفضول. فأنا لم أعد متضايقة. ومع تقدم المفاوضات الحالية على ما يرام، كنتُ أفكر منذ بضعة أيام أنه من المؤسف أن يكون جيرو مياك مازال مكتئباً مما حدث العام الماضي. وبالتالي تستطيع أن تتخيل فرحتي عندما وجدتُه تقريباً خاطباً."

"مفهوم."

"أتمنى أن أقابل عروسه عما قريب. أنا متأكدة أنها بالغة اللطف، أليس كذلك يا أبي؟"

"أكيد."

واصلنا الأكل لفترة وجيزة ثم قالت نوريكو: "هممت أن أسأله عن أمر آخر

مكتبة الفكر الجديد

لكني لم أفعل." مالت ناحيتي هامسة: "كدت أن أسأله عن العام الماضي، عن سبب تراجعهم."

"حسناً فعلتِ أن لم تسأليه. إلى جانب أنهم أعلنوا السبب بوضوح كاف حينها، لقد شعروا أن الشاب لا يتمتع بمكانة جديرة بك."

"لكنك تعلم يا أبي أن تلك مجرد رسميات. فنحن لم نكتشف قط السبب الحقيقي. أنا على الأقل لم يتسن لي مطلقاً الوقوف عليه." عند هذه النقطة حملني شيء في صوتها على أن أرفع نظري ثانية عن الصحن. كانت نوريكو ممسكة بالأعواد متوازنة في الهواء كما لو كانت تنتظر أن أقول شيئاً. ثم قالت في حين واصلتُ الأكل: "لِم انسحبوا في اعتقادك؟ هل اكتشفتَ أبداً السبب؟"

"لم أكتشف شيئاً. كما سبق وقلت قالوا إنهم شعروا أن وضع الشاب غير ملائم، وهو جواب مقنع تماماً."

"إني أتساءل يا أبي لو أن المسألة ببساطة أني لم أف بمتطلباتهم. لعلي لست جميلة بما فيه الكفاية. أتظن أن هذا هو السبب؟"

"المسألة لا تتعلق بك، أنت تعلمين ذلك. توجد أسباب شتى تجعل عائلة تنسحب من مفاوضات."

"طيب يا أبي، إذا لم أكن أنا السبب، إذاً ما الذي دفعهم يا ترى إلى الانسحاب بهذا الشكل؟"

لاح لي وجود شيء متعمد تعمداً غير طبيعي في الطريقة التي لفظتْ بها ابنتي هذه الكلمات. علني تخيلت هذا إلا أن الأب ينتبه إلى أية تغييرات طفيفة تطرأ على لهجة ابنته.

على كل حال ذكّرني حديثي مع نوريكو بالمناسبة التي التقيت فيها بجيرو مياك وانتهى بي الأمر إلى تبادل الحوار معه عند إحدى محطات الترام. انقضى على ذلك أكثر من سنة، وكانت المفاوضات لا تزال جارية في تلك المرحلة مع أسرة مياك. كان وقتاً متأخراً من بعد الظهر والمدينة مزدحمة بالعائدين إلى منازلهم عقب يوم عمل. ولسبب ما كنتُ أسير عبر حي يوكوت متجهاً إلى

مكتبة الفكر الجديد

محطة الترام الواقعة خارج مبنى شركة كيمورا. وإذا كنتَ تعهد حي يوكوت، ستعرف العديد من المكاتب الصغيرة الرثة نوعاً ما التي تصطف في الطوابق العليا للمحلات هناك. حين قابلتُ جيرو مياك يومها، كان خارجاً من أحد هذه المكاتب نازلاً من سلم ضيق يقع بين اثنتين من واجهات المحلات.

كنتُ قد اجتمعت إليه مرتين قبل ذلك اليوم لكنها كانت مجرد لقاءات عائلية رسمية يحضرها في أبهى ثيابه. أما الآن فقد لاح في هيئة مختلفة تماماً، إذ كان يرتدي معطفاً رثاً فضفاضاً ويقبض بإحكام على حقيبة تحت ذراعه. تبدى لي شاباً شديد الاعتياد على اضطهاد الرؤساء؛ فقد بدت هيئته كلها ثابتة عند وضع التأهب للانحناء. وحين سألتُه ما إذا كان المكتب الذي خرج منه للتو هو محل عمله، أخذ يضحك بعصبية كأني ضبطته خارجاً من منزل سيئ السمعة.

خطر ببالي حقاً أن ارتباكه ربما كان مفرطاً زيادة عن اللازم لأن أرجعه فحسب إلى لقائنا بالصدفة؛ بيد أني رددت الأمر وقتها إلى تحرجه من المظهر البالي لمبنى مكتبه والبيئة المحيطة به. مر زهاء أسبوع فقط ثم علمتُ مذهولاً أن آل مياك انسحبوا، فألفيت نفسي أرتد بذاكرتي إلى الوراء باحثاً عن مغزى هذه المقابلة.

أفضيت إلى سيتسوكو التي كانت في إحدى زياراتها وقتئذ: "تُرى أكانوا قد قرروا بالفعل الانسحاب لمّا كنتُ أتحدث إليه."

"ذلك بالتأكيد يفسر ما لاحظتَه من عصبية يا أبي. ألم يقل أي شيء يلمح به إلى نواياهم؟"

لكن حتى في ذلك الوقت وبعد أسبوع واحد فقط من المقابلة الفعلية، قدرتُ بالكاد أن أتذكر المحادثة بيني وبين الشاب مياك. كنتُ بالطبع في تلك الظهيرة ما زلت على افتراضي أن خطوبته لنوريكو ستعلن في أي يوم وأني أتعامل مع فرد مقبل من أفراد أسرتي. فكانت نواياي حينها مركزة على جعل الشاب مياك على سجيته في حضرتي، ولم أعمل فكري ملياً - كما كان من الممكن - فيما

مكتبة الفكر الجديد

قيل بالفعل أثناء تمشيتنا القصيرة إلى محطة الترام وخلال الدقائق المعدودة التي أمضيناها واقفين معاً هناك.

لكني حين أنعمت النظر في المسألة برمتها خلال الأيام التالية، وردتْ على بالي خاطرة جديدة: ألا وهي أن المقابلة ذاتها ربما ساعدتْ في حدوث الانسحاب.

عبّرتُ عما في ذهني لسيتسوكو: "احتمال كبير. فقد كان مياك بالغ الحرج لرؤيتي لمحل عمله، وربما استوقفه من جديد وجود فجوة واسعة بين عائلتينا. فعلى الرغم من كل شيء هي نقطة أثاروها مراراً لكي تكون مجرد شكليات."

غير أن سيتسوكو فيما يبدو لم تقتنع بتلك النظرية ويظهر أنها لا بد قد رجعت أدراجها إلى بيتها وزوجها ليتفكرا في فشل طلب زواج أختها. ويلوح لي أنها عادت هذه السنة بنظرياتها الخاصة - أو على الأقل بنظريات سويشي. وهكذا أجد نفسي مجبراً على أن أسترجع مقابلة مياك تارة أخرى وأن أتفكر في المسألة من منظور آخر. لكني، كما قلت، كنت أذكر بالكاد ما جرى بعد مضي أسبوع فقط، فما بالك وقد انصرم الآن أكثر من عام.

إلا أن الذاكرة قد كرت بي إلى حوار معين لم أحمله أية دلالة من قبل. كنا أنا ومياك قد بلغنا الشارع الرئيسي ووقفنا أمام مبنى شركة كيمورا وكلانا ينتظر القطار الذي سيستقله. أذكر قول مياك:

"داهمتْنا اليوم بعض الأخبار المحزنة في العمل، رئيس الشركة الأم وافاه الأجل."

"البقية في حياتك. أكان طاعناً في السن؟"

"ما تجاوز بداية الستين. لم تتح لي الفرصة لرؤيته شخصياً ولو كنتُ بالطبع قد شاهدت صوره في منشوراتنا الدورية. كان رجلاً عظيماً، وجميعنا نشعر كما لو أصبحنا أيتاماً."

"لا بد أنها صدمة لكم جميعاً."

مكتبة الفكر الجديد

"هي كذلك بالتأكيد،" قال مياك وتوقف لحظة ثم استطرد: "مع ذلك نحن بمكتبنا في حيرة من إيجاد الطريقة المثلى لتكريمه. بصراحة الرئيس انتحر."

"أحق ما تقول؟"

"حق كل الحق. وجدوه مختنقاً بالغاز لكن يبدو أنه حاول بقر بطنه أولاً، إذ وجدوا بعض الجروح الطفيفة حول معدته." غض مياك بصره إلى الأرض برزانة وقال: "لقد جاء اعتذاره نيابة عن الشركات التي تولى مسؤوليتها."

"اعتذاره؟"

"من الواضح أن رئيسنا شعر بمسؤوليته عن بعض المشاريع التي تورطنا فيها أثناء الحرب. كان الأمريكيون قد طردوا في السابق اثنين من كبار الموظفين لكن من الجلي أن رئيسنا شعر بأن ذلك لا يكفي، فجاء عمله اعتذاراً قدمه بالنيابة عنا جميعاً إلى عائلات من قتلوا في الحرب."

"ياه، يبدو هذا بحق نوعاً من التطرف. الظاهر أن العالم قد فقد عقله. كل يوم يطلع علينا خبر انتحار أحدهم اعتذاراً منه. قل لي يا سيد مياك، ألا تجد في الأمر بأكمله خسارة رهيبة؟ فبرغم كل شيء لو كانت بلدك تخوض حرباً، لن تدخر جهداً في مساندتها، ولا عار يقترن بهذا. فما الحاجة إلى الاعتذار بالموت؟"

"أنت بلا مراء على حق يا سيدي لكن لا أخفي عليك أن ثمة راحة كبيرة في أرجاء الشركة. فنحن نشعر الآن أن بمقدورنا نسيان تجاوزاتنا السابقة والتطلع إلى المستقبل. لقد أدى رئيسنا عملاً عظيماً."

"لكنها أيضاً خسارة عظيمة أن يتخلى بضعة رجال من أفضل رجالنا عن أرواحهم بتلك الطريقة."

"بالفعل يا سيدي، إنه أمر يدعو إلى الرثاء. أحياناً ما أفكر أن هناك العديد ممن ينبغي لهم أن يقدموا أرواحهم كاعتذار وهم أجبن من أن يواجهوا أعباء مسؤولياتهم. والأمر متروك إذاً لأمثال رئيسنا للقيام بتلك اللفتات النبيلة. فهناك العديد من الأشخاص الذين عادوا بالفعل إلى مواقعهم التي شغلوها إبان

مكتبة الفكر الجديد

الحرب، وبعضهم ليسوا بأفضل من مجرمي الحرب. هم الذين يتحتم عليهم الاعتذار."

"أنا فاهم قصدك. لكن مَن حاربوا وعملوا مخلصين لخدمة بلدنا أثناء الحرب لا يمكن تسميتهم بمجرمي حرب. للأسف صار هذا التعبير يُستخدَم بحرية زائدة هذه الأيام."

"لكن هؤلاء الرجال هم مَن ضللوا البلد يا سيدي. ولا ريب أنه من الصواب فحسب أن يعترفوا بمسؤوليتهم. فهو جبن من هؤلاء الرجال أن يرفضوا الإقرار بأخطائهم. وحين تُرتكب تلك الأخطاء نيابة عن البلد بأسرها، فهي إذاً أفدح حالات الجبن على الإطلاق."

هل حقاً قال مياك كل هذا الكلام في تلك الظهيرة؟ قد تكون كلماته اختلطت عليّ بنوعية الكلمات التي سيخرج عليّ بها سويشي. هذا من المحتمل فعلاً؛ فقد كنتُ في النهاية أعتبر مياك صهري المقبل، ويجوز بحق أني ربطت ذهنياً بينه وبين صهري الحالي بطريقة أو بأخرى. إذ لا شك في أن عبارات مثل "أفدح جبن على الإطلاق" تلوح أشبه بسويشي منها بالشاب مياك المسالم. وإن كنتُ على ثقة تامة بأن مثل هذا الحديث قد دار بالفعل عند موقف الترام يومها. أخاله غريباً أن يطرح مثل هذا الموضوع كما فعل. أما عبارة "أفدح جبن على الإطلاق"، فأنا واثق أنها خرجت من سويشي. وعندما أتفكر الآن في العبارة، أوقن في الواقع أن سويشي استخدمها في ذاك المساء عقب مراسم دفن رفات كينجي.

استغرق وصول رفات ابني من منشوريا أكثر من عام. فقد ظلوا يخبروننا أن الشيوعيين عقّدوا كل شيء هناك. وعند وصول رفاته أخيراً، برفقة رفات الثلاثة وعشرين شاباً الآخرين الذين سقطوا ضحايا في محاولة منهم لشن هذا الهجوم اليائس عبر حقل الألغام، لم تكن هناك أية ضمانات أن الرفات هي حقيقة رفات كينجي ولا أحد غيره. وقد كتبتْ لي سيتسوكو أيامها: "لكن لو اختلطتْ رفات أخي، لن تختلط سوى برفات رفاقه. ونحن لا يسعنا أن نتذمر من ذلك." وهكذا

مكتبة الفكر الجديد

قبلنا الرفات على أنها رفات كينجي وأقمنا الشهر الماضي المراسم المتأخرة له منذ سنتين.

وفي وسط المراسم عند المقبرة، انصرف ناظري إلى سويشي وهو يبتعد بخطى واسعة وعلامات الاستياء ترتسم على وجهه. وعندما سألتُ سيتسوكو عما دهى زوجها، همستْ على عجل: "أرجوك سامحه، فهو ليس على ما يرام. إنها لمسة من سوء التغذية لم يتخلص منها منذ شهور."

لكن في وقت لاحق حينما تجمع الضيوف في منزلي بعد المراسم، أطلعتني سيتسوكو: "أرجوك يا أبي تفهم الأمر، فمثل هذه المراسم تزعج سويشي بشدة."

"يا له من شيء مؤثر، لم أكن أعلم أنه كان وثيق الصلة بأخيك."

"كانا على وفاق متى التقيا. بالإضافة إلى أن سويشي شديد التوحد مع أمثال كينجي، فهو يقول إنه كان من الممكن بسهولة بالغة أن يكون هو المتوفى."

"لكن أليس هذا السبب أدعى لئلا يترك المراسم؟"

"أنا متأسفة يا أبي، ما قصد سويشي على الإطلاق أن يُبدي عدم احترام لكننا حضرنا العديد من مثل هذه المراسم العام الفائت لأصدقاء سويشي ورفقائه، ودائماً ما تشعره بالغضب الشديد."

"الغضب؟ ما الذي يتسبب في غضبه؟"

غير أن المزيد من الضيوف وفدوا وقتذاك مما اضطرني إلى قطع الحديث. لم تتح لي الفرصة أن أتحدث مع سويشي نفسه سوى في وقت لاحق من ذلك المساء. كان العديد من الضيوف مازالوا معنا مجتمعين في حجرة الاستقبال. تبينتُ قامة صهري الطويلة عبر الحجرة وهو يقف بمفرده؛ كان قد أزاح الستائر المطلة على الحديقة وأدار ظهره لهمهمة الحديث ليتفرس في الظلام في الخارج. تقدمتُ إليه قائلاً:

"تقول سيتسوكو يا سويشي إن هذه المراسم تشعرك بالغضب."

استدار وقد ظهرتْ ابتسامة على وجهه قائلاً: "أتصور أن لها هذا التأثير. فأنا أغضب حين أفكر في الأوضاع، حين أفكر في الخسارة."

مكتبة الفكر الجديد

"أجل، إن التفكير في الخسارة لهو أمر بشع إلا أن كينجي مات بشجاعة منقطعة النظير شأنه شأن الكثيرين غيره."

أحدَّ صهري النظر إليّ برهة بسحنة ساكنة تفتقر إلى أي تعبير؛ وهي حركة يقوم بها من آن لآخر ولم أعتدها قط. لا شك في أن نظرته الشاخصة بريئة بالفعل لكن ربما لأن سويشي رجل موفور القوة جسمانياً وملامحه بها شيء من الإخافة، فمن السهل قراءة شيء مهدِد أو شيء يحمل شبهة الاتهام على وجهه.

فاه أخيراً: "يبدو أنه لا نهاية للميتات الشجاعة. نصف زملاء سنة تخرجي بالمدرسة الثانوية ماتوا ميتات شجاعة. ماتوا لأسباب غبية غير أنهم لن يدروا ذلك أبداً. هل تعلم يا أبي ما الذي يجعلني بالفعل غاضباً؟"

"ماذا يا سويشي؟"

"هؤلاء مَن أرسلوا أمثال كينجي إلى الميدان ليموتوا ميتاتهم الشجاعة، أين هم اليوم؟ يواصلون حياتهم مثلما اعتادوا طيلة عمرهم والعديد منهم أنجح من ذي قبل، يتصرفون بتأدب أمام الأمريكيين، هم عين الأشخاص الذين قادونا إلى الكارثة. ومع ذلك نلبس الحداد على أشباه كينجي. هذا ما يجعلني غاضباً. يموت الشبان الشجعان لأسباب غبية والمجرمون الحقيقيون ما زالوا معنا، يركبهم الخوف من أن يظهروا على حقيقتهم، من أن يعترفوا بمسؤوليتهم." وأنا متأكد أنه قال عندئذ وهو يمد بصره نحو الظلمة بالخارج: "هذا في رأيي أفدح جبن على الإطلاق."

استنزفتْ المراسم قوتي وإلا ربما كنتُ فندت بعض افتراضاته لكني قدّرت أن فرصاً أخرى ستسنح لمثل هذا الكلام فغيرتُ دفة الحديث لمواضيع أخرى. أتذكر أني وقفت معه في ذاك المكان، أرنو في الخارج إلى الليل الذي أرخى سدوله وأسأله عن عمله وعن إشيرو. لم أكن وقتها قد رأيت سويشي منذ عودته من الحرب، فكانت تلك أول تجربة لي مع صهري المتغير الساخر نوعاً ما الذي بدأتُ اعتاد عليه الآن. وقد أخذني العجب ذاك المساء لأني وجدته يتحدث بتلك الطريقة، بلا أي ملمح لما كان عليه من سلوكيات جامدة قبل الحرب؛ فعزوت

مكتبة الفكر الجديد

ذلك إلى ما واكب مراسم الدفن من تأثير عاطفي وبوجه أعم لما صاحب تجربة الحرب – الرهيبة كما ألمحتْ سيتسوكو – من أثر هائل.

لكن الواقع هو أن ما ألفيته عليه من مزاج في تلك الأمسية يتماشى بالفعل مع مزاجه العام هذه الأيام؛ فما طرأ من تحول على الشاب المهذب المتواضع الذي تزوج سيتسوكو قبل الحرب بعامين جد لافت للنظر. إنه لمأساوي بالقطع أن تزهق أرواح العديد من شباب جيله مثلما حدث. لكن لِم يتحتم عليه أن يضمر تلك المرارة للأكبر منه سناً؟ إن أفكار سويشي تتصف الآن بالصلابة وتقريباً بالخبث لذلك أجدها مقلقة – وأكثر من مقلقة نظراً لأنها تخلف أثراً في سيتسوكو.

إلا أن هذا التحول لا يقتصر على صهري وحده. فأنا أشاهده الآن في كل مكان من حولي؛ إذ تبدلتْ شخصية الجيل الأصغر تبدلاً يستعصي عليّ استيعابه كلية، ولا يمكن إنكار أن بعض جوانب هذا التحول موجبة للانزعاج. فمنذ بضع ليال مثلاً، اتفق أن نمى إلى مسامعي بحانة السيدة كاواكامي صوت رجل يجلس بعيداً إلى الطاولة وهو يقول:

"سمعتُ أنهم أخذوا ذاك الأبله إلى المستشفى، مصاب بالقليل من الضلوع المكسورة وبارتجاج في المخ."

"أتعني الولد هيرایاما؟" سألتْ السيدة كاواكامي بنظرة يريم عليها القلق.

"أهذا اسمه؟ مَن يهيم صائحاً في الأنحاء على الدوام. يتعين حقاً على أحدهم أن يدفعه إلى الكف عن ذلك. الظاهر أنهم برحوه ضرباً مرة أخرى الليلة الماضية. من العار أن ينفثوا عن غضبهم في أبله مثله مهما كان الذي يصيح به."

استدرت إلى الرجل لحظتها قائلاً: "معذرة، أتقول إن الولد هيرایاما هوجم؟ لِم؟"

"البادي أنه استمر في غناء واحدة من أغانيه العسكرية القديمة إياها وترنيم نداءات الحرب الرجعية."

فبينتُ: "لكن هذا هو دأب الولد هيرایاما. بمقدوره غناء أغنيتين أو ثلاث أغان فقط، هذا ما تعلمه."

مكتبة الفكر الجديد

هز الرجل كتفه استهانة قائلاً: "معك حق، ما معنى ضرب أبله مثله؟ ما هي إلا قسوة. كان على جسر كاياباشي، وأنت تعلم كيف ينتشر المفسدون هناك بعد أن تتقدم خطى الظلام. كان جالساً على عمود الجسر، يغني ويرنم لما يقرب من الساعة. استطاعوا سماعه بالحانة الكائنة عبر الطريق، والظاهر أن قلة منهم سئمت غناءه."

"ما معني ذلك؟ لم يقصد الولد هيرایاما أي ضرر،" قالت السيدة كاواكامي.

"طيب، يجب على أحدهم أن يعلمه الأغاني الجديدة،" قال الرجل وهو يحتسي كأسه. "لن ينال سوى الضرب مرة ثانية إن طاف يغني تلك الأغاني القديمة."

ما زلنا نلقبه بـ "الولد هيرایاما" لكن لا بد أنه يبلغ الآن خمسين سنة على الأقل إلا أن الاسم يتناسب معه، فعمره العقلي موافق لعمر طفل. وحسبما أذكر من زمان، كانت الراهبات الكاثوليكيات بالإرسالية يرعينه لكن المفترض أنه ولد لعائلة تدعى هيرایاما. وفي الأيام الخالية عندما كان حي المتعة الخاص بنا يزدهر، كنا دوماً نجد الولد هيرایاما جالساً على الأرض بالقرب من مدخل الميجي-هيداري أو إحدى المنشآت المجاورة لها، وكان كما قالت السيدة كاواكامي غير مؤذ بتاتاً. الحق أنه أضحى في السنوات الماضية وأثناء الحرب شخصية محبوبة في حي المتعة وذلك لأغانيه عن الحرب ولتقليده للخطب الوطنية.

مَن علّمه أغانيه؟ لا أدري. لم يكن في ذخيرته سوى أغنيتين أو ثلاث أغان، وكان على علم ببيت واحد من الشعر في كل منها، بيد أنه كان يلقيها بصوت يفيض بقوة هائلة تستحوذ على المشاعر. وبين الوصلات كان يسلي المشاهدين بالوقوف هناك مبتسماً ابتسامة عريضة نحو السماء، يداه على فخذيه، ليصيح: "ينبغي أن تقدم هذه القرية نصيبها من التضحيات للإمبراطور! بعضكم سيضحي بحياته! وبعضكم سيعود منتصراً عند مطلع فجر جديد!" أو مثل هذه الكلمات. فيعلن الناس: "ربما فقد الولد هيرایاما عقله لكنه يتخذ الموقف الصحيح. إنه

مكتبة الفكر الجديد

ياباني". وطالما شاهدتُ الناس يتوقفون ليعطوه أموالاً أو ليبتاعوا له طعاماً، وفي تلك المواقف كان وجه الأبله يشرق بالابتسام. لا شك لديّ أن تلك الأغاني الوطنية قد رسَخت في عقل الولد هيرایاما بسبب ما أسبغتْه عليه من رعاية وشعبية.

لا أحد يعنى بالبلهاء في هذه الأيام. ما الذي جرى للناس حتى يجنحوا إلى إشباع الرجل ضرباً؟ قد لا تروقهم أغانيه وخطبه بيد أن هؤلاء هم على الأرجح نفس الأشخاص الذين ربتوا على رأسه ذات مرة وشجعوه إلى أن صارت تلك الفترات القصيرة جزءاً لا يتجزأ من مخه.

لكن كما أقول للبلد مزاج مختلف هذه الأيام، ومواقف سويشي قد لا تكون استثناء بالمرة. لعلي أجور على الشاب مياك لو نسبتُ تلك المرارة إليه هو الآخر إلا أنك - ومع الأوضاع الحالية - لو تفحصت أي كلام يقوله لك أي شخص، البادي أنك ستجد خيطاً من نفس هذا الإحساس المرير يسري فيه. وعلى حد علمي قال مياك تلك الكلمات بالفعل؛ ربما أصبح كل جيل مياك وسويشي يفكر ويتكلم بهذا الأسلوب.

أعتقد أني ذكرت من قبل زيارتي بالأمس لجنوب المدينة، لمنطقة أراكاوا. وأراكاوا هي آخر محطة في خط ترام المدينة المتجه جنوباً، ويُعبر العديد من الأشخاص عن دهشتهم لتوغل الخط إلى الضواحي. والحق أنه من الصعب اعتبار أراكاوا جزءاً من المدينة، بشوارعها السكنية المكنوسة بعناية وصفوف شجر القيقب على الأرصفة ومنازلها المهيبة المشيدة على مبعدة من بعضها بعضاً وجوها العام المحاط بالريف. لكني أعتقد أن السلطات قد أصابت عندما مدت خط الترام حتى أراكاوا؛ فقد عاد ذلك بالنفع على سكان المدينة، إذ يسّر لهم الوصول إلى أجواء أهدأ وأقل ازدحاماً. فنحن لم نكن نحصل دائماً على خدمة جيدة، وأستطيع تذكر كيف كان إحساس المرء بالحصار في المدينة يستفحل في الأيام السابقة على مد خطوط الترام الحالية ولا سيما خلال أسابيع الصيف الحارة.

مكتبة الفكر الجديد

بدأتْ الخطوط الحالية العمل عام 1931 على ما أعتقد لتحل محل الخطوط القاصرة التي أثارت سخطاً شديداً لدى المسافرين خلال الثلاثين سنة الماضية. وإن لم تكن من سكان هذه المنطقة وقتذاك، ربما يصعب عليك تخيل تأثير هذه الخطوط الجديدة على جوانب عديدة من حياة المدينة. فقد تبدلتْ خصائص أحياء بأكملها بين عشية وضحاها؛ إذ هجر الناس متنزهات كانت حافلة على الدوام وعانت تجارات راسخة خسائر فادحة.

ظهرتْ بالطبع مناطق استفادت من الموقف على غير توقع، ومن بينها تلك المنطقة الواقعة على الجانب الآخر من جسر التردد التي ما لبثتْ أن أصبحت حي المتعة الخاص بنا. فقبل خطوط الترام الجديدة ما كان هناك سوى عدد قليل من الشوارع الخلفية المملة تصطف على جانبيها منازل تغطي أسطحها ألواح خشبية متداخلة، ولم تكن تُعد أحياء في حد ذاتها فكان المرء يعين موقعها بـ "شرق فوروكاما". وعلى جانب آخر أتاحت دورة الترام الجديدة للمسافرين - الذين ينزلون عند آخر محطة بفوروكاما - بلوغ وسط المدينة بصورة أسرع سيراً على الأقدام بدلاً من القيام برحلة ثانية غير مباشرة بالترام مما نتج عنه تدفق مباغت من البشر المارين بالمنطقة. فإذا بحفنة الحانات الموجودة هناك من قبل تزدهر بعد أن كانت تفد إليها أعداد متوسطة من الزبائن لمدة سنوات في حين أُفتتحت حانات أخرى الواحدة تلو الأخرى.

عُرفتْ الميجي-هيداري في ذاك الوقت باسم "حانة ياماجاتا" - متخذة اسم مالكها، وهو جندي محنك عجوز - وكانت أقدم حانة في المنطقة. كانت أيامها مكاناً مثقلاً بالملل غير أني ترددت عليها بانتظام على مدار السنين منذ أول مجيئي إلى المدينة. أذكر أنه لم تنصرم أشهر قلائل على وصول خطوط الترام حتى فطن ياماجاتا إلى ما يطرأ حوله ومضى يصوغ أفكاره. ومع الشروع في جعل المنطقة حيّاً كاملاً لاحتساء المشروبات، كان من الطبيعي أن تصبح منشأته بمثابة الراعي الأكبر للمنشآت المحلية بحكم كونها الأقدم وموقعها عند نقطة تقاطع ثلاثة شوارع. وعلى ضوء هذا، كما فطن ياماجاتا، أخذ على عاتقه

مكتبة الفكر الجديد

توسعة حانته وإعادة افتتاحها افتتاحاً فخماً. كان التاجر في الطابق العلوي على استعداد لبيع محله، فتمكن ياماجاتا من جمع المال اللازم من غير مشقة. وكان حجر العثرة الأساسي في سبيل منشأته والمنطقة بأسرها هو موقف سلطات المدينة.

لا مراء أن ياماجاتا كان على صواب في هذا الصدد. فقد جرى هذا عام 1933 أو 1934 – في وقت غير محتمل فيه التفكير في إنشاء حي جديد للمتعة كما قد تتذكر. فلقد كانت السلطات تطبق سياسات متشددة لكبح جماح الجانب الأكثر عبثاً من حياة المدينة. والحقيقة أن العديد من المنشآت الأكثر انحلالاً بوسط المدينة كانت في سبيلها إلى الإغلاق. وفي أول الأمر لم أستمع إلى أفكار ياماجاتا بالكثير من العطف لكن عندما أنبأني بالضبط بنوعية المكان المرتسم في مخيلته تولاني الانبهار ووعدته ببذل كل المساعي لمؤازرته.

أعتقد أني ذكرت من قبل أني لعبت دوراً صغيراً في إخراج حانة الميجي-هيداري إلى الوجود. ولأني لست بالقطع رجلاً ذا ثراء، ما وسعني القيام بشيء على المستوى المادي. على أنه بحلول هذا الوقت كانت سمعتي في المدينة قد تنامت جزئياً؛ أذكر أنني لم أكن قد عملت بعد في لجنة الفنون بوزارة الخارجية لكن كانت لديّ هناك صلات شخصية عديدة وكنتُ بالفعل مستشاراً للجنة في الشؤون السياسية. وهكذا امتاز طلبي المقدَّم آنذاك إلى السلطات بالنيابة عن ياماجاتا بثقل ما.

شرحتُ الموقف كالآتي: "ينتوي المالك أن تصير المنشأة المقترَحة احتفالاً بالروح الوطنية الجديدة الناشئة باليابان في الوقت الراهن. سوف يعكس الديكور الروح الجديدة، وأي زبون ستتعارض آراؤه مع تلك الروح سيُدفع بحزم إلى الرحيل، كما أن المالك ماضي العزم على أن تكون المنشأة ملتقى فناني المدينة وكُتَّابها ومكان شربهم، الفنانين والكُتاب الذين تعكس أعمالهم الروح الجديدة إلى أبعد مدى. وبخصوص تلك النقطة الأخيرة أنا شخصياً ضمنت تأييد مختلف زملائي ومن بينهم الرسام ماسايوكي هارادا والكاتب

مكتبة الفكر الجديد

المسرحي ميسومي والصحفيين شيجيو أوتسوجي وإجي ناستوكي - وجميعهم كما تعلمون أبدعوا أعمالاً متناهية الإخلاص لعظمة الإمبراطور."

توالى حديثي فأوضحتُ أن مثل هذه المنشأة ستكون وسيلة مثالية لضمان سيادة اتجاه عام مرغوب فيه بالحي إذا ما أخذنا في الاعتبار مكانتها المرموقة بالحي.

وحذرتُ: "وإلا سنواجه للأسف نمو حي آخر يتصف بنفس الانحطاط الذي نبذل قصارى جهدنا لمحاربته والذي نعلم أنه ينهك نسيج ثقافتنا."

لم تكتف السلطات بمجرد قبول الطلب لكنها استجابت بحماس أذهلني. أخال الأمر أحد تلك الشواهد التي تلفت انتباه المرء إلى تبوؤه مكانة أسمى مما يتصور. لكني لم أكن قط ممن يبالون بالاعتبارات الاجتماعية، فهذا لم يكن السبب وراء بالغ الرضا الشخصي الذي غمرني بعد افتتاح الميجي-هيداري؛ كنتُ بالأحرى فخوراً لأني أشهد تأييد فكرة كنتُ أدافع عنها منذ فترة من الوقت - وهي أن روح اليابان الجديدة لا تقف على النقيض من استمتاع المرء بوقته؛ بمعنى أنه ليس هناك ما يدعو إلى أن يتلازم البحث عن المتعة مع الانحلال.

وهكذا وبعد حوالي سنتين ونصف من تشغيل خطوط الترام الجديدة، تم افتتاح الميجي-هيداري. فجاءت التجديدات بارعة وامتدت على نطاق واسع حتى إن أي شخص يمر من هذا الطريق بعد أن يشمله الظلام لن يعجز عن ملاحظة تلك الواجهة ساطعة الإنارة بمشكاواتها المتعددة، الكبيرة منها والصغيرة، التي تتعلق بطول الجملون تحت الأفاريز وتنتظم في صفوف بموازاة أفاريز النافذة وفوق المدخل الرئيسي؛ ثمة أيضاً لافتة ضخمة مضيئة تتدلى من الرافدة وتحمل الاسم الجديد للمبنى على خلفية من أحذية الجيش التي تتقدم إلى الأمام في أحد التشكيلات.

عقب الافتتاح بفترة وجيزة اصطحبني ياماجاتا إلى الداخل في إحدى الأمسيات وطلب مني أن أختار مائدتي المفضلة ثم أعلن أنها منذ ذلك الحين

مكتبة الفكر الجديد

فصاعداً محجوزة لاستخدامي الخاص. أتصور أن ذلك كان في المقام الأول اعترافاً بما أسديته إليه من خدمة صغيرة لكن لا ريب أني كنت دوماً من أحسن زبائن ياماجاتا.

الواقع أني ارتدت حانة ياماجاتا لمدة تربو على العشرين سنة قبل تحولها إلى الميجي-هيداري. لم يكن ذلك حقيقة اختياراً متعمداً من جانبي - فقد كان المكان حسبما قلت مكاناً عادياً - إلا أنه في مستهل مجيئي إلى المدينة كشاب، عشت في فوروكاما واتفق أن كان محل ياماجاتا قريباً مني.

لعله يشق عليك تخيل مدى قبح فوروكاما يومذاك. والحق أنك لو كنت قريب العهد بالمدينة، فحديثي عن منطقة فوروكاما قد يستحضر إلى ذهنك المتنزه القائم هناك اليوم وشجر الخوخ المشهورة به. لكني لمّا وفدت في البداية إلى هذه المدينة عام 1913، كانت المنطقة تزخر بالمصانع والمخازن الخاصة بالشركات الصغيرة التي هجرها أكثرية مُلاكها أو حل بها الخراب. كانت المنازل قديمة بالية وعليه فالأهالي الذين سكنوا فوروكاما هم الذين يتحملون فقط الإيجارات المنخفضة.

كان منزلي عبارة عن حجرة علوية ضيقة تعتلي مسكن عجوز تعيش مع ابنها الأعزب، وكان غير ملائم بالمرة لاحتياجاتي. فالكهرباء لم تكن متوافرة في المنزل، وكنتُ اضطر إلى أن أرسم تحت ضوء مصباح زيتي؛ بالكاد وجدتُ مساحة كافية لإقامة حامل الرسم؛ كما أني لم أقدر أن أتلافى طرطشة الجدران والحصيرة بالألوان؛ وطالما أيقظتُ العجوز وابنها أثناء عملي ليلاً؛ أما أشد ما أغاظني فهو أن سقف الحجرة كان شديد الانخفاض مما حال دون وقوفي معتدلاً. لذا كنتُ كثيراً ما أعمل بالساعات وظهري نصف منحن مرتطماً برأسي بالروافد باستمرار. إلا أني كنت أيامها في غاية السعادة لأن شركة تاكيدا وظفتني ولأني أكسب رزقي كفنان حتى إني لم أعر هذه الأحوال التعسة اهتماماً كبيراً.

لم أكن بطبيعة الحال أعمل بحجرتي خلال النهار بل في "أستوديو" الأستاذ

مكتبة الفكر الجديد

تاكيدا الذي كان أيضاً في فوروكاما. والأستوديو يتكون من حجرة طويلة تقع فوق مطعم – جد طويلة بما يكفي لوضع حوامل خمسة عشر رساماً كلها في صف واحد. ورغم أن السقف كان أكثر ارتفاعاً من سقف حجرتي العلوية، هبط أوسطه هبوطاً حاداً، لذا متى دخلنا الحجرة، كنا دائمي المزاح بأن السقف انخفض عدة سنتيمترات إضافية عن اليوم السابق. كانت هناك نوافذ بطول الحجرة لتمدنا بضوء مناسب للعمل كما هو مفترض؛ إلا أنه، وبطريقة ما، لم تكن دوماً أشعة الشمس الهابطة بالغة السطوع مما أضفى على الحجرة مظهراً أشبه بقمرة السفينة. كانت مشكلة المكان الأخرى هي أن صاحب المطعم الكائن في الطابق الأسفل لم يسمح لنا بالبقاء في الحجرة بعد السادسة مساء عندما يبدأ زبائنه في المجيء. كان يتذمر: "تبدو أصواتكم في الأعلى أشبه بقطيع الماشية". وبالتالي لا يترك لنا خياراً سوى استئناف العمل في منازلنا.

ربما عليّ أن أوضح أنه لم تتهيأ لنا الفرصة لتكملة برنامجنا بدون العمل مساء. فقد كانت شركة تاكيدا تفخر بقدرتها على تجهيز عدد كبير من اللوحات بعد إشعار قصير؛ والواقع أن الأستاذ تاكيدا أبلغنا أننا لو فشلنا في الالتزام بالموعد النهائي في الوقت المحدد لمغادرة السفينة الميناء، فما أسرع ما سنخسر أعمالنا مستقبلاً لصالح الشركات المنافسة. وهكذا عملنا ساعات أشد ما تكون إنهاكاً حتى وقت متأخر من الليل، وبرغم ذلك كان الذنب يلسعنا في اليوم التالي لتأخرنا عن البرنامج. ومع اقتراب موعد التسليم النهائي، كنا كثيراً ما نعتاد على الاكتفاء بالنوم ساعتين أو ثلاث ساعات كل ليلة والرسم على مدار اليوم. وأحياناً إن جاءت عدة مهمات الواحدة تلو الأخرى، تدور علينا الأيام ونحن مصابون بالدوخة من فرط الإرهاق. ولكن برغم ذلك لا يحضرني مطلقاً أننا فشلنا في تتمة أية مهمة في الميعاد المحدد مما يدل، على ما أظن، على إحكام الأستاذ تاكيدا سيطرته علينا.

عقب عملي مع الأستاذ تاكيدا بنحو السنة، التحق بالشركة فنان جديد، ياسوناري ناكاهارا، اسم أشك في أن يعني لك الكثير. فلا يوجد حقيقة سبب

مكتبة الفكر الجديد

يدعوك إلى أن تصادف الاسم بما أنه لم يحقق شهرة من أي نوع. فأقصى ما آل إليه هو وظيفة مدرس رسم في مدرسة ثانوية بمقاطعة يوياما قبل الحرب بعدة سنوات – وظيفة ظل يشغلها حتى الآن كما قيل لي، إذ لم تجد السلطات ما يدفعها إلى فصله كما فعلتْ مع العديد من نظرائه المدرسين. أنا عن نفسي أتذكره دائماً باسم "السلحفاة"، اسم أطلقناه عليه أيامها في شركة تاكيدا، وكنتُ استخدمه بمودة خلال فترة صداقتنا.

ما زالت في حوزتي لوحة رسمها السلحفاة – لوحة ذاتية رسمها بعد فترة قصيرة من تركه العمل بشركة تاكيدا. تعكس اللوحة شاباً نحيلاً يلبس نظارة وقميصاً في حجرة ضيقة ظليلة، تحف به الحوامل وقطع الأثاث المتداعية وقد انطرح الضوء المنبعث من النافذة على جانب واحد من وجهه. والجدية والخجل المرتسمان على وجهه يتناسبان بالقطع مع الرجل الذي أذكره، فقد تحلى السلحفاة ببالغ الصدق في هذا الصدد؛ فبالنظر إلى اللوحة، قد تخاله من نوعية الأشخاص الذين بإمكانك دفعهم جانباً بكل ثقة للفوز بكرسي شاغر بالترام. لكن يبدو أن لكل منا تصوراته الخاصة: فإن كان حياء السلحفاة منعه من إخفاء طبعه الخجول، فلم يحُل دون أن ينسب إلى روحه مظهراً فكرياً يتسم بالشموخ – الأمر الذي أنا عن نفسي لا أذكره فيه. لكن من الإنصاف أن أقول إن ذاكرتي لا تعي أي زميل تمكن من رسم لوحة ذاتية بنزاهة مطلقة؛ فمهما بلغتْ دقة الفنان في ملء تفاصيل المظهر الخارجي لانعكاس صورته في المرآة، قلما تقترب الشخصية المقدَّمة من الحقيقة التي يبصرها الآخرون.

اكتسب السلحفاة هذا اللقب عند التحاقه بالشركة، ففي غمرة انهماكنا في مهمة مشحونة أخذ ينتج لوحتين أو ثلاث لوحات لا غير في الوقت الذي أكمل بقيتنا ست لوحات أو سبعاً. في البداية رددنا بطأه إلى غرارته وما استخدمنا اللقب إلا من وراء ظهره. غير أنه بمرور الأسابيع وعدم تحسن معدل سرعته، ازدادت السخرية منه. وما لبث أن أمسى مألوفاً أن يناديه الناس بـ "السلحفاة" في وجهه. وعلى الرغم من إدراكه الكامل أن اللقب لم يطلق عليه محبة له،

مكتبة الفكر الجديد

أذكر أنه حاول قصارى جهده ليتقبله كما لو كان كذلك. فمثلاً إذا نادى شخص عبر الحجرة الطويلة قائلاً: "يا سلحفاة أما زلت ترسم البتلة التي شرعتَ فيها الأسبوع الفائت؟" كان يجاهد كي يضحك وكأنه يشاركه الدعابة. أذكر أن زملائي كثيراً ما أرجعوا عجزه الواضح عن الدفاع عن كرامته إلى أنه قادم من حي نيجيشي؛ ففي تلك الأيام - كما هو الحال اليوم - عمت خرافة بها شيء من الظلم؛ وهي أن الوافدين من تلك المنطقة من المدينة نشأوا واهنين ضعفاء على نحو يتعذر تغييره.

أذكر أن الأستاذ تاكيدا غادر الغرفة بصورة مفاجئة في صبيحة أحد الأيام، فأقبل بعدها اثنان من زملائي إلى حامل السلحفاة واحتجا على بطئه. وكان حاملي يقف على بعد يسير من حامله، ومن ثم وسعني أن أشاهد بوضوح ما علا وجهه من تعبير عصبي حين أجابهما:

"أرجوكما أن تصبرا عليّ. فأمنية حياتي أن أتعلم منكم - أنتم زملائي المهرة - كيفية إنتاج عمل عالي الجودة بسرعة كبيرة. فأنا ما ادخرت وسعاً في هذه الأسابيع المنقضية لكي أرسم على نحو أسرع لكني للأسف اضطررت إلى ترك العديد من اللوحات ذلك أن الافتقار إلى الجودة بفعل تسرعي سيلحق الخزي بما ارتضته شركتنا من مقاييس رفيعة. لكني سأعمل بكل طاقتي حتى أحسن منزلتي الهزيلة في نظركما. أرجوكما اغفرا لي وتحليا بالمزيد من الصبر."

كرر السلحفاة هذا الالتماس مرتين أو ثلاث مرات فيما واصل معذباه سبابهما متهمين إياه بالكسل والركون إلى بقيتنا للقيام بنصيبه في العمل. وفي هذه الأثناء توقف معظمنا عن الرسم وتجمعنا حولهم. وبعدما طفق متهما السلحفاة يسبانه بكلمات لا حد لقسوتها ولما أدركتُ أن بقية زملائي لن يقدموا على أي شيء سوى الفرجة بنوع من التشويق، عند ذاك تقدمتُ إليهما قائلاً:

"كفى! ألا تدركان أنكما تتحدثان مع شخص أمين فنياً؟ لو أبى الفنان التضحية بالجودة في سبيل السرعة، فذلك أمر يوجب الاحترام من قِبلنا جميعاً. وأنتما أحمقان إن لم يكن بمقدوركما إدراك هذا."

مكتبة الفكر الجديد

مر على هذا الموقف زمن طويل الآن وليس بإمكاني أن أجزم أن تلك هي بالضبط عين كلماتي في ذاك الصباح، على أني تحدثت بمثل هذا الأسلوب بالنيابة عن السلحفاة، وأنا على يقين من هذا؛ لأني أستطيع أن أستحضر بوضوح ما بان على وجه السلحفاة من علامات امتنان وراحة عندما تحول إليّ، كما أذكر عيون الحاضرين الشاخصة وقد ران عليها العجب. أنا شخصياً حصلت على احترام جم بين زملائي – فقد كان إنتاجي غير قابل للتحدي من حيث الجودة والكمية – وأظن أن تدخلي أنهى محنة السلحفاة على الأقل لبقية ذلك الصباح.

ربما تخالونني أبالغ في نسبة الفضل لنفسي بروايتي لهذه الحادثة البسيطة؛ فالقضية التي عالجتُها في دفاعي عن السلحفاة تتراءى برغم كل شيء غاية في الجلاء – قضية قد تخالها ستتبادر للتو إلى ذهن أي شخص يكن احتراماً للفن الجاد. إلا أنه من الضروري تذكر مناخ شركة الأستاذ تاكيدا أيامها – فقد استحوذ علينا إحساس بأننا جميعاً نقاتل الوقت من أجل الحفاظ على سمعة الشركة التي اكتسبتْها بعناء. كنا كذلك على دراية كاملة بأن الهدف الأساسي من نوعية اللوحات التي نُكلف برسمها – فتيات الجيشا، شجر الكرز، أسماك الشبوط العائمة، المعابد – هو أن تبدو "يابانية" في أعين الأجانب التي تُشحن إليهم وأنه من المرجح ألا يلاحظوا الجوانب الرفيعة للأسلوب الفني. لذا لا أحسبني أدعي فضلاً لا أستحقه لنفسي الشابة إذا أشرت إلى أن ما قمت به يومذاك هو تجل لصفة نلت عنها احتراماً جماً خلال السنين المنصرمة – وهي القدرة على التفكير والحكم بنفسي على القضايا حتى وإن عنى ذلك العوم ضد التيار السائد حولي. وتظل الحقيقة التي لا ريب فيها أني كنت المدافع الوحيد عن السلحفاة صباحها.

على الرغم من أن السلحفاة تمكن من شكري لما قمتُ به من تدخل بسيط ومساعدات لاحقة، فقد تسارع معدل العمل أيامها وانقضى بعض الوقت قبل أن أستطيع أن أجري حديثاً مستفيضاً حميماً معه. أعتقد في الواقع أنه قد ولى شهران منذ الواقعة التي حكيتها قبل أن يصيب الخمود أخيراً برنامج عملنا المهتاج. كنتُ

مكتبة الفكر الجديد

أتمشى في الأرض المحيطة بمعبد تاماجاوا كما كنتُ أفعل كثيراً عندما يتسع الوقت، فتبينتُ السلحفاة جالساً على مقعد تُتوجه أشعة الشمس وقد لاح لي نائماً.

ما زلت شديد الإعجاب بأرض تاماجاوا، وأنا أتفق مع القائلين إن السياج وصفوف الأشجار الناهضة هناك اليوم قد تساعد حقاً على إضفاء جو أكثر تماشياً مع مكان العبادة. لكني كلما قصدت المكان الآن، ألفي نفسي وقد شملني الحنين إلى أرض تاماجاوا كما كانت فيما خلا. ففي تلك الأيام - قبل وضع السياج وزراعة الأشجار - كانت الأرض تلوح أكثر اتساعاً وامتلاءً بالحياة. كان الامتداد الأخضر المفتوح مترامي الأطراف، ترى به أكشاكاً لبيع الحلوى والبالونات واستعراضات ثانوية للمشعوذين والسحرة. أذكر أن أرض تاماجاوا كانت أيضاً مكاناً لالتقاط الصور الفوتوغرافية، فأينما تولي وجهك تجد مصوراً يرابط في كشكه مرتدياً عباءته السوداء وبصحبته حامل الكاميرا ثلاثي القوائم. التقيت بالسلحفاة في ظهيرة أحد أيام الآحاد ببداية الربيع. كانت كل الأماكن تنشط بحركة الآباء والأطفال. استيقظ السلحفاة مجفلاً حين تقدمتُ إليه وجلستُ بجانبه.

هتف ووجهه يشرق: "ياه، السيد أونو! يا لحسن طالعي أن أراك اليوم. ياه، منذ لحظة بالضبط كنتُ أقول لنفسي إنه لو توفر معي فقط القليل من المال، كنتُ سأشتري هدية للسيد أونو تعبيراً عن عرفاني بجميل عطفه عليّ، إلا أني لا أقدر في الوقت الحالي أن أشتري سوى هدية رخيصة مما سيعد إهانة لك. لذا اسمح لي حالياً يا سيد أونو أن أشكرك فقط من صميم قلبي على كل ما فعلتَه من أجلي."

"ما فعلتُ شيئاً ذا بال. كل ما في المسألة أني عبرت عن رأيي بأمانة عدة مرات."

"أنا أصدقك القول يا سيد أونو، الرجال أمثالك أصبحوا نادرين للغاية. إنه شرف لي أن أكون زميلاً لواحد مثلك. ومهما تفرقتْ بنا السبل في المستقبل، سوف أتذكر على الدوام كرمك معي."

مكتبة الفكر الجديد

أذكر أنه تعين عليّ الاستماع إلى إطرائه على شجاعتي ونزاهتي بضع لحظات أخرى ثم قلت: "كنتُ أعتزم التحدث إليك منذ فترة. فقد كنتُ أتدبر بعض الأمور وأفكر في ترك العمل عند الأستاذ تاكيدا في المستقبل القريب."

حدجني السلحفاة بنظرة مشدوهة ثم تلفت حوله بطريقة باعثة على الضحك وكأنه خائف من أن يكون أحدهم سمعني مصادفة.

واصلتُ الحديث: "لقد حالفني الكثير من الحظ، إذ حاز عملي على اهتمام الرسام ومصمم الصور المطبوعة سيجي مورييما. سمعتَ عنه دون شك؟"

رد عليّ السلحفاة بهزة من رأسه في حين ظل يرمقني بنظراته.

"إن السيد مورييما فنان أصيل وأغلب الظن أنه فنان عظيم. وقد كان الحظ حليفي أن حظيت باهتمامه ونصيحته. والواقع أنه يرى أن بقائي مع الأستاذ تاكيدا سيلحق بمواهبي أذى يستعصي إصلاحه، وقد دعاني إلى أن أصير تلميذه."

"أحقاً؟" تساءل رفيقي بلسان حذر.

"وتعرف؟ وأنا أتجول في المتنزه منذ لحظات، كنتُ أتفكر في قرارة نفسي أن السيد مورييما لا شك على صواب مائة في المائة. فلا بأس أن يكدح بقية حمير الشغل هؤلاء تحت إمرة الأستاذ تاكيدا لكسب قوتهم لكن يتعين علينا – نحن ذوي الطموحات الجادة – أن نتجه بأبصارنا إلى مكان آخر."

في تلك اللحظة رنوت إلى السلحفاة بنظرة ذات مغزى، وما انفك هو يتفرس فيّ وقد داخلت تعبير وجهه نظرة حائرة.

"أخشى أني سمحت لنفسي أن أنوه بك للسيد مورييما. والحق أني صرحت بأنك تمثل حالة استثنائية بين الزملاء الحاليين. فأنت وحدك تنعم بموهبة صادقة وطموحات جادة."

"حسبك يا سيد أونو" – ثم انفجر في الضحك – "كيف يتأتى لك قول هذا؟ أعلم أنك تريد أن تكون لطيفاً معي إلا أن هذا زائد عن الحد."

استطردتُ: "لقد صدقتْ نيتي على قبول عرض السيد مورييما الكريم وأنا

مكتبة الفكر الجديد

أحثك على أن تسمح لي بعرض أعمالك عليه، فربما يسعفك الحظ ويدعوك أنت أيضاً لتكون تلميذه."

نظر السلحفاة إليّ والانزعاج يكسو وجهه.

"لكن يا سيد أونو، ماذا تقول؟" نبس بصوت خافت النبرات. "وظفني الأستاذ تاكيدا لديه بناء على توصية من أحد معارف أبي المحترمين. وقد أظهر في الحقيقة تسامحاً كبيراً معي برغم كل مشكلاتي. كيف أخونه بتركه بعد عدة شهور فقط؟" ثم بدا وكأن السلحفاة أدرك فجأة فحوى كلماته، فأردف سريعاً: "أنا لا ألمح يا سيد أونو بالقطع أنك غير مخلص بأي حال من الأحوال. فالظروف في حالتك مختلفة. أنا لا أجرؤ أن..." تضاءل صوته ليتحول إلى قهقهة مرتبكة ثم جاهد ليسترد رباطة جأشه: "أنت جاد يا سيد أونو بشأن ترك الأستاذ تاكيدا؟"

"أنا أرى أن الأستاذ تاكيدا لا يستحق ولاء مَن هم مثلك ومثلي. فالولاء لا بد من اكتسابه، فهو ليس كلمة بسيطة. ما أكثر ما يتكلم الرجال عن الولاء ليحذوا حذو غيرهم بعيون عمياء. أنا عن نفسي لا أريد أن أواصل حياتي بهذا الأسلوب."

قد لا تكون تلك الكلمات بالطبع هي عين كلماتي في تلك الظهيرة بمعبد تاماجاوا؛ فقد حكيت هذا المشهد بالذات عدة مرات من قبل، ومن المحتم أن مثل تلك الروايات تبدأ مع الحكي المتكرر في اتخاذ حياة مستقلة بها. لكن حتى لو لم أُعبر عن نفسي يومئذ بهذه البلاغة منقطعة النظير أمام السلحفاة، أظن أنه يمكن افتراض أن ما نسبتُه لنفسي للتو من كلمات يمثل حقاً بدقة كافية موقفي وعزمي في تلك المرحلة من حياتي.

وقد اتفق أني اضطررت أن أحكي قصص تلك الأيام بشركة تاكيدا وأعيد حكيها حول تلك المائدة بالميجي-هيداري؛ الظاهر أن تلاميذي اشتركوا في الافتتان بسماع الحكايات عن باكورة سيرتي - ربما لأنهم اهتموا طبعاً بمعرفة

مكتبة الفكر الجديد

ما كان يصنعه مدرسهم لمّا كان في سنهم. على أية حال كانت أيامي مع الأستاذ تاكيدا مثاراً لأحاديث متكررة خلال تلك الأمسيات.

أذكر أني قلت لهم ذات مرة: "لم تكن تجربة سيئة. فقد تعلمتُ منها بعض الأشياء الهامة."

"معذرة يا معلم" – أعتقد أنه كورودا الذي مال على المائدة ليقول: "يشق عليّ تصديق أن مكاناً مثل الذي تصفه يمكنه أن يعلم فناناً أي شيء نافع مهما كان."

اتفق صوت آخر: "أجل يا معلم، أخبرنا حقاً ما الذي يمكن لهذا المكان أن يعلمه إياك على أي حال، فهو أشبه بشركة تنتج علب الكرتون."

هكذا صار الحال في الميجي–هيداري. قد أكون مشغولاً بالحديث مع أحدهم والآخرون يتكلمون فيما بينهم، وفور توجيه سؤال مشوق إليّ، يقطعون جميعاً أحاديثهم لأواجَه بدائرة من الوجوه تنتظر ردي، كأنهم لا يتخاطبون البتة بدون استراق السمع إلى أية معلومة قد أفصح عنها. وهذا لا يعني أنهم لا يتمتعون بحس نقدي؛ على العكس تماماً، كانوا مجموعة متقدة الذكاء من الشباب ولا يجرؤ أحد أن يقول أي شيء قبل التفكير فيه أولاً.

أجبته: "لقد لقنتني شركة تاكيدا درساً مهماً في مقتبل عمري: فعلى الرغم أن إجلال المعلمين واجب، من المهم دوماً التشكيك في سلطاتهم. علمتني تجربة تاكيدا ألا أتبع أبداً القطيع اتباعاً أعمى وأن أدرس ملياً الاتجاه الذي أُدفع إليه. وإن كانت هناك مسألة واحدة حاولتُ تشجيعكم عليها، فهي أن تعلوا فوق الموجة، أن تعلوا فوق المؤثرات المتفسخة المرفوضة التي أغرقتنا وساهمتْ كثيراً في إضعاف نسيج أمتنا خلال العشر أو الخمس عشرة سنة الماضية". لا شك في أني كنت مخموراً قليلاً وبدوت متكلف العظمة إلى حد ما لكن هكذا دارت تلك الجلسات حول المائدة الكائنة في الركن.

قال أحدهم: "بالفعل يا معلم، يجب ألا يطوي النسيان ذلك، يجب أن نسعى جميعاً إلى أن نعلو فوق الموجة."

مكتبة الفكر الجديد

أردفتُ: "أخالنا هنا حول هذه المائدة يحق لنا أن نفخر بأنفسنا. فقد تفشى التنافر والعبث حولنا. بيد أن هناك روحاً أروع وأشجع تبزغ الآن في اليابان وأنتم هنا تمثلون جزءاً منها. أتمنى حقيقة أن تواصلوا المسيرة ليعترف العالم بكم كرأس حربة للروح الجديدة، وليس أقل من ذلك. ولا مراء أن..." - عند هذه النقطة لم أكن أخاطب الجلوس إلى المائدة فحسب بل كل المستمعين القريبين - "لا مراء أن منشأتنا هذه التي تضمنا لبرهان على الروح الجديدة الناشئة وجميعنا هنا لنا الحق في أن نزهو فخراً."

كثيراً ما تزاحم الغرباء حول مائدتنا عند ازدياد بهجة الشرب ليشاركونا الجدل والخطابات أو لمجرد الإنصات والتغلغل في جو المكان. وكان تلاميذي بوجه عام على استعداد تام للاستماع إلى الغرباء، لكن في حالة تطفل شخص ثقيل الظل أو حامل لأفكار كريهة، كانوا يسارعون بلفظه على الفور. ورغم الصراخ وإلقاء الخطب حتى ساعة متأخرة من الليل، ندرت المشاحنات الحقيقية في الميجي-هيداري، ذلك لأننا، نحن المختلفين إلى ذلك المكان، اتحدنا حول ذات الروح الجوهرية؛ أي أن المنشأة أثبتت أنها كل ما تمناه ياماجاتا؛ إذ قدمتْ شيئاً جميلاً، وكان بمقدور المرء احتساء المشروبات هناك في جو من الكبرياء والوقار.

أحتفظ في مكان ما بالمنزل بلوحة رسمها كورودا، ألمع تلاميذي موهبة. تصور اللوحة إحدى تلك الأمسيات بالميجي-هيداري، واسمها: "الروح الوطنية"، اسم قد يحملك على توقع عمل يصف تقدم الجنود أو شيئاً من هذا القبيل. لا ريب أن كورودا قصد أن يقول إن الروح الوطنية قد بدأتْ في مكان ما قبل ذلك بكثير، في عادات حياتنا اليومية، في أمور مثل مكان شربنا والمخالطين لنا. فكانت اللوحة إجلالاً منه لروح الميجي-هيداري، إذ كان يؤمن وقتها بتلك الأفكار. واللوحة المرسومة بالزيت تصور موائد عديدة وتستوحي الكثير من لون المكان وديكوره - وكان أشد ما لفت النظر فيما استوحته اللافتات والشعارات الوطنية المتدلية من درابزين الشرفة العلوية، وبها تجمع الضيوف

مكتبة الفكر الجديد

حول الموائد وهم يخوضون في الأحاديث، على حين ظهرتْ في المقدمة نادلة ترتدي الكيمونو وتسرع بصينية عليها المشروبات. إنها لوحة جميلة تأسر بدقة بالغة ما ساد الميجي-هيداري من جو صاخب، وعلى صخبه كان يعبق بالعزة والاحترام. وحين أتطلع إليها اليوم، لا يزايلني الرضا عندما أتذكر أني شاركت بدور صغير في إخراج هذا المكان إلى الوجود وذلك بما اكتسبتْه سمعتي من نفوذ في المدينة.

كثيراً ما أجد نفسي في هذه الأيام مستغرقاً في ذكريات الميجي-هيداري والأيام الخالية أثناء جلوسي بحانة السيدة كاواكامي مساء. فمحل السيدة كاواكامي يطرأ عليه شيء غريب لمّا أكون وشينتارو الزبونين الوحيدين هناك. ثمة شيء غريب يطوقنا بالحنين عندما نجلس معاً إلى البار تحت تلك الأضواء المنخفضة. ربما رحنا نتكلم عن شخص عهدناه في الماضي أو عن الكمية التي بمقدوره شربها أو عن سلوك مضحك عُرف به. ثم سرعان ما نحاول حث السيدة كاواكامي على تذكر الرجل، وفي خلال محاولاتنا لإنعاش ذاكرتها، نجدنا نتذكر المزيد والمزيد من التفاصيل المسلية عنه. منذ بضع ليال بعد أن ضحكنا من مثل هذه الذكريات، قالت السيدة كاواكامي كما تقول مراراً في هذه المواقف: "حسناً، أنا لا أذكر اسمه لكني متأكدة أني سأتعرف على وجهه."

قلت متذكراً: "الحق أنه لم يكن أبداً زبوناً حقيقياً للمكان يا أوباسان. فقد داوم على الشرب في حانة تقع عبر الشارع."

"آه أجل، في الحانة الكبيرة. مع ذلك قد أتعرف عليه لو رأيته. لكن مَن يدري حال الدنيا! الناس يتغيرون تماماً. فمن حين لآخر تقع عيناي على أحد الأشخاص في الشارع وأظن أني أعرفه وعليّ أن أسلم عليه. لكني أعيد النظر ويتطرق إلى ذاكرتي الشك."

قال شينتارو بدوره مقاطعاً: "آه يا أوباسان، منذ بضعة أيام بالضبط بادرتُ بتحية أحدهم في الشارع ظناً مني أني أعرفه لكن الواضح أن الرجل حسبني مجنوناً، إذ ابتعد عني دون أن يرد."

مكتبة الفكر الجديد

الظاهر أن شينتارو وجد هذه القصة مسلية، إذ ارتفع صوته مغرقاً في الضحك. ندت ابتسامة عن السيدة كاواكامي لكنها لم تشاركه ضحكه. تلفتت إليّ قائلة:

"يجب يا معلم أن تحاول إقناع أصدقائك بالشروع في العودة إلى هذه الأنحاء. وعندما نبصر وجهاً مألوفاً عرفناه في تلك الأيام، لعلنا ينبغي حقاً أن نوقفه لنخبره أن يأتي هنا إلى هذا المكان الصغير. وهكذا نستطيع أن نبدأ في إعادة الأيام الخالية إلى مجدها."

قلت: "يا لها من فكرة رائعة يا أوباسان، سأجربها وسأتذكر أن أنفذها. سأوقف الناس في الشوارع قائلاً: أنا أتذكرك من زمان. اعتدت أن تكون زبوناً في حينا. طيب، ربما تحسب أن المنطقة اختفت بأسرها لكنك مخطئ. فحانة السيدة كاواكامي ما تزال هناك مثلما كانت دائماً، والأوضاع تعود ببطء إلى سالف عهدها."

قالت السيدة كاواكامي: "بالضبط يا معلم، أخبرهم أن الفرصة ستفوتهم، وعندها سيبدأ العمل في التحسن. فبرغم كل شيء من واجب المعلم أن يُرجع الحشد القديم. فقد كان الجميع دائمي الإعجاب بالمعلم باعتباره القائد الطبيعي في هذه الأرجاء."

قال شينتارو: "نقطة وجيهة يا أوباسان. ففي الأيام السالفة لو تشتتت قوات أحد القادة عقب معركة، لا يلبث أن يبدأ في حشدهم معاً مرة أخرى، والمعلم يقف في موقف مشابه."

"يا للهراء،" قلت ضاحكاً.

مضت السيدة كاواكامي تقول: "هو ذلك يا معلم، اعثر على كل الزبائن القدامى وقل لهم أن يعودوا. وبعد فترة وجيزة سأشتري المحل المجاور وسنفتتح محلاً ضخماً عتيقاً، تماماً مثل ذلك المحل الكبير الذي كان مقاماً في الماضي."

ما برح شينتارو يقول: "فعلاً يا معلم. يتعين على القائد أن يحشد رجاله ثانية."

مكتبة الفكر الجديد

"فكرة شائقة يا أوباسان،" قلت بإيماءة من رأسي. "أتدرين؟ كان الميجي-هيداري مجرد مكان ضيق ذات يوم، ليس أكبر من هذا المكان، على أننا تمكننا في الوقت المناسب من تحويله إلى ما كان عليه. طيب، ربما كل ما علينا هو أن نفعل نفس الشيء مجدداً مع محلك هذا. لقد استتبت الآن الأوضاع قليلاً ولا بد من عودة الزبائن."

قالت السيدة كاواكامي: "بإمكانك يا معلم أن تعيد كل أصدقائك الفنانين ولن يلبث رجال الصحافة أن يلحقوا بهم."

"فكرة شائقة. قد نستطيع تحقيقها على صعوبتها. إلا أني أتساءل يا أوباسان، قد لا تستطيعين التعامل مع مثل ذلك المكان الكبير، نحن لا نريدك أن تخفقي."

"كلام فارغ،" قالت السيدة كاواكامي والاستياء يغلف وجهها. "إذا أسرعتَ يا معلم وقمتَ بدورك، سترى الكفاءة التي سيدار بها المحل."

دارت مثل هذه الأحاديث مراراً وتكراراً. ومَن سيقول إن الحي القديم لن يرجع إلى سابق عهده مجدداً؟ قد ينزع أمثال السيدة كاواكامي وأمثالي إلى إطلاق النكات حول الموضوع إلا أن شعاعاً من التفاؤل الجاد قبع وراء مزاحنا. "يتعين على القائد أن يحشد رجاله." ربما يتحتم عليه فعل هذا. ربما حين يستقر مستقبل نوريكو بشكل نهائي، سأولي خطط السيدة كاواكامي بعض التفكير الجاد.

أحسبني أستطيع أن أشير هنا إلى أني رأيت تلميذي الذي تبنيته فنياً، كورودا، مرة واحدة فقط منذ نهاية الحرب. كانت محض صدفة في يوم مطير خلال أول عام من الاحتلال قبل تدمير الميجي-هيداري وكل تلك المباني الأخرى. كنتُ أسير في مكان ما، أشق طريقي عبر ما تبقى من حي المتعة مسدداً بصري من تحت الشمسية إلى تلك الهياكل الخربة. أذكر يومها أن بعض العمال كانوا يجولون في المكان فلم أحفل في البداية بالشخص الواقف يتطلع إلى أحد المباني المحترقة. لم أع أن الشخص استدار وظل يراقبني إلا عندما مررت بجواره. لزمت مكاني ونظرت حولي، ومن خلال المطر المتساقط على

مكتبة الفكر الجديد

شمسيتي اجتاحتني صدمة غريبة، فقد اعترض بصري كورودا مسلط العينين عليّ ووجهه خال من أي تعبير.

تبينتُ من تحت مظلته أنه يرتدي معطف مطر داكناً فيما لم يعتمر قبعة فوق رأسه. تساقط المطر من المباني المتفحمة الواقعة خلفه وتناثرت بالقرب منه كمية كبيرة من المطر بفعل بقية باقية من أحد المزاريب. أذكر أن شاحنة مليئة بعمال البناء عبرت بيننا. لاحظتُ أن إحدى دعامات شمسيته مكسورة مما جعل المطر يتساقط بجانب قدمه بالضبط.

أصبح وجه كورودا - الذي كان شديد الامتلاء قبل الحرب - مجوفاً حول عظام الخدين ولاحت خطوط عميقة عند الذقن والحلق. فقلت في سري وأنا أقف هناك: "ما عاد شاباً."

حرك رأسه باستخفاف شديد. لم أكن متأكداً ما إذا كانت تلك الحركة بداية انحناءة أم أنه يعدل رأسه فقط كي يبعد عنه ماء المطر المتناثر من شمسيته المكسورة. بعدها استدار وابتعد في الاتجاه الآخر.

بيد أني لم أعتزم الإسهاب في سيرة كورودا الآن. فهو بالفعل لم يكن ليتبادر إلى ذهني مطلقاً لو لم يُطرح اسمه بلا توقع الشهر الماضي أثناء لقائي بالدكتور سايتو صدفة في الترام.

حدث هذا بعد ظهيرة أحد الأيام عندما اصطحبتُ إشيرو أخيراً لمشاهدة فيلمه عن الوحش - رحلة حُرم منها في اليوم السابق بسبب عناد نوريكو. الواقع أني ذهبت منفرداً بحفيدي، فقد رفضتْ نوريكو المجيء وتطوعتْ سيتسوكو بالبقاء في المنزل ثانية. كان هذا بالتأكيد تصرفاً طفولياً محضاً من جانب نوريكو إلا أن إشيرو كون تفسيره الخاص لتصرفات النساء. كنا جالسين يومذاك لتناول وجبة الغداء حين طفق يقول:

"لن تجيء الخالة نوريكو ولا أمي. فالفيلم يخيف النساء جداً. سيصيبهما رعب شديد، أليس كذلك يا أوجي؟"

"أجل، أظن هذا صحيحاً يا إشيرو."

مكتبة الفكر الجديد

"سيصيبهما رعب شديد. لن تستطيعي يا خالة نوريكو مشاهدة الفيلم من شدة الخوف، أليس كذلك؟"

"أجل،" ردت نوريكو متصنعة وجهاً مذعوراً.

"حتى أوجي خائف. انظري، يمكنك حتى أن تري الخوف على وجه أوجي، وهو رجل."

وفي تلك الظهيرة بينما كنتُ أقف في نهاية المدخل منتظراً الذهاب إلى السينما، حضرتُ منظراً عجيباً بين إشيرو وأمه. كانت سيتسوكو تعقد رباط صندله ورأيته هو يحاول مراراً أن يقول لها شيئاً. وكلما قالت له: "ما الأمر يا إشيرو، لا أسمعك،" كان يحملق إليها بعينين غاضبتين ثم يرميني بنظرة سريعة ليرى إن كنتُ قد سمعته أم لا. وفي النهاية بمجرد أن ارتدى إشيرو الصندل، انحنت سيتسوكو ليهمس إشيرو في أذنها. عندئذ أومأتْ إليه واختفت داخل المنزل لترجع بعد لحظة بمعطف واقٍ من المطر طوته وأعطته له.

"ليس من المحتمل أن تمطر،" علقتُ ملقياً نظرة إلى الخارج إلى ما وراء المدخل الأمامي. كان بحق يوماً صحواً بالخارج.

ردت سيتسوكو: "يريد إشيرو أن يأخذه رغم ذلك."

أصابني هذا الإلحاح على معطف المطر بالحيرة. لكن حالما خرجنا تحت أشعة الشمس ونزلنا التل باتجاه محطة الترام، لاحظتُ إشيرو وهو يختال في مشيته - وكأن المعطف المعلق على ذراعه حوَّله إلى شخص أشبه بهمفري بوجارت - فاستنتجتُ أن ذلك كله تقليد لبطل من أبطاله الذين يظهرون في مجلات الأطفال المصورة.

كنا قد أشرفنا على بلوغ سفح التل عندما صرح إشيرو بصوت عال:

"كنتَ يا أوجي رساماً مشهوراً."

"أظن أنك محقٌّ يا إشيرو."

"طلبتُ من الخالة نوريكو أن تريني لوحات أوجي لكنها رفضت."

"أ أ. كلها محفوظة في مكان بعيد في الوقت الحالي."

مكتبة الفكر الجديد

"خالتي نوريكو لا تسمع الكلام، أليس كذلك يا أوجي؟ قلتُ لها أن تريني لوحات أوجي. لماذا لا تريني إياها؟"

ضحكتُ وأجبته: "لا علم لي. ربما كانت مشغولة بشيء ما."

"هي لا تسمع الكلام."

أطلقتُ ضحكة أخرى وقلت: "أظن هذا يا إشيرو."

تبعد محطة الترام مسيرة عشر دقائق عن منزلنا؛ فنحن ننزل التل نحو النهر ثم نسلك طريقاً ضيقاً بمحاذاة السد الخرساني الجديد، وتلتقي الدائرة المتجهة نحو الشمال بالطريق وراء موقع المشروعات السكنية الجديدة بالضبط. وفي تلك الظهيرة المشمسة من الشهر المنصرم استقللت أنا وحفيدي الترام من هناك إلى وسط المدينة وقابلنا الدكتور سايتو في تلك الرحلة.

أدرك أني ما استفضت حتى الآن في الكلام عن عائلة سايتو، العائلة التي ينهمك حالياً ابنها الأكبر في محادثات للزواج من نوريكو. وآل سايتو في المجمل مرشح مختلف كل الاختلاف عن آل مياك الذين تعاملنا معهم السنة المنصرمة. لا ريب أن آل مياك عائلة مهذبة جداً إلا أنها وبكل إنصاف لا يمكن وصفها بالوجيهة، في حين أن عائلة سايتو وبلا أية مبالغة هي كذلك حقاً. ورغم أني في الواقع لم أتعرف إلى الدكتور سايتو كما ينبغي، فقد كنتُ دوماً على دراية بنشاطاته في عالم الفن. ولمدة سنوات كلما مررت به في الشارع، كنا نتبادل التحية بأدب مسَلمين بعلمنا بشهرة الآخر. إلا أن لقائي به الشهر الماضي اختلف بالقطع اختلافاً كلياً.

لا يزدحم الترام حتى يعبر النهر عند الجسر الصُلب المواجه لمحطة تانيباشي، وهكذا حينما ركب الدكتور سايتو الترام بعدنا بمحطة، تمكن من الجلوس على كرسي شاغر بجواري. بدأنا حوارنا بالضرورة بالقليل من عدم الراحة، فالمفاوضات كانت تمر بمرحلة مبكرة حساسة، ولم يبد من اللائق مناقشتها علانية، بيد أنه من السخافة التظاهر بعدم حدوثها. انتهى بنا الأمر إلى أن أثنينا على مزايا "صديقنا المشترك، السيد كيو" - الوسيط في طلب الزواج -

مكتبة الفكر الجديد

وقد علق الدكتور سايتو باسماً: "فلنأمل أن تثمر مجهوداته عن لم شملنا في القريب". كان هذا أقرب ما نبسنا به حول الموضوع. لم أتمالك أن ألحظ التناقض الواضح بين ثقة الدكتور سايتو في استجابته لهذا الموقف المحرج قليلاً والعصبية الخرقاء التي تعاملتْ بها عائلة مياك مع الأمور من البداية إلى النهاية في العام الماضي. ومهما كانت النتيجة النهائية، تخامر المرء الطمأنينة بحق لتعامله مع أمثال عائلة سايتو.

وبعيداً عن هذا الموضوع تحدثنا في الأغلب عن أمور بسيطة. والدكتور سايتو رجل دافئ الأسلوب لطيف الشمائل، ولمّا انحنى ليسأل إشيرو عن مدى استمتاعه بزيارته وعن الفيلم الذي نهم برؤيته، لم يُبد حفيدي أي مانع من الحديث معه.

"إنه ولد ممتاز،" خاطبني الدكتور سايتو مطرياً عليه.

وقبل برهة من الوصول إلى محطته - كان بالفعل قد أعاد قبعته إلى رأسه - علق الدكتور سايتو قائلاً: "ثمة شخص آخر يعرفه كلانا، رجل اسمه السيد كورودا."

رنوت إليه بشيء من الإجفال وكررت على مسامعه: "السيد كورودا. آه، هو بلا شك نفس السيد الذي أشرفتُ عليه ذات مرة."

"صحيح. صادفتُه مؤخراً واتفق أن ذكر اسمك."

"حقاً؟ لم ألقه منذ فترة. لا ريب أني لم أره منذ اندلاع الحرب. كيف حال السيد كورودا هذه الأيام؟ ماذا يفعل الآن؟"

"أعتقد أنه على وشك أن يشغل وظيفة بكلية يوماشي الجديدة حيث سيُدرس الفن. وهكذا التقيت به، فقد تكرمتْ الكلية بدعوتي إلى تقديم توصياتي لمجلس التعيينات."

"آه، أي أنك لا تعرفه حق المعرفة."

"في الواقع لا، إنما آمل أن أراه مستقبلاً."

"فعلاً؟ إذاً ما زال السيد كورودا يتذكرني. يا لطيبته."

مكتبة الفكر الجديد

"أجل، بالفعل. لقد ذكر اسمك عندما تصادف أن ناقشنا أمراً ما. وما واتتني الفرصة كي أتحدث معه بالتفصيل. لكن لو قابلتُه مرة ثانية، سأذكر له أني رأيتك."

"آه، بالطبع."

كان الترام يمر بالجسر الصُلب عندما صدر عن العجلات رنين معدني صاخب. كان إشيرو يجلس على ركبتيه ليتفرج من النافذة فأشار إلى شيء بالأسفل في الماء. استدار الدكتور سايتو لينظر وتبادل كلمات معدودة مع إشيرو، ثم وقف عند اقتراب محطته وألقى تلميحاً أخيراً إلى "مجهودات السيد كيو" قبل أن ينحني ويشق طريقه خارجاً.

وكما هي العادة تزاحم الكثير من الناس بالمحطة التالية للجسر ففقدتْ بقية الرحلة الكثير من الراحة. وعندما ترجلنا أمام السينما بالضبط، وسعني رؤية الملصق البارز بصورة جلية في المدخل. حقق حفيدي شبهاً قريباً منه في المخطط الذي رسمه منذ يومين وإن لم تكن هناك نار في الصورة؛ أما ما تذكره إشيرو فكان خطوط تأثير تشبه أشعة البرق رسمها الفنان ليشدد على ضراوة السحلية العملاقة.

دنا إشيرو من الملصق وانفجر ضاحكاً.

أشار إليه قائلاً: "سهل أن تدرك أنه وحش زائف. كل الناس يمكنهم اكتشاف ذلك. إنه مجرد تلفيق." ثم استأنف الضحك.

"من فضلك يا إشيرو لا تضحك بصوت عال. الكل يحملق إليك."

"لكني لا أقدر أن أتمالك نفسي. فالوحش يبدو مصطنعاً جداً. مَن سيخاف من مثل هذا الشيء؟"

بمجرد أن جلسنا بالداخل وبدأ الفيلم، اكتشفتُ الغرض الحقيقي من معطف المطر. فبعد مرور عشر دقائق من الفيلم سمعنا موسيقى تنذر بالخطر ولاح على الشاشة كهف مظلم يدوِّم حوله الضباب. همس إشيرو: "هذا ممل. ممكن أن تنبهني عندما يحصل شيء مشوق؟" وبعدما قال ما قاله ألقى بمعطف

مكتبة الفكر الجديد

المطر فوق رأسه. ارتفع الزئير بعد لحظة وظهرتْ للعيان السحلية العملاقة من الكهف. كانت إحدى يديّ إشيرو متشبثة بذراعي، وعندما ألقيت نظرة عليه، كانت يده الثانية قابضة على المعطف في مكانه بإحكام شديد.

ما انفك حفيدي يغطي رأسه بالمعطف طوال الفيلم تقريباً. كان ذراعي يهتز في بعض الأحيان ويرتفع صوت قادماً من أسفل: "هل أصبح مشوقاً بعد؟" فاضطر حينئذ أن أصف هامساً ما يدور على الشاشة إلى أن تظهر ثغرة صغيرة في المعطف. لكن خلال دقائق وعند أقل إشارة إلى ظهور الوحش تنغلق الثغرة ويقول صوت: "هذا ممل. لا تنسَ أن تخبرني عندما يصبح مشوقاً."

مع ذلك كان إشيرو مشتعل الحماسة للفيلم حين عدنا إلى المنزل. واستمر يقول "أحلى فيلم شاهدتُه في حياتي". كان لا يزال يقص علينا روايته عن الفيلم أثناء تناول العشاء.

"هل أقول لكِ ما جرى بعدها يا خالة نوريكو؟ فالفيلم يزداد رعباً. أقول لكِ؟"

"أنا مرعوبة يا إشيرو، بالكاد أستطيع أن آكل،" قالت نوريكو.

"حذار، بل إنه سيصبح أكثر إفزاعاً. هل أقول لك المزيد؟"

"آه، لست متأكدة. لقد أصبتني بالفعل بالذعر."

لم أكن أنوي أن أثقل على مائدة العشاء بذكر الدكتور سايتو لكن لن يبدو طبيعياً ألا أذكر لقاءنا أثناء حكيي لأحداث اليوم. لذا قلتُ عندما توقف إشيرو هنيهة: "قابلتُ الدكتور سايتو في الترام بالصدفة. كان مسافراً إلى الشمال للقاء شخص ما."

عندما خرجتْ الكلمات من فمي، كفت ابنتاي عن الأكل ونظرتا إليّ وقد بدت عليهما الدهشة.

"لكننا لم نتطرق إلى مواضيع ذات شأن،" قلتُ ضاحكاً ضحكة خافتة. "حقاً، لقد تبادلنا المجاملات فحسب، هذا كل ما هنالك."

ظهر على ابنتيّ ما قام في نفسيهما من عدم الاقتناع لكنهما عادتا إلى تناول

مكتبة الفكر الجديد

الطعام ثانية. رمت نوريكو أختها الكبرى بنظرة تلاها صوت سيتسوكو: "أكان الدكتور سايتو بخير؟"

"بدا على ما يرام."

أكلنا في هدوء برهة. ربما راح إشيرو يتحدث عن الفيلم مجدداً. مهما يكن الأمر، قلت بعدها بقليل أثناء الوجبة:

"وقع حدث غريب. اتضح أن الدكتور سايتو قابل أحد تلاميذي السابقين، وهو كورودا في الواقع. البادي أن كورودا يشغل وظيفة في الكلية الجديدة."

رفعتُ ناظريّ عن صحني لأبصر ابنتيّ وقد عادتا إلى التوقف عن الأكل. كان من الواضح أنهما تبادلتا النظرات لتوهما. كانت هذه إحدى الحوادث التي جرت في الشهر الماضي وأوقعتْ في نفسي انطباعاً جلياً أنهما كانتا تناقشان موضوعات معينة خاصة بي.

حينما جلستُ أنا وابنتاي مرة أخرى إلى المائدة ليلتها كي نقرأ الجرائد والمجلات، أقلقتْ سكينتنا ضوضاء مكتومة مبهمة تتواتر من مكان ما بالمنزل. رفعتْ نوريكو عينيها وقد هالها الصوت إلا أن سيتسوكو أخبرتها:

"إنه إشيرو. هو يُحدث هذا الصوت عندما يجافيه النوم."

"مسكين يا إشيرو. أظنه لم يزل يحلم بالوحش. كان منتهى الأذى من أبي أن أخذه لرؤية مثل هذا الفيلم."

"هراء. لقد استمتع به."

"أعتقد أن أبي هو الذي أراد مشاهدته، " قالت نوريكو لأختها وعلى وجهها تكشيرة. "مسكين يا إشيرو، جُررتَ لمثل هذا الفيلم السيئ."

استدارت سيتسوكو إليّ بنظرة يتخللها الإحراج وتمتمتْ: "كان أبي في منتهى الطيبة أن اصطحب إشيرو."

"لكنه الآن لا يقوى على النوم،" قالت نوريكو. "سخف أن يأخذه لمشاهدة مثل هذا الفيلم. لا، ابقي أنت يا سيتسوكو، سأذهب أنا."

تتبعتْ عينا سيتسوكو أختها وهي تمرق من الحجرة ثم قالت:

مكتبة الفكر الجديد

"تجيد نوريكو التعامل مع الأطفال. سوف يشتاق إشيرو إليها بعدما نرجع إلى البيت."

"أجل، بالفعل."

"كانت دوماً ماهرة مع الأطفال. أتذكر يا أبي كيف اعتادت أن تلعب تلك الألعاب مع أطفال عائلة كينوشيتا الصغار؟"

"أجل، بالفعل،" قلت ضاحكاً. ثم أردفت: "أولاد كينوشيتا أكبر بكثير الآن من أن يرغبوا في المجيء إلى هنا."

"كانت دوماً ماهرة مع الأطفال،" كررتْ سيتسوكو. "أنا حزينة لرؤيتها تبلغ هذه السن بدون زواج."

"بالفعل. نشبت الحرب في توقيت أضرها."

تابعنا القراءة لحظات معدودة ثم أردفتْ سيتسوكو:

"يا لها من صدفة سعيدة أن تقابل الدكتور سايتو بالترام بعد ظهر اليوم. يبدو أنه رجل مهذب ورائع."

"هو كذلك بالفعل. والابن طبقاً لكل الروايات خليق بأن يكون ابناً لأبيه."

"حقاً." قالت سيتسوكو متفكرة.

عدنا إلى القراءة دقائق قليلة أخرى ثم كسرتْ ابنتي حاجز الصمت من جديد:

"أيعرف الدكتور سايتو السيد كورودا؟"

أجبتها دون أن أشيح بصري عن جريدتي: "معرفة سطحية. البادي أنهما تقابلا في مكان ما."

"تُرى كيف حال السيد كورودا هذه الأيام. أستطيع أن أذكر كيف اعتاد أن يأتي هنا لتتكلما معاً بالساعات في حجرة الاستقبال."

"لا أعلم عنه شيئاً هذه الأيام."

"معذرة، ألا تملي الحكمة يا ترى أن تزور يا أبي السيد كورودا عما قريب."

"أزوره؟"

مكتبة الفكر الجديد

"السيد كورودا، وربما بعض المعارف الآخرين ممن اقترنتَ بهم في الماضي."

"لست متأكداً من فهمي لما تقولينه يا سيتسوكو."

"لا تؤاخذني، عنيت ببساطة أن أقترح أنك قد ترغب في الحديث مع بعض المعارف من الماضي، أي قبل أن يفعل ذلك محققو عائلة سايتو. فنحن في النهاية لا نود أن يقع أي سوء تفاهم لا ضرورة له."

"نعم، أظن ذلك،" قلت ثم رجعتُ إلى الجريدة.

أعتقد أننا لم نبحث الموضوع أكثر من ذلك وما عادت سيتسوكو إلى طرحه للنقاش حتى انتهت زيارتها الشهر الماضي.

عندما استقللت الترام متجهاً إلى أراكاوا بالأمس، كانت أشعة شمس الخريف الساطعة تغمر العربة. لم أكن قد قمت برحلة إلى أراكاوا مؤخراً - منذ نهاية الحرب في الحقيقة. وإذ كنتُ أحملق من النافذة، لاحظتُ تغييرات عدة جدت على ما كان في الماضي مشهداً معهوداً. فبالمرور على توزاكا-شو وساكيماشي، وقعتْ عيناي على مبان سكنية مبنية بالطوب تلوح فوق المنازل الخشبية الضئيلة التي أتذكرها من قبل. اجتزت بعدها خلفيات مصانع ميناميماشي، فرأيت كيف بات العديد منها مهجوراً؛ تردد بصري بين أفنية المصانع الواحد بعد الآخر وقد تكدست بها بلا أي نظام أخشاب مكسورة وألواح قديمة من معدن متموج والكثير مما بدا مجرد ركام.

لكن بعد أن يقطع الترام النهر عند جسر شركة ت هـ ك، يتغير الجو تغيراً مباغتاً، إذ تجد نفسك مسافراً وسط حقول وأشجار، وما تلبث ضواحي أراكاوا أن تتراءى لك عند سفح تل عال منحدر ينتهي عنده خط الترام. يتحرك الترام ببطء متناه نازلاً التل ثم يكبح فرامله ليتوقف. وبينما تترجل من الترام وتخطو قدماك فوق تلك الأرصفة المكنوسة بعناية، سيغلب عليك إحساس واضح بأنك خلفت المدينة وراءك.

وأراكاوا كما سمعتُ نجت بالكامل من القصف؛ والحق أن المكان قد لاح

مكتبة الفكر الجديد

بالأمس على نفس الصورة التي كان عليها أبداً. أفضى بي مجاز قصير يصعد التل وتظلله أشجار الكرز المبهجة إلى منزل شيشو ماتسودا الذي ما مسته يد التغيير هو الآخر.

لم يكن منزل ماتسودا في مثل اتساع منزلي ولا في مثل إضاءته الباهرة غير أنه نموذج للمنزل المتين المحترم الموجود بأراكاوا. وتحيط بالمنزل مساحة من الأرض يطوقها سور من الألواح الخشبية على بعد مسافة معقولة من عقارات الجيران؛ وعند المدخل تقوم شجيرة من نبات الأزالية وعامود سميك انغرز في الأرض وكتب عليه اسم العائلة. جذبتُ الجرس فأجابتني امرأة لم أتعرفها لها من العمر حوالي الأربعين. أدخلتني حجرة الاستقبال وأزاحت ستارة الشرفة، فسمحت بتسلل أشعة الشمس وأتاحت لي إلقاء نظرة خاطفة على الحديقة. ثم مضت عني قائلة: "سيوافيك السيد ماتسودا خلال لحظة."

التقيت ماتسودا أول مرة عندما كنتُ أعيش بفيلا سيجي مورييما حيث ذهبتُ أنا والسلحفاة عقب ترك العمل بشركة تاكيدا. الواقع أن ماتسودا حين حضر يومها لأول مرة إلى الفيلا، كنتُ بالفعل أسكن هناك منذ نحو ستة أعوام. لم تنقطع السماء عن الإمطار طوال الصباح، فأمضت مجموعة منا الوقت في الشرب ولعب الورق بإحدى الغرف. وبعد الغداء بفترة وجيزة وتحديداً عندما كنا نفتح زجاجة ضخمة أخرى، أقبل صوت غريب ينادي من الفناء.

لم يعدم الصوت القوة أو الثقة. أطبق علينا السكون وتبادلنا النظرات والهلع يدب في قلوبنا. ذلك أن الحقيقة هي أن ذات الخاطرة قفزت إلى أذهاننا جميعاً – أن البوليس جاء ليؤنبنا رسمياً. كانت هذه بالتأكيد خاطرة تجانب المنطق كلية، فنحن لم نرتكب أية جريمة. وهَبْ أن أحدهم اعترض على أسلوب حياتنا أثناء محادثة في حانة، فأي واحد منا كان سيتمكن من أن ينبري بقوة للدفاع عنا. غير أن هذا الصوت الحازم المنادي: "أيوجد أحد بالمنزل؟" أخذنا على حين غرة فأماط اللثام عن إحساسنا بالذنب لشربنا حتى وقت متأخر من الليل ونومنا صباحاً وعيشتنا عيشة خالية من أي روتين في فيلا خربة.

مكتبة الفكر الجديد

مرت عدة لحظات آنذاك قبل أن يفتح الستارة أقرب الرفقاء إليها ليتجاذب كلمات قليلة مع المنادي، استدار بعدها قائلاً: "يوجد سيد يرغب في التحدث إليك يا أونو."

خرجتُ إلى الشرفة فألفيت شاباً نحيل القسمات في مثل عمري تقريباً يقف وسط الفناء المربع الواسع. وقد احتفظتُ بصورة مشرقة لتلك المرة الأولى التي أبصرتُ فيها ماتسودا. كان المطر قد توقف وانتهى المطاف بالشمس إلى الغروب. فحفت به بريكات المياه وأوراق الشجر المتساقطة من أشجار الأرز المطلة على الفيلا. كان بالغ الأناقة على أن يكون ضابط بوليس؛ إذ كان معطفه - ذو الياقة المقلوبة العالية - محوكاً بمهارة، وكانت قبعته تميل في اتجاه عينيه بشيء من التهكم. لما برزتُ أمامه، ألفيته يقلب بصره هنا وهناك مبدياً اهتمامه بالبيئة المحيطة به. تلونتْ طريقته هذه بشيء أوحى لي على الفور - في أول مرة أراه فيها - بطبعه المتغطرس. رآني فخف إلى الشرفة متسائلاً:

"السيد أونو؟"

سألتُه كيف أستطيع خدمته فاستدار ناظراً إلى الأرض مرة أخرى ثم كشف ثغره عن ابتسامة.

"مكان مثير للاهتمام. لا بد أنه كان مبنى مهيباً فيما مضى، مِلك أحد النبلاء."

"صحيح."

"دعني أعرفك بنفسي يا سيد أونو، أنا شيشو ماتسودا. نحن في الحقيقة نتراسل، فأنا أعمل بجمعية أوكادا-شينجن."

لم تعد جمعية أوكادا-شينجن تضطلع بأية نشاطات الآن - فهي واحدة من ضحايا عديدين للقوات الغازية - لكن يجوز أن تكون سمعتَ عنها أو على الأقل عن المعرض الذي كانت تقيمه كل سنة حتى دارت رحى الحرب. انصرمتْ فترة كان فيها معرض أوكادا-شينجن السبيل الأول بهذه المدينة كي يحظى الفنانون الناشئون في الرسم وتصميم الصور المطبوعة بالاستحسان

مكتبة الفكر الجديد

الشعبي. كان صيتها واسعاً بحق حتى إن معظم فناني المدينة البارزين كانوا في سنواتها الأخيرة يعرضون أعمالهم الحديثة هناك جنباً إلى جنب مع تلك المواهب الأحدث. وبخصوص نفس هذا المعرض كتبتْ لي جمعية أوكادا-شينجن قبل الظهيرة التي زارني فيها ماتسودا بأسابيع قليلة.

أبلغني ماتسودا: "لقد استرعى ردك يا سيد أونو فضولي قليلاً. من أجل ذلك فكرتُ أن أعرج عليك لأستوضح المسألة."

رشقتُه بنظرة باردة قائلاً: "أعتقد أني غطيت النقاط اللازمة كافة في الخطاب الذي حوى ردي. كنتم مع ذلك في منتهى الكرم أن عرضتم هذا الاقتراح."

بانت ابتسامة صغيرة حول عينيه وقال: "البادي لي يا سيد أونو أنك تهدر فرصة ثمينة لتعزيز شهرتك. لذا أخبرني من فضلك، عندما أصررتَ على مشيئتك ألا تتعامل معنا، أكان هذا رأيك الشخصي؟ أم ما قضى به معلمك؟"

"التمستُ بطبيعة الحال نصيحة معلمي، وأنا على ثقة تامة أن القرار الذي نقلتُه في خطابي هو القرار السديد. إنه لكرم منك أن تأتي إلى هنا إنما مع الأسف أنا الآن مشغول ولا أستطيع أن أطلب منك التفضل بالدخول. يوم سعيد، بعد إذنك."

"لحظة من فضلك يا سيد أونو." قال ماتسودا فيما خامرت ابتسامته سخرية أكبر. خطا خطوات معدودة متقدماً إلى الشرفة مباشرة وارتقى ببصره نحوي: "بصراحة أنا لست منزعجاً بخصوص المعرض. يوجد آخرون كثيرون ممن يستحقونه. لقد أتيت يا سيد أونو لرغبتي في مقابلتك."

"حقاً؟ هذا لطف منك."

"فعلاً. أردت أن أقول لك إني مبهور بما شاهدتُ من أعمالك، وعندي قناعة أنك تمتلك موهبة كبيرة."

"إنك في غاية الكرم. ما من شك أني أدين بالفضل لتفوق معلمي في التوجيه."

"ما في ذلك من شك. دعنا الآن يا سيد أونو نطرح موضوع المعرض جانباً. فلا بد أن تكون على إدراك كامل أني لا أعمل كاتباً لدى أوكادا-شينجن

مكتبة الفكر الجديد

فحسب. فأنا محب حقيقي للفن، وعندي اعتقاداتي وعواطفي. ولمّا أصادف من حين لآخر موهبة تثيرني بصدق، أشعر أني يجب أن يكون لديّ رد فعل حيالها. أنا أبغي بشدة أن أناقش أفكاراً محددة معك يا سيد أونو، أفكاراً ربما لم تخطر ببالك أبداً من قبل، لكني وبكل تواضع أقترح أنها ستفيد تطورك كفنان. على أني لن أعطلك الآن أكثر من هذا. اسمح لي على الأقل أن أترك بطاقتي."

أخرج بطاقته من محفظته ووضعها على حافة الشرفة ثم غادر المكان بانحناءة سريعة. إلا أنه استدار قبل أن يجتاز منتصف الفناء وخاطبني: "من فضلك يا سيد أونو ادرس طلبي ملياً. فغاية مرادي أن أناقش معك أفكاراً محددة، هذا كل ما في الأمر."

وقعتْ تلك الأحداث منذ حوالي ثلاثين عاماً، عندما كنا شباباً يحدونا الطموح بيد أن ماتسودا لاح بالأمس رجلاً مختلفاً تماماً. تقوض بنيان جسمه لِما ألم به من وعكة صحية، ووجهه الذي كان في يوم ما وسيماً متكبراً أمسى مشوهاً بفك سفلي بدا غير قادر على ضبط نفسه مع الفك العلوي. أعانته السيدة التي فتحتْ لي الباب على دخول الحجرة والجلوس. عندما اختلى ماتسودا بي، نظر إليّ قائلاً:

"الظاهر أنك بصحة سابغة. أما أنا، فكما ترى تدهورتُ كثيراً منذ لقائنا الأخير."

عبّرتُ عن تعاطفي وأخبرتُه أنه لا يبدو بهذا السوء على الإطلاق.

"لا تحاول خداعي يا أونو،" قال باسم الثغر. "أعلم بالضبط مدى ما سأؤول إليه من ضعف. يظهر أنه ليس باليد حيلة. ما عليّ سوى أن أنتظر لأرى ما إذا كان جسدي سيسترد عافيته أم سيتدهور. مع ذلك دعنا من هذه المواضيع الكئيبة. إنها لمفاجأة أن تزورني مجدداً. خلتُ أننا لم نفترق على وفاق."

"حقاً؟ لم أدرك أننا تشاجرنا."

"بالطبع لا. ولِم نتشاجر؟ أنا مسرور بحضورك لرؤيتي مرة أخرى. مرت ثلاثة أعوام منذ لقائنا الأخير."

مكتبة الفكر الجديد

"أعتقد ذلك. ما قصدتُ أن أتجنبك. فقد صدقتْ نيتي منذ فترة على أن أحضر وأزورك إنما أشغال الدنيا..."

"طبيعي. فعلى عاتقك تقع الكثير من المهام. يجب أن تغفر لي طبعاً تخلفي عن جنازة السيدة ميشيكو. كان في نيتي أن أرسل لك خطاباً لأعتذر فيه. الحقيقة هي أني لم أسمع بما جرى سوى بعدها ببضعة أيام، وصحتي وقتها كانت بالطبع..."

"طبعاً، طبعاً. أنا متأكد في الواقع أنها كانت ستخجل من المراسم الضخمة المتفاخرة. على أية حال كانت ستعلم أنك تفكر فيها."

"يحضرني الآن يوم اجتمعتَ إلى السيدة ميشيكو." ضحك وأومأ لنفسه: "كنتُ يومها طائراً من الفرح من أجلك يا أونو."

"أجل،" قلت ضاحكاً أنا الآخر. "كنتَ وسيطنا بكل ما في الكلمة من معنى، فعمك هذا لم يكن على مستوى المهمة بتاتاً."

"صحيح،" أيدني مبتسماً، "أنت تجتر ذكريات الماضي كلها. كان يتعثر في أذيال الارتباك ولم يكن في استطاعته قول أي شيء أو عمل أي شيء دون أن يحمر خجلاً. هل تذكر اجتماع الزواج ذاك بفندق ياناجيماشي."

انطلقتْ ضحكاتنا وقلت:

"اضطلعتَ بالكثير نيابة عنا. أشك أن الزواج كان سيتم بدونك. لقد دانت ميشيكو لك دائماً بالفضل."

"إنه حادث مفجع،" قال ماتسودا مطلقاً من صدره تنهيدة. "سمعتُ بعد أن أوشكتْ الحرب على الانتهاء أنها كانت غارة غير معهودة."

"بالفعل. لم يصب آخرون. كان كما قلتَ حادثاً مفجعاً."

"آسف على استرجاعي لتلك الذكريات المؤلمة."

"مطلقاً. إن تذكر ميشيكو معك يبعث في قلبي قدراً من العزاء. فأنا أتذكرها كما كانت في الأيام الخالية."

"بالفعل."

مكتبة الفكر الجديد

أحضرتْ السيدة الشاي. وإذ كانت تضع الصينية، قدمني ماتسودا إليها: "آنسة سوزوكي، هذا زميل أعرفه منذ زمن، كانت تربطنا علاقة حميمة ذات يوم."

استدارت نحوي وانحنت.

"الآنسة سوزوكي تنهض بمهمتين: مدبرة منزلي وممرضتي. وهي مسؤولة عن بقائي على قيد الحياة حتى الآن."

فرت ضحكة من الآنسة سوزوكي وعاودها الانحناء ثم خرجتْ من الحجرة.

جلسنا مطرقين لحظات معدودة بعد خروجها. كان كلانا يتفرس بالخارج فيما بين الستارتين اللتين فتحتهما الآنسة سوزوكي. رأيت من مكاني زوجاً من الصنادل القش متروكاً بالشرفة تحت أشعة الشمس لكني لم أستطع أن أرى جزءاً كبيراً من الحديقة نفسها. راودني الإغراء لحظة أن أقف على قدميّ وأخرج إلى الشرفة لكن مع إدراكي أن ماتسودا سيود مرافقتي وسيشق عليه ذلك، لم أبرح مكاني سائلاً نفسي إن كانت الحديقة ما تزال على حالها. وحسبما أتذكرها كانت حديقة ماتسودا، على صغرها، منظمة بذوق رفيع: أرضية مغطاة بالطحالب الممهدة وقليل من الأشجار الصغيرة الجميلة وبركة عميقة. وأثناء جلوسي مع ماتسودا تناهى إلى أذني أحياناً صوت طرطشة مياه. كنتُ على وشك أن أسأله إن كان ما زال يحتفظ بأسماك الشبوط عندما باح إليّ:

"لم أبالغ حين قلت إن الآنسة سوزوكي مسؤولة عن حياتي. فقد لعبتْ دوراً غاية في الأهمية في أكثر من موقف. تعرف يا أونو؟ تمكنتُ برغم كل شيء من الاحتفاظ ببعض المدخرات والأملاك، وعليه قدرتُ أن أوظفها، وهو أمر ليس متاحاً للبعض. أنا لست فاحش الثراء لكن لو تنامى إلى علمي أن زميلاً سابقاً في أزمة، سوف أبذل كل وسعي لمعاونته. فأنا في النهاية لم أنجب أطفالاً ليرثوا أموالي."

ندّت عني ضحكة: "نفس ماتسودا القديم. صريح جداً. هذا كرم منك لكن ليس هذا ما جاء بي إلى هنا. أنا كذلك استطعت الاحتفاظ ببعض الأملاك."

مكتبة الفكر الجديد

"آه، يسرني سماع ذلك. أتذكر ناكان، مدير كلية مينامي الإمبراطورية؟ أراه من آن لآخر، وحاله هذه الأيام أحسن من الشحاذين بقليل. يحاول من غير ريب الحفاظ على المظاهر لكنه يعيش بالكامل على ما يقترض من أموال."

"يا للفظاعة."

"وقعتْ أحداث فاحشة الظلم، مع ذلك استطاع كلانا الاحتفاظ بأملاكه. وأنت يا أونو عندك سبب إضافي ليشعرك بالامتنان، فالبادي أنك تنعم بصحة موفورة."

"بالفعل، لديّ الكثير مما يدعو إلى الامتنان."

ترامى مرة أخرى صوت طرطشة مياه من البركة بالخارج، فجرى ببالي أن طيوراً ربما تستحم عند حافة البركة.

علقتُ قائلاً: "إن صوت حديقتك مختلف تماماً عن صوت حديقتي. فيكفي مجرد سماعي لها لأؤكد أننا خارج المدينة."

"صحيح؟ أتذكر بالكاد أصوات المدينة. هذا هو نطاق عالمي منذ سنين قليلة، هذا المنزل وتلك الحديقة."

"الحق أني حضرت بالفعل طالباً لمساعدتك لكن ليس كما ألمحتَ من قبل."

"أرى أنك اعتبرتها إهانة،" قال وهو يهز رأسه. "مثلما كان يحدث في الماضي."

علا ضحكنا ثم قال: "إذاً كيف أستطيع خدمتك؟"

"في الحقيقة ابنتي الصغرى نوريكو منهمكة الآن في محادثات زواج."

"حقاً؟"

"وبصراحة أنا مشغول البال عليها قليلاً. فهي الآن في السادسة والعشرين، وقد صعبتْ الحرب حياتها وإلا لكانت الآن متزوجة بلا شك."

"أعتقد أني أتذكر الآنسة نوريكو لكني أذكرها وهي مجرد بنت صغيرة.

مكتبة الفكر الجديد

بلغتْ السادسة والعشرين بهذه السرعة. كما قلتَ لقد صعبتْ الحرب الحياة حتى أمام أصحاب الفرص."

"كانت على وشك الزواج العام الماضي إلا أن المحادثات أخفقت في آخر لحظة، وبما أننا بصدد هذا الموضوع، هل فاتحك شخص في سيرة نوريكو العام الماضي؟ لا أقصد أن أتجاوز حدودي لكن..."

"لستَ متجاوزاً للحدود بالمرة، أنا أتفهم موقفك كلية. لكن لا. ما تحدثتُ قط مع أحد. كنتُ مريضاً للغاية في ذلك الوقت من العام الماضي، ولو كان أحد المخبرين قد ظهر، كانت الآنسة سوزوكي ستصرفه بالقطع."

أومأتُ برأسي ثم قلت: "من المحتمل فحسب أن يعرج أحدهم عليك هذه السنة."

"حقاً؟ طيب، لن يسعني إلا قول كل الخير عنك. فقد كنا رغم كل شيء زملاء مقربين في يوم من الأيام."

"أنا ممنون لك بشدة."

"إنه لطف منك أن تزورني. لكن بالنسبة لزواج الآنسة نوريكو، ما كان من الضروري تكبد تلك المشاق. لعلنا لم نفترق على وفاق لكن لا ينبغي لمثل هذه الأمور أن تحول بيننا. فمن الطبيعي أن أقول الخير ولا شيء غير الخير عنك."

"ما ساورني الشك في ذلك، كنتَ على الدوام رجلاً شهماً."

"ومع ذلك إذا تسبب هذا في لم شملنا ثانية، فأنا سعيد."

بذل ماتسودا مجهوداً حتى مد يديه وبدأ يعيد ملء أقداح الشاي. ثم قال أخيراً: "معذرة يا أونو، لكن الظاهر أنك لا زلت قلقاً من أمر ما."

"هل يبدو عليّ؟"

"اعذر فظاظتي في التعبير لكن الحقيقة هي أن الآنسة سوزوكي سرعان ما ستدخل لتنبهني إلى ضرورة أن آوي إلى فراشي مجدداً. يؤسفني أني غير قادر على استضافة الضيوف لمدد طويلة، ولا حتى الزملاء القدامى."

"بالطبع، أنا في غاية الأسف. إنها منتهى قلة الذوق مني."

مكتبة الفكر الجديد

"لا تكن سخيفاً يا أونو. ما زال بإمكانك البقاء برهة. قلتُ ذلك لأنك إن حضرتَ هنا من أجل إثارة أمر محدد، فيحسن بك أن تعجل بطرحه." وفجأة انفجر في الضحك ملء فيه: "تبدو بحق مبغوتاً من قلة ذوقي."

"مطلقاً. إنها منتهى قلة الذوق مني. لكن في الحقيقة لم آت سوى لأتحدث عن زواج ابنتي."

"مفهوم."

ثم استطردتُ: "على أني أظن أنه كان في نيتي ذكر بعض الاحتمالات. فالمفاوضات الحالية قد تكون بالغة الدقة، وسوف أدين لك بجزيل الفضل لو أجبتَ بكياسة على أية أسئلة قد تصادفك."

"بالطبع." قال وهو يرنو إليّ في حين شابت عينيه مسحة حيرة. "بكل لياقة."

"بالأخص، يعني، فيما يتعلق بالماضي."

"لكني أخبرتك من قبل،" رد ماتسودا وقد استحال صوته أقل وداً. "ليس لدي سوي الخير لأرويه عنك في الماضي."

"بالتأكيد."

ظل ماتسودا ينظر إليّ هنيهة ثم تنهد ملء صدره.

"لم أبرح هذا المنزل إلا لماماً خلال السنوات الثلاث الأخيرة بيد أني ما زلت أرهف السمع لما يجري في بلدك هذا وأدرك أن ثمة أناساً الآن يجرمون أمثالك وأمثالي لذات الأشياء التي افتخرنا بإنجازها فيما مضى. وأخالك مهموماً لهذا السبب يا أونو. تخالني قد أمتدحك على أمور لعله من الأفضل نسيانها."

"أبداً، على الإطلاق،" قلت متعجلاً. "نحن لدينا الكثير مما يستحق الفخر. كل ما هنالك أنه بالنسبة لمحادثات الزواج، على المرء تقدير حساسية الموقف. لكنك أرحت قلبي، أعرف أنك ستحسن الحكم على الأمور كما هو دأبك."

"سأبذل قصارى جهدي، لكن يا أونو هناك أمور يتعين على كلينا الافتخار بها. لا تلق بالاً لما يقوله كل الناس اليوم. فعما قريب - بعد سنوات معدودة -

مكتبة الفكر الجديد

سيتمكن أمثالنا من أن يرتقوا بهاماتهم عالياً فخراً بما حاولنا صنعه. وكل أملي أن أعيش لأرى ذلك اليوم، فأنا مناي أن أشهد تبرئة مجهودات حياتي."

"لا مراء في ذلك. أنا أشاركك نفس الأحاسيس لكن بالنسبة لمفاوضات الزواج..."

"طبعاً،" قاطعني ماتسودا. "لن آلو جهداً كي أتوخى الكياسة."

انحنيت. خيم السكون لفترة وجيزة ثم سألني:

"لكن أخبرني يا أونو إذا كنتَ مهموماً بالماضي، أظنك تزور قلة ممن عرفتهم في تلك الأيام؟"

"في الواقع أنت أول من أزور، ليست لدي فكرة الآن عن مكان العديد من أصدقائنا القدامى."

"ماذا عن كورودا؟ سمعتُ أنه يعيش في مكان ما بالمدينة."

"حقاً؟ لم أتصل به منذ... منذ الحرب."

"إذا كنا قلقين على مستقبل الآنسة نوريكو، ربما يستحسن أن تبحث عنه على ما قد يكون في ذلك من مشقة."

"بالقطع. كل ما هنالك أني لا أدري أين هو."

"طيب. أرجو أن يتوه محققهم أيضاً عن مكانه غير أن هؤلاء المحققين أحياناً ما يكونون على قدر كبير من سعة الحيلة."

"بالفعل."

"تبدو شاحباً كالجثة يا أونو. وقد بدوت صحيحاً معافى أول ما وصلتَ هنا. هذا ما يلم بالمرء عندما يشارك رجلاً مريضاً الغرفة."

ضحكتُ: "أبداً. المسألة أن الأولاد يمكن أن يصيبوا الواحد بهم ما بعده هم."

تنهد ماتسودا من جديد: "يخبرني الناس أحياناً أني ما عشت الحياة لأني لم أتزوج قط أو أنجب أطفالاً لكني حين أنظر حولي، يتراءى لي أن الأولاد لا يجلبون إلا القلق."

مكتبة الفكر الجديد

"هذا ليس بعيداً عن الحقيقة."

"مع هذا كان سيريحني أن أنجب أطفالاً ليرثوا أملاكي."

"أجل."

أقبلتْ الآنسة سوزوكي بعد دقائق قليلة كما توقع ماتسودا وقالت له شيئاً. سرى الابتسام في فم ماتسودا وقال بلهجة مستسلمة:

"حضرتْ ممرضتي لتأخذني. طبعاً البيت بيتك، أهلا بك لتبقى هنا كما يحلو لك. بعد إذنك يا أونو."

كنتُ أنتظر بعدها عند آخر محطة بالترام، الترام الذي سيصعد التل المنحدر ليرجع إلى المدينة. نزلتْ بقلبي السكينة عندما استدعيت يقين ماتسودا من أنه ليس لديه "سوى كل الخير ليرويه عن الماضي". كان من الممكن بالقطع أن أكون على ثقة من رأيه دون أن أزوره غير أنه من المفيد دوماً أن يعيد المرء ترسيخ صلاته بزملائه القدامى. وفي المجمل كانت رحلة الأمس إلى أراكاوا تستحق بلا شك ما بُذل فيها من عناء.

مكتبة الفكر الجديد

إبريل 1949

ما زلت ألفي نفسي أسلك هذا الطريق ثلاث مرات أو أربعاً مساء كل أسبوع، أنزل باتجاه النهر والجسر الخشبي الصغير الذي لا يزال معروفاً لدى بعض مَن عاشوا هنا قبل الحرب بـ "جسر التردد". أطلقنا عليه ذلك الاسم لأنه حتى وقت قريب كان عبوره يفضي بك إلى حي المتعة الخاص بنا، وحسبما ذهبتْ الأقاويل كنتَ ترى مَن اضطربتْ ضمائرهم من الرجال يحومون حول المكان وقد وقعوا في شرك التردد بين السعي إلى قضاء أمسياتهم في اللهو أو العودة لزوجاتهم. لكني إن شوهدت أحياناً أعلى ذلك الجسر، متكئاً على الحاجز تتوزعني الأفكار، فلا يعني هذا أن تردداً يلم بي. فالأمر لا يعدو أني أستمتع بالوقوف هناك وقت الغروب، أعاين الأجواء المحيطة وما طرأ عليها من تغييرات.

أطلت مجموعات من المنازل الجديدة قرب سفح التل الذي هبطتُ منه للتو. وعلى مسافة أبعد بحذاء ضفة النهر – حيث لم يكن هناك سوى الحشائش والطين منذ عام مضى – تقوم إحدى شركات المدينة ببناء وحدات سكنية لمَن سيفد في المستقبل من الموظفين إلا أنها لا تزال في حاجة إلى وقت طويل حتى تكتمل. وعندما ينخفض قرص الشمس على النهر، قد يذهب المرء إلى أن يحسبها بالخطأ أنقاض القصف الموجودة حتى الآن في بعض أجزاء المدينة.

على أن مثل هذه الأنقاض تزداد ندرة بمرور الأسابيع؛ فربما كان على المرء حقاً أن يمضي إلى أقصى الشمال حتى منطقة واكاميا أو إلى تلك المنطقة التي

مكتبة الفكر الجديد

اندكت في القصف ما بين هونشو وكازوجاماشي ليصادف الآن تلك الأنقاض بأعداد كبيرة. غير أني واثق أن أنقاض القصف كانت منذ سنة فقط لا تزال مشهداً معهوداً في أرجاء المدينة كافة. فمثلاً في مثل هذا الوقت من العام الماضي كانت المنطقة البادئة من جسر التردد حيث يقع حي المتعة ما تزال صحراء من الأنقاض، بيد أن العمل يتقدم فيها الآن كل يوم باطراد. وخارج حانة السيدة كاواكامي - حيث تزاحمتْ ذات يوم حشود طالبي المتعة الحشد وراء الآخر - يتم تشييد طريق واسع من الإسمنت، وعلى جنبيه تُرمى أسس صفوف من أبنية المكاتب الضخمة.

وفي إحدى الأمسيات منذ أمد قصير أبلغتني السيدة كاواكامي بعرض الشركة لشراء محلها مقابل مبلغ سخي، فسلّمتُ منذ حينها أنها ستضطر عاجلاً أو آجلاً إلى إغلاق محلها والانتقال إلى مكان آخر.

أسرت إليّ: "لا أدري ماذا أفعل، سيشق عليّ الرحيل عن المكان بعد كل هذه الفترة. لقد جافاني النوم طوال الليلة الماضية ولم أنقطع عن التفكير. لكن يا معلم، حين أمعنتُ النظر في المسألة، قلتُ لنفسي، طيب، الآن مع رحيل السيد شينتارو، أضحى المعلم هو الزبون الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه. لا أعرف حقاً ماذا أصنع."

أنا بحق زبونها الحقيقي الوحيد هذه الأيام؛ فشينتارو لم يرنا وجهه بحانة السيدة كاواكامي منذ تلك الحادثة البسيطة التي وقعتْ في الشتاء الماضي - يفتقر إلى الشجاعة بلا شك لمواجهتي. وأخال ذلك جلب سوء الحظ إلى السيدة كاواكامي التي ما كان لها دخل في الموضوع.

كان ذلك في إحدى أمسيات الشتاء الماضي - كنا نشرب معاً كالمعتاد وقتئذ - عندما ذكر لي شينتارو لأول مرة أنه يطمح إلى الفوز بوظيفة مدرس بإحدى المدارس الثانوية الجديدة، وأخذ يبوح لي أنه ملأ بالفعل جملة من الطلبات لمثل هذه الوظائف. انقضت الآن بالطبع عدة سنوات منذ كان شينتارو تلميذي، ولا يوجد ما يدعوه ألا يباشر مثل تلك المحاولات بدون استشارتي؛

مكتبة الفكر الجديد

فقد كنتُ أعي تمام الوعي بوجود آخرين الآن - رئيسه في العمل مثلاً - ممن يحتلون مكانة أنسب مني بكثير ليقوموا بمهمة الضامن في تلك الأمور. مع ذلك أعترف أن اندهاشاً قد داخلني لأنه ما ائتمنني مطلقاً على هذه الطلبات. وهكذا عندما ظهر شينتارو عند منزلي في ذلك اليوم الشتوي بعد بداية العام الجديد بقليل وألفيته واقفاً يقهقه بعصبية في المدخل ويقول: "إنها منتهى الوقاحة مني أن آتي على هذا النحو،" شعرتُ بإحساس يقترب من الراحة وكأن الأمور قد عادت إلى مجاريها المعهودة.

أشعلتُ كانوناً بحجرة الاستقبال ثم جلس كلانا إلى جانبه ندفئ أيدينا. لاحظتُ أن بعض ندف الثلوج تذوب على معطف شينتارو الذي كان لا يزال يرتديه، فسألتُه:

"هل راح الثلج يتساقط مجدداً؟"

"القليل منه فقط يا معلم، ليس كما كان صباحاً."

"آسف على شدة برودة المكان، فهي للأسف أبرد حجرة بالمنزل."

"مطلقاً يا معلم، فحجرات بيتي أشد برودة بمراحل." ابتسم ثغره بسعادة وأخذ يحك يديه معاً فوق الفحم ثم قال: "إنها طيبة منك أن تستقبلني هكذا. كنتَ يا معلم أشد ما تكون عطفاً عليّ طوال السنين. أنا لا أقدر أن أحصي ما فعلتَه من أجلي."

"العفو يا شينتارو. أحياناً ما أحسب في الحقيقة أني تعاملت معك بشيء من الإهمال في الماضي، لذا لو هناك وسيلة ما يمكنني أن أعوضك بها عن إهمالي هذا - حتى في تلك المرحلة المتأخرة - يسعدني أن تعلمني بها."

ضحك شينتارو وأخذ يحك يديه: "حقاً يا معلم، إن كلامك غير معقول. لا أقدر أبداً أن أحصي ما فعلتَه من أجلي."

راقبتُه لحظة ثم تساءلتُ: "إذاً قل لي يا شينتارو، كيف أستطيع خدمتك؟"

رفع عينين نال منهما الاستغراب ثم بدرتْ منه ضحكة أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

"معذرة يا معلم. كنتُ قد بدأت أحس براحة بالغة هنا حتى إني كنتُ سأنسى تماماً الغرض من قدومي لإزعاجك هكذا."

كان عظيم التفاؤل حسبما قال لي بخصوص طلبه المقدّم إلى مدرسة هيجاشيماشي الثانوية؛ فقد جعلتْه مصادر موثوق بها يعتقد أن طلبه موضع استحسان جم.

"رغم ذلك يا معلم، يبدو أن هناك نقطة أو نقطتين صغيرتين دون غيرهما ما تزال اللجنة تشعر حيالهما بالقليل من عدم الرضا."

"ياه؟"

"بالفعل يا معلم. لعلي يجب أن أصارحك بالمسألة: النقاط الصغيرة التي أشير إليها تخص الماضي."

"الماضي؟"

"أجل يا معلم." انطلقتْ في تلك اللحظة ضحكة عصبية من شينتارو الذي أردف جاهداً: "ينبغي أن تعرف يا معلم أن احترامي لك لا يماثله أي احترام. فقد تعلمتُ منك الكثير وسأظل فخوراً برابطتنا."

أومأتُ برأسي وتريثتُ حتى يمضي هو في حديثه.

"الحقيقة يا معلم أني سأكون في غاية الامتنان لو كتبتَ بنفسك خطاباً للجنة لتؤكد فحسب على بعض الإفادات التي صرحتُ بها."

"وما نوعية هذه الإفادات يا شينتارو؟"

عاودتْ شينتارو القهقهة ثم مد يديه فوق المدفأة مجدداً.

"الهدف هو مجرد إرضاء اللجنة يا معلم، ليس أكثر ولا أقل. قد تتذكر يا معلم كيف اختلفنا في الرأي ذات مرة بخصوص عملي إبان الأزمة الصينية."

"الأزمة الصينية؟ للأسف لا أستحضر أننا تشاجرنا يا شينتارو."

"لا تؤاخذني يا معلم، لعلي بالغتُ. لم يصل الأمر قط إلى الشجار الصريح. لكني بالفعل تحامقت وعبّرت عن اختلافي في الرأي، بمعنى أني عارضت اقتراحاتك بخصوص عملي."

مكتبة الفكر الجديد

"معذرة يا شينتارو، لقد غاب عن بالي قصدك."

"لا شك لديّ أن مثل هذا الأمر التافه لن يعلق في عقل المعلم. لكن الحقيقة هي أن هذا الشأن يمثل أهمية كبرى بالنسبة إليّ في هذه المرحلة الحاسمة. قد تنتعش ذاكرتك إن ذكّرتُك بالحفلة التي أقمناها ليلتها حين احتفلنا بخطبة السيد أوجاوا. حدث هذا ليلتئذ - أعتقد أننا كنا في فندق هامابارا - لعلي أسرفت قليلاً في الشراب وكنتُ من الوقاحة أن عبّرت لك عن آرائي."

"أذكر تلك الليلة بصورة مبهمة، لا أستطيع أن أقول إن ذاكرتي واضحة بشأنها. ومع ذلك يا شينتارو ما دخل اختلاف بسيط في الآراء مثل هذا بأي شيء يجرى الآن؟"

"اعذرني يا معلم، لكن الحقيقة هي أن الموضوع قد اكتسب أهمية ما. فاللجنة ملزمَة بالاطمئنان إلى بعض المسائل. فبرغم كل شيء لا بد من إرضاء السلطات الأمريكية...." خفت صوت شينتارو بعصبية ثم تابع: "أتوسل إليك يا معلم أن تحاول تذكر ذاك الخلاف البسيط. فبرغم إحساسي بعرفان الجميل في الماضي - العرفان الذي ما زال قائماً حتى الآن لغزارة ما تعلمتُه تحت إشرافك - لم أكن في الواقع دائم الاتفاق معك في الرأي. الحق أني قد لا أبالغ حين أصرح أن تحفظات قوية راودتني على مسلك مَدرستنا وقتها. ربما تذكر مثلاً أنه برغم اتباعي لتعليماتك في النهاية بخصوص ملصقات الأزمة الصينية، خامرتني فيها الشكوك وبالفعل ذهبتُ إلى حد إطلاعك على آرائي."

"ملصقات الأزمة الصينية،" حدّثتُ نفسي مفكراً. "أجل، أذكر الآن ملصقاتك. كان وقتاً حاسماً بالنسبة إلى الأمة، وقتاً وجب علينا فيه أن نحجم عن التردد ونقرر ما نريده. أذكر أنك أحسنت البلاء وكنا جميعاً فخورين بعملك."

"لكنك ستذكر أن شكوكاً جادة تملكتني حول ما أردتَ مني القيام به. ولو ستذكر، صارحتُك من غير تحفظ بمعارضتي في ذلك المساء بفندق هامابارا. معذرة يا معلم لإزعاجك بمثل هذا الموضوع التافه."

أظنني أطرقت بضع لحظات. ولا بد أني وقفت في هذه اللحظة تقريباً لأني

مكتبة الفكر الجديد

لمّا تكلمت بعدها، أذكر أني كنت أقف قبالته على الجانب الآخر من الحجرة عند ستائر الشرفة.

قلتُ في آخر الأمر: "تريد مني أن أكتب خطاباً للجنتك ينفي صلتك بتأثيري. هذا ما يعادله طلبك."

"لا شيء من هذا القبيل يا معلم، لقد أسأتَ فهمي. أنا فخور أبداً بانتساب اسمي إلى اسمك. المسألة ببساطة هي أنه فيما يتعلق بمسألة حملة الملصقات الصينية، لو اطمأنت اللجنة فحسب إلى أن..."

خفت صوته مرة أخرى. أزحت الستارة عن ثغرة صغيرة فهَب هواء بارد على الحجرة لكني لسبب ما لم آبه له. ومن خلال الثغرة حملقتُ عبر الشرفة إلى الحديقة. كان الثلج يتساقط في ندف تنساب في بطء.

" لِمَ لا تواجه الماضي ببساطة يا شينتارو؟ لقد نلتَ فضلاً كبيراً وقتها نتيجة ملصقك الخاص بالحملة، فزتَ بفضل عظيم واستحسان أي استحسان. قد يكون للعالم الآن رأي مخالف في عملك لكن لا حاجة بك إلى الكذب."

"فعلاً يا معلم. أوافقك. لكن رجوعاً إلى موضوعنا، سأكون ممنوناً للغاية إذا كتبتَ للجنة فيما يتعلق بملصقات الأزمة الصينية، ومعي هنا في الواقع اسم رئيس اللجنة وعنوانه."

"من فضلك يا شينتارو، أصغ إليّ."

"يا معلم، مع كل احترامي، أنا في غاية الشكر على الدوام لنصيحتك وتعليمك لكني في هذه اللحظة رجل في غمرة مسيرته المهنية. خير أن يفكر المرء ويتدبر عندما يتقاعد لكن الواقع هو أني أعيش في عالم مشحون ولا بد أن أضطلع بأمر أو اثنين لو كنتُ سأحصل على هذه الوظيفة التي هي في كل الاعتبارات الأخرى من نصيبي بالفعل. أتوسل إليك يا معلم، تفهم موقفي أرجوك."

لم أحر نطقاً إنما رحت أرنو إلى ما تساقط على حديقتي من ثلج في الخارج. ومن خلفي التقطتُ صوت شينتارو وهو يقف على قدميه.

مكتبة الفكر الجديد

"ها هو الاسم والعنوان يا معلم. سأتركهما هنا إذا سمحتَ لي. أرجوك أولِ الأمر التفكير الوافي عندما يسنح وقتك."

أمسكتُ عن الكلام وهلة في حين انتظر هو على ما أخال ليرى فيما إذا كنتُ سأستدير واسمح له بالرحيل بشيء من الكرامة. أخذتُ أتفرس في حديقتي: برغم استمرار سقوط الثلج، استقر بصورة طفيفة على الشجيرات والأغصان فقط. وبينما كنتُ أراقب المشهد، هزت نسمة غصناً من أغصان شجرة القيقب نافضة عنها معظم الثلج. كانت المشكاة الحجرية بخلفية الحديقة هي الوحيدة التي ارتدت قلنسوة سميكة من الثلج.

سمعتُ شينتارو يستأذن مغادراً الحجرة.

قد يبدو الأمر يومها كما لو كنتُ أقسو على شينتارو بلا داع. لكن لو وضع المرء نصب عينيه ما حدث في الأسابيع التي سبقتْ زيارته مباشرة، سيغدو مفهوماً من غير ريب لِم شعرتُ بعدم التعاطف مع مساعيه إلى التهرب من مسؤولياته. فقد أتت زيارة شينتارو في الواقع عقب عدة أيام من اللقاء المشترك الخاص بزواج نوريكو.

تقدمتْ بنجاح كاف طوال الخريف الفائت مفاوضات زواج نوريكو المعتزَم من تارو سايتو؛ إذ تم تبادل الصور في أكتوبر وتلقينا لاحقاً رسالة من السيد كيو، وسيطنا، بأن الشاب شديد التوق للقاء نوريكو. تظاهرتْ نوريكو طبعاً بأنها تفكر ملياً في المسألة غير أنه بحلول تلك المرحلة صار من الواضح أن ابنتي - وقد بلغتْ بالفعل السادسة والعشرين - لا تستطيع تجاهل فرصة مثل تارو سايتو باستخفاف.

لذلك أعلمتُ السيد كيو بموافقتنا على اللقاء المشترك، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على يوم في نوفمبر بفندق «متنزه كازوجا». وقد توافقني الرأي على أن فندق «متنزه كازوجا» يخالطه هذه الأيام جو سوقي، وعليه تولاني شيء من عدم الرضا عن الاختيار. غير أن السيد كيو أكد لي أنه سيتم حجز غرفة خاصة

مكتبة الفكر الجديد

ومضى يوحي بأن آل سايتو مغرمون بالطعام هناك، فأبديت موافقتي أخيراً وإن جاءت خالية من الحماس.

وقد بيَّن السيد كيو أيضاً أن اللقاء يبدو وكأنه يرجح كفة أسرة العريس المرتقب - فقد اعتزم أخوه الأصغر الحضور، هذا فضلاً عن والديه. لذا نوه بأنه سيكون من المناسب تماماً أن نصطحب قريباً أو صديقاً حميماً لنشد من أزر نوريكو. لكن بالطبع بما أن سيتسوكو تعيش بعيداً جداً، لم يكن هناك مَن يمكننا دعوته بصورة لائقة لحضور هذه المناسبة. ومن الجائز أن شعورنا بأن وضعنا في اللقاء ليس على ما يرام علاوة على عدم ارتياحنا إلى المكان تسببا في ازدياد توتر نوريكو تجاه المقابلة عما قد تكون عليه لو اختلفتْ الظروف. على أية حال ألفيت الأسابيع المفضية إلى اللقاء أسابيع عصيبة.

كثيراً ما كانت تعود إلى المنزل من مكتبها وتبدي من فورها تعليقاً مثل: "ماذا كنتَ تصنع طيلة النهار يا أبي؟ أحسبك كنتَ تتجول فقط بلا هدف في المنزل كما هي عادتك." وبغض النظر عن "التجول بلا هدف"، انشغلتُ في الواقع بمحاولاتي لضمان نتيجة مرضية لمفاوضات الزواج لكن لأني اعتقدت وقتها أنه من المهم ألا أقلقها بتفاصيل سير الأمور، ما كنتُ أنبس سوى بعبارات مبهمة عن يومي، فأعطيتها الفرصة لتستمر في تلميحاتها. وعندما أستعيد ما حدث متدبراً إياه، أفطن إلى أن عدم مناقشتنا لأمور معينة بصراحة ربما فاقم من توتر نوريكو، وربما حال دون مفاتحة أكثر صراحة من جانبي بدل العديد من المحادثات المزعجة التي دارت بيننا طيلة تلك الفترة.

أستدعي مثلاً بعد ظهيرة أحد الأيام حين وصلتْ نوريكو إلى البيت وأنا أقلم بعض شجيرات الحديقة. ألقت عليّ من الشرفة تحية مهذبة كل التهذيب قبل أن تختفي مجدداً في المنزل. بعدها بدقائق قليلة كنتُ أجلس في الشرفة، أتطلع إلى الحديقة لأقيّم ما خلفه عملي من أثر. ظهرتْ نوريكو ببعض الشاي بعد أن أبدلتْ ثيابها بالكيمونو. وضعتْ الصينية بيننا واتخذتْ مجلسها. أذكر أن تلك الظهيرة كانت واحدة من آخر تلك الظهائر الرائعة التي مرت علينا في

مكتبة الفكر الجديد

خريف العام المنصرم. كان ثمة ضوء رقيق يقع على أوراق النباتات. تتبعتْ نوريكو عيني المحدقة وقالت:

"لِم قلمتَ الخيزران هكذا يا أبي؟ تلوح لي الآن غير متوازنة."

"غير متوازنة؟ أتعتقدين هذا؟ أظنها متوازنة بما يكفي، فعليك أن تضعي في الاعتبار الموضع الذي تغلب فيه البراعم الصغيرة."

"يميل أبي إلى الإكثار من العبث. أظنك ستتلف تلك الشجيرة أيضاً."

"أتلف تلك الشجيرة أيضاً؟" قلتُ ملتفتاً إلى ابنتي. "ماذا تقصدين؟ أتزعمين أني أتلفت شجيرات أخرى؟"

"لم تستعد الأزاليات شكلها السابق قط. هذا ما يحدث لمّا يتوافر عند أبي وقت طويل دون عمل أي شيء، ينتهي به الحال إلى العبث فيما لا يحتاج."

"معذرة يا نوريكو، لا أفهم جيداً ما تعنينه، أتقولين إن الأزاليات غير متوازنة أيضاً؟"

تطلعتْ نوريكو إلى الحديقة ثانية ثم أرسلتْ تنهيدة: "كان يجب أن تدع الأمور على حالها."

"آسف يا نوريكو لكني أرى أن الخيزران والأزاليات في تحسن كبير. لا أبصر بتاتاً للأسف ما ترينه "غير متوازن"."

"طيب لا بد إذاً أن أبي في طريقه إلى فقد بصره أو لعله مجرد ذوق سيئ."

"ذوق سيئ؟ ذلك رأي عجيب. تعلمين يا نوريكو أن الناس لم تربط إجمالاً بين الذوق السيئ واسمي."

قالت بنبرة متبرمة: "حسناً، أنا أرى يا أبي أن الخيزران غير متوازنة وقد أفسدتَ كذلك تدلي الشجرة عليها."

جلستُ برهة محملقاً إلى الحديقة في سكون ثم قلتُ في آخر الأمر: "أجل،" وأومأتُ برأسي. "أظنك قد تشاهدينها على هذا النحو يا نوريكو، فأنت لم تتمتعي البتة بغريزة فنية، لا أنت ولا سيتسوكو، أما كنجي فقد اختلف عنكما.

مكتبة الفكر الجديد

أنتما أيتها الفتاتان تشبهان أمكما. أذكر حقيقة أن أمك اعتادت أن تطلق بالضبط مثل هذه التعليقات الخاطئة."

"هل أبي خبير إلى هذا الحد في تهذيب الشجيرات؟ لم أكن مدركة ذلك. آسفة."

"ما ادعيت أية خبرة. المسألة فقط هي أني مندهش قليلاً لاتهامك إياي بالذوق السيئ، فهو اتهام غير مألوف في حالتي، هذا كل ما هنالك."

"طيب يا أبي، أنا على ثقة أنها مسألة آراء."

"كانت أمك يا نوريكو قريبة الشبه بك، فهي لم تكن تتردد في الإفصاح عن كل ما يدور بخلدها. أحسبها أمانة شديدة."

"أنا متأكدة أن أبي أكثر دراية بتلك المسائل، لا شك في أن هذا لا يحتاج إلى جدال."

"أذكر أن أمك كانت أحياناً تطلق تعليقاتها حتى وأنا أرسم. كانت تعلق على شيء ما فتجعلني أغرق في الضحك ثم تضحك هي أيضاً مسلمة بعلمها بالقليل عن هذه الأمور."

"وهكذا أتصور أن أبي كان دوماً محقاً بخصوص لوحاته أيضاً."

"يا نوريكو، هذا حديث لا طائل فيه. إلى جانب أنه إذا لم يعجبك ما فعلتُه بالحديقة، فمرحباً بك أن تخرجي إلى هناك وتفعلي ما يحلو لك لتصحيح الأوضاع."

"هذا لطف كبير منك يا أبي لكن متى تقترح أن أقوم بهذا؟ ليس لديّ اليوم بطوله مثلما هو متاح لأبي."

"ماذا تعنين يا نوريكو؟ كان يومي مشحوناً." رمقتُها غاضباً لحظة إلا أنها ما فتئت ترنو إلى الحديقة والضجر يكسو وجهها. استدرت وتنهدتُ قائلاً: "إنما هذا حديث لا طائل فيه. كانت أمك على الأقل تقول مثل تلك التعليقات لنضحك عليها معاً."

في مثل تلك اللحظات كان مغرياً بحق أن أبين لها مدى ما كنتُ في الحقيقة

مكتبة الفكر الجديد

أبذله لمصلحتها. ولو كنتُ قد فعلت هذا، كانت ابنتي ستذهل لا مراء وأخالها كانت ستخجل من سلوكها تجاهي. فمثلاً في ذلك اليوم تحديداً قصدتُ حي ياناجاوا حيث اكتشفتُ أن كورودا يعيش هناك.

في النهاية لم يكن اكتشاف مكان كورودا بالمهمة الشاقة. فأستاذ الفن بكلية يوماشي - بمجرد أن أقنعتُه بنواياي الحسنة - لم يكتف بمنحي العنوان بل حكى لي ما جرى لتلميذي السابق خلال هذه السنوات الماضية. البادي أن كورودا تحسنتْ ظروفه منذ إطلاق سراحه في نهاية الحرب. تلك هي أحوال هذه الدنيا. منحتْه سنون السجن أوراق اعتماد قوية وحرصتْ مجموعات معينة على الترحيب به والعمل على الوفاء باحتياجاته. ومن ثم لم يجد صعوبة كبيرة في إيجاد عمل - كانت في الأغلب وظائف تدريس صغيرة - أو في الحصول على الأدوات لاستئناف الرسم. ثم إنه عُيِّن في وظيفة مدرس رسم بكلية يوماشي قرب مستهل الصيف الفائت.

قد يبدو غريباً نوعاً ما أن يصدر عني الآن هذا الكلام غير أني سررت - بل وانتابني نوع من الافتخار - عندما سمعتُ بتطور مهنة كورودا. إلا أنه من الطبيعي فحسب أن يواصل - رغم كل شيء - معلمه السابق فخره بهذه التطورات حتى لو شاءت الظروف أن يغدو المعلم والتلميذ غريبين.

لم يكن كورودا يقيم في حي راق. فقد سرت فترة من الوقت عبر حارات ضيقة تغص بنزل متهدمة قبل أن أبلغ ميداناً مرصوفاً بالإسمنت يشبه ساحة مصنع أمامية. أبصرتُ بعض الشاحنات الواقفة عبر الميدان، وإلى أبعد منها وراء سور من السلك قامت جرافة تهز الأرض هزاً. أذكر أني وقفت أراقب الجرافة بضع لحظات قبل أن أدرك أن المبنى الضخم الجديد الذي يلوح فوقي هو في الحقيقة مبنى كورودا.

صعدتُ إلى الطابق الثاني حيث ألفيت ولدين صغيرين يركبان دراجة ثلاثية جيئة وذهاباً في الردهة. بحثتُ عن باب منزل كورودا. لم تلق رنتي الأولى إجابة غير أني كنت وقتها ماضي العزم على إتمام اللقاء فقرعتُ الجرس مرة أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

انفتح الباب عن شاب جذاب في حوالي العشرين من عمره.

"أنا بحق آسف" – تكلم بجدية شديدة – "لكن السيد كورودا ليس بالمنزل حالياً. هل حضرتك يا سيدي زميله في العمل؟"

"شيء من هذا القبيل. ثمة موضوعات قليلة أبغي مناقشتها مع السيد كورودا."

"في هذه الحالة تفضل بالدخول والانتظار. أنا متأكد أن السيد كورودا لن يغيب طويلاً وسيأسف للغاية إن فاتته مقابلتك."

"لكني لا أريد أن أزعجك."

"على الإطلاق يا سيدي. أرجوك، أرجوك تفضل بالدخول."

كانت الشقة صغيرة، ومثلها مثل العديد من هذه الشقق الحديثة ليست لها ردهة بالمعنى المعروف، إذ انبسطتْ الحصيرة بعد درجة صغيرة تبعد عن الباب الرئيسي مسافة قليلة. اتسم المكان بالترتيب وتزينتْ الحوائط بعدد من اللوحات والمعلقات. طغى ضوء الشمس على الشقة من خلال نوافذ عريضة تنفرج عن شرفة ضيقة. نمت إلينا ضوضاء الجرافة آتية من الخارج.

"آمل يا سيدي ألا تكون في عجلة من أمرك،" أنهى الشاب وهو يحط وسادة لأجلس عليها. "إلا أن السيد كورودا لن يغفر لي قط لو رجع وعلم أني تركتك ترحل. أرجوك اسمح لي أن أعد بعض الشاي."

"يا للكرم،" قلتُ وأنا أتخذ مجلسي. "هل أنت تلميذ السيد كورودا؟"

فرت من الشاب ضحكة خفيضة النبرات: "من عطف السيد كورودا أنه يشير إليّ بأني تلميذه الذي يتبناه فنياً رغم أني أنا نفسي أشك في استحقاقي لمثل هذا اللقب. اسمي إنشي. كان السيد كورودا معلمي، والآن رغم ارتباطاته المرهقة في كليته، ما زال يتكرم بالاعتناء بعملي."

"حقاً؟"

ترامت إلى أذنيّ ضوضاء الجرافة وهي تعمل في الخارج. حام الشاب في المكان بارتباك لحظة أو اثنتين ثم استأذن قائلاً: "سأعد بعض الشاي بعد إذنك."

مكتبة الفكر الجديد

حينما ظهر مرة ثانية بعدها بلحظات قليلة، أشرت إلى لوحة معلقة على الحائط: "إن أسلوب السيد كورودا الفني لا تخطئه العين."

ما إن نبستُ بهذا التعليق حتى ضحك الشاب ونظر متحرجاً إلى اللوحة وصينية الشاي لا تزال بين يديه:

"للأسف يا سيدي لا ترقى تلك اللوحة إلى مستويات السيد كورودا."

"أليست عملاً من أعماله؟"

"إنها للأسف يا سيدي واحدة من محاولاتي الخاصة. كان معلمي كريماً كرماً لا حدود له أن عدها جديرة بالعرض."

"فعلاً؟ حسناً، حسناً."

أخذتُ أمعن النظر في اللوحة بينما وضع الشاب الصينية فوق مائدة منخفضة بجانبي ثم اتخذ مجلسه.

"أعملك ذاك فعلاً؟ إنك تتمتع بموهبة كبيرة، موهبة كبيرة بحق."

أرسل ضحكة أخرى تشي بارتباكه ثم قال: "من حسن طالعي أن السيد كورودا معلمي لكني للأسف ما زلت في حاجة إلى تعلم الكثير."

"وكنتُ أنا على يقين بأنها مثال لعمل من أعمال السيد كورودا، فضربات الفرشاة لها نفس خصائص أعماله."

أثار الشاب جلبة خرقاء بإبريق الشاي كما لو كان غير واثق مما سيقوم به. شاهدتُه يرفع غطاء الإبريق ويحملق إلى ما بداخله.

"ينصحني السيد كورودا على الدوام بأن أحاول أن أرسم بأسلوب أكثر تفرداً لكني أجد الكثير مما يدعو إلى الإعجاب في أساليب السيد كورودا وقلما أستطيع أن أقاوم تقليده."

"ليس عيباً أن تقلد معلمك برهة من الوقت، فالمرء يتعلم الكثير بتلك الطريقة. لكنك ستطور أفكارك وتقنياتك الخاصة في الوقت المناسب، فأنت شاب ذو موهبة كبيرة ما في ذلك شك. نعم، أنا واثق أن مستقبلاً مرموقاً ينتظرك. لا غرو أن السيد كورودا يوليك عنايته."

مكتبة الفكر الجديد

"إن أفضال السيد كورودا عليّ لا تعد ولا تحصى. فكما ترى أنا حتى أقيم هنا في شقته. جئتُ هنا منذ قرابة أسبوعين، فقد طُردتُ من مسكني السابق وهَب السيد كورودا لنجدتي. يتعذر عليّ أن أخبرك يا سيدي بكل ما صنعه من أجلي."

"أتقول إنك طُردتَ من محل سكنك؟"

"أؤكد لك يا سيدي،" قال بضحكة خافتة، "أني دفعت الإيجار لكني لم أقدر مهما حاولتُ أن أتحاشى تلطيخ الحصيرة بالألوان، فطردني صاحب البيت في النهاية."

أطلق كلانا الضحكات ثم قلت:

"أنا آسف، ما قصدتُ أن أبدي عدم التعاطف. كل ما هنالك هو أني أذكر تعرضي لمثل تلك المشاكل بالضبط في مستهل حياتي. لكنك سرعان ما ستجد الظروف الملائمة للعمل إن ثابرتَ، أؤكد لك هذا."

ضحك كلانا ثانية.

"حضرتك مشجع جداً،" نبس الشاب وطفق يصب الشاي. "لا أظن أن السيد كورودا سيتأخر. أرجوك لا تتعجل في الرحيل. سوف يسعد السيد كورودا أيما سعادة حين تتهيأ له الفرصة ليشكرك على كل ما بذلتَه."

نظرتُ إليه بعينين تنطقان بالدهشة: "أتحسب أن السيد كورودا يرغب في شكري؟"

"معذرة يا سيدي، أنا خلتك من جمعية كوردون."

"جمعية كوردون؟ آسف، ما هي تلك الجمعية؟"

سدد إليّ الشاب نظرة سريعة وقد عاوده بعض من سالف اضطرابه ثم قال: "آسف يا سيدي، إنها غلطتي، فقد خلتك من جمعية كوردون."

"لا صلة لي بها للأسف. لستُ أنا إلا واحداً من معارف السيد كورودا القدامى."

"آه. زميل سابق؟"

"أجل. إذا جاز القول." حدقتُ إلى أعلى مجدداً نحو لوحة الشاب المعلقة

مكتبة الفكر الجديد

على الحائط ثم تفوهتُ: "أجل، بالفعل. موهوب جداً. موهوب جداً بحق".
كنتُ أعي الآن أن الشاب يتطلع إليّ بوجه متفحص إلى أن سأل في آخر الأمر:
"آسف يا سيدي، لكن هل لي أن أتعرف بك؟"
"آسف، لا بد وأنك تحسبني وقحاً. اسمي أونو."
"مفهوم."
قام الشاب واتجه إلى النافذة. راقبتُ البخار لحظة أو اثنتين وهو يتصاعد من قدحيّ الشاي الموضوعين على المائدة.
"هل سيتأخر السيد كورودا؟" سألتُه في النهاية.
ظننت لأول وهلة أن الشاب لن يرد عليّ لكنه قال دون أن يشيح بوجهه عن النافذة: "ربما لو لم يعد سريعاً، لا يتحتم عليك أن تعطل نفسك عن أعمالك الأخرى أكثر من ذلك."
"سأتريث قليلاً إذا سمحتَ، بما أني قطعت الرحلة إلى هنا."
"سأنبئ السيد كورودا بزيارتك وقد يبعث لك خطاباً."
وبالخارج في الردهة بدا وكأن الأطفال يتصايحون ويخبطون دراجتهم بالحائط ليس بمبعدة عنا. استوقفني لحظتها كيف ظهر الشاب الواقف عند النافذة كالطفل العابس.
"اغفر لي قولي هذا يا سيد إنشي، أنت غر صغير، ربما حقاً لم تكن سوى مجرد غلام أول ما تعرفتُ إلى السيد كورودا. أود أن أطلب منك ألا تقفز إلى النتائج حول شؤون تجهل تفاصيلها الكاملة."
قال وهو يتحول إليّ: "تفاصيلها الكاملة؟ عذراً يا سيدي، هل أنت نفسك على دراية بالتفاصيل الكاملة؟ أتدري ما كابده؟"
" يا سيد إنشي إن معظم الأمور أعقد مما تتراءى. فشباب جيلك ينزعون إلى رؤية الأشياء، ببساطة مخلة. على أية حال لا مغزى من جدالنا الآن في هذه المواضيع. إذا لم يكن لديك مانع، سوف أنتظر السيد كورودا."
"أود أن أقترح يا سيدي ألا تؤخر نفسك عن أعمالك الأخرى أكثر من

مكتبة الفكر الجديد

ذلك. سوف أُبلغ السيد كورودا حين يعود." كلفتْه نبرته المهذبة غالياً من ضبط النفس حتى تلك اللحظة لكن يبدو الآن أنه قد فقد سيطرته على نفسه، إذ قال: "لا أكتمك يا سيدي، أنا مشدوه من جرأتك، أن تأتي هنا كما لو كنتَ مجرد صديق يزور صديقه."

"لكني بالفعل صديق يزور صديقه. واسمح لي أن أقول إني أخال الأمر يرجع إلى السيد كورودا في تحديد ما إذا كان يود استقبالي بوصفي صديقاً أم لا."

"يا سيدي، لقد أصبحت وثيق المعرفة بالسيد كورودا وفي حكمي أنه من الأفضل أن ترحل. فلن يشاء أن يراك."

تنهدتُ ملء صدري ثم نهضتُ. واصل الشاب النظر من النافذة. وعندما تناولتُ قبعتي من مشجب المعاطف، استدار ثانية: "التفاصيل الكاملة يا سيد أونو،" فاه وصوته يحمل نبرة غريبة من رباطة الجأش. "الواضح أنك أنت الجاهل بالتفاصيل الكاملة وإلا كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا على هذا النحو؟ أحسبك مثلاً يا سيدي ما دريت قط ما حدث لكتف السيد كورودا؟ حل به ألم رهيب، بيد أن الحراس أهملوا الإبلاغ عن الإصابة ولم تلق العناية الطبية حتى نهاية الحرب. لكنهم بالطبع تذكروها جيداً كلما قرروا أن يوسعوه ضرباً من جديد. خائن. هكذا كانوا يدعونه. خائن. كل دقيقة من كل يوم. لكننا نعلم جميعاً الآن مَن هم الخونة الحقيقيون."

انتهيت من ربط الحذاء واتجهتُ نحو الباب.

"يا سيد إنشي أنت أصغر من أن تعرف كنه ذلك العالم وتعقيداته."

"نحن جميعاً نعلم الآن مَن هم الخونة الحقيقيون، وما زال العديد منهم مطلقي السراح."

"ستخبر السيد كورودا أني كنت هنا؟ قد يتكرم ويرسل لي خطاباً. يوم سعيد يا سيد إنشي."

لم أسمح بالقطع لكلمات الشاب بإقلاق مضجعي، غير أن احتمالية

مكتبة الفكر الجديد

معاداة كورودا لذكراي كما أوحى إنشي كانت جد باعثة على القلق وذلك في ضوء مفاوضات زواج نوريكو. على كل حال كان واجباً عليّ كأب أن أواصل مسلكي رغم كرهي له. فعند عودتي إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، كتبتُ خطاباً لكورودا أعبر فيه عن رغبتي في لقائه ثانية ولا سيما نظراً لأن في جعبتي موضوعاً ذا حساسية وأهمية أود أن أناقشه معه. كانت نبرة الخطاب محبة تنم عن الاسترضاء، لذا داهمتني خيبة أمل للرد البارد المقتضب اقتضاباً مهيناً الذي تلقيته بعدها بأيام قليلة.

كتب تلميذي السابق: "ليس هناك ما يدعوني إلى الاعتقاد بأن لقاء بيننا سوف يثمر عن أي شيء ذي قيمة. شكراً على تفضلك بالعروج عليّ منذ بضعة أيام بيد أني أستشعر أنه لا يتعين عليّ أن أجشمك عناء الوفاء بمثل تلك الواجبات."

أعترف أن مسلك كورودا ألقى بمسحة من الكآبة على مزاجي؛ فقد أفسد بالتأكيد تفاؤلي بنجاح مفاوضات نوريكو. وبرغم أني كما ذكرتُ أخفيت عنها تفاصيل محاولاتي لمقابلة كورودا، أحست ابنتي يقيناً بأن الموضوع لم ينته إلى حل مُرض مما أسهم بلا ريب في قلقها.

ففي يوم اللقاء المشترك نفسه، لاحت ابنتي في توتر ما بعده توتر، فاعتراني القلق من الانطباع الذي سوف تخلفه ليلتها لدى آل سايتو الذين كانوا أنفسهم مصممين على إظهار ثقة سلسة لا تخلو من هدوء. وقرب نهاية الظهيرة شعرتُ أنه من الحكمة أن أجرب التفريج عنها بعض الشيء. كان هذا دافعي إلى التعليق عليها وهي تمر عبر حجرة الطعام حيث كنتُ أجلس للقراءة:

"تدهشني يا نوريكو قدرتك على قضاء اليوم بطوله لا تقومين بشيء سوى هندمة مظهرك. إنه ليس احتفال الزفاف نفسه."

"هذه هي عادة أبي أن يسخر من الآخرين ثم لا يكون هو نفسه جاهزاً بشكل ملائم،" ردت بلهجة سريعة حادة.

مكتبة الفكر الجديد

"لن أحتاج سوى برهة لأصلح من شأني،" قلتُ ضاحكاً. "فانشغالك اليوم كله هكذا أمر فوق العادة."

"تلك هي مشكلة أبي. إنه متكبر زيادة على اللزوم لأن يستعد كما يجب لتلك المناسبات."

رفعتُ بصري إليها دهشاً: "ماذا تعنين بـ "متكبر زيادة على اللزوم"؟ إلام توحين يا نوريكو؟"

حانت من ابنتي التفاتة بعيداً فيما كانت تعدل مشبك شعرها.

"ماذا تعنين يا نوريكو بـ "متكبر زيادة على اللزوم"؟ إلام توحين؟"

"إن لم يرغب أبي في إثارة جلبة حول شيء في تفاهة مستقبلي، فذلك مفهوم تماماً، فأبي في النهاية لم يفرغ حتى من جريدته بعد."

"أنت الآن تبدلين كلامك، كنتِ تقولين شيئاً عن كوني "متكبراً زيادة على اللزوم". لِم لا تفسرين ما قلتيه؟"

"أرجو فقط أن يبدو أبي حسن المظهر عندما يحين الوقت." نبستْ بهذه الكلمات ثم تعمدتْ الخروج من الحجرة.

في ذلك الموقف كما حدث كثيراً في تلك الأيام الصعبة اضطررت إلى أن أتأمل التباين الجلي بين موقف نوريكو الحالي وموقفها السنة الماضية أثناء المحادثات مع عائلة مياك. إذ نعمتْ أيامها بالاسترخاء لدرجة وصلتْ تقريباً إلى الرضا الكامل عن النفس؛ لكنها كانت بطبيعة الحال على معرفة جيدة بجيرو مياك وأخالها كانت واثقة من زواجهما ناظرة إلى المناقشات العائلية بوصفها مجرد رسميات مزعجة. ولا شك في أن ما ألم بها من صدمة كان مريراً، إنما يلوح لي من غير الضروري أن تلقي بتلك التلميحات مثلما فعلتْ في تلك الظهيرة. مهما يكن من أمر لم تساعد تلك المشادة التافهة على تهيئة نفسيتنا للقاء ولعلها أسهمت فيما جرى ليلتئذ بفندق متنزه كازوجا.

كان فندق متنزه كازوجا لسنوات عدة من بين ألطف الفنادق المقامة على الطراز الغربي في المدينة؛ مع ذلك درجتْ الإدارة في هذه الأيام على تصميم

مكتبة الفكر الجديد

ديكور الغرف بأسلوب يدل على شيء من الابتذال - المراد منه بلا مراء لفت أنظار الزبائن الأمريكيين، إذ شاع المكان بينهم باعتباره "يابانياً" بصورة ساحرة. برغم هذا نظرتُ إلى الغرفة التي حجزها السيد كيو بعين الرضا، فقد كانت أبرز سماتها إطلالة مشرباتها العريضة على المنحدر الغربي لجبل كازوجا حيث تتراءى أضواء المدينة من بعيد تحتنا. وإلى جانب هذا انتصبت في الغرفة طاولة دائرية كبيرة وكراس ذات ظهور عالية، وعُلقتْ على أحد الجدران لوحة تعرفتُ رسامها وهو ماتسوموتو، فنان ربطتني به معرفة سطحية قبل الحرب.

من الجائز بالفعل أن توتر المناسبة جعلني أحتسي الخمر أسرع قليلاً مما انتويت، فذاكرتي عن تلك الأمسية ليست واضحة مثلما كان من المحتمل أن تكون. أتذكر حقاً أني شكلت في الحال انطباعاً مرضياً عن تارو سايتو، الشاب الذي سئلتُ أن أفكر في تزويجه ابنتي. فهو لم يظهر عليه فقط أنه شاب ذكي يقوى على تحمل المسؤولية إنما تجلى كذلك تمتعه بكل ما راقني في أبيه من سلوكيات حسنة وكياسة واثقة. وعندما لاحظتُ في الحقيقة الأريحية والدماثة الجمة التي استقبلنا بهما تارو سايتو أنا ونوريكو أول وصولنا، عاودتني ذكرى شاب آخر أوقع في نفسي أثراً قوياً في موقف مماثل منذ بضع سنين - أعني سويشي خلال لقاء زواج سيتسوكو فيما كان يسمى أيامها فندق الإمبراطور. حامت أفكاري وهلة حول احتمالية أن تذبل بلا ريب دماثة تارو سايتو وحسن طبعه مع الوقت كما جرى لسويشي، غير أن المرء يأمل بالتأكيد ألا يكابد تارو سايتو مطلقاً التجارب المنغصة التي يقال إن سويشي عاناها.

أما عن الدكتور سايتو نفسه، فقد بدا كما هو الحال أبداً مهيمناً على الحضور. ومع أن التعارف بيننا لم يتم قط كما ينبغي قبل ذلك المساء، عرف في الواقع كلانا الآخر قبل بضع سنوات، إذ اعتدنا تبادل التحية في الشارع كاعتراف متبادل منا بصيت الآخر. وقد سلّمتُ كذلك على زوجته - امرأة مليحة في الخمسين - إنما في أحيان أقل؛ وقد فطنتُ إلى أنها شأنها شأن زوجها تتمتع باتزان جم، واثقة من قدرتها على التعامل مع ما قد يطرأ من مواقف محرجة.

مكتبة الفكر الجديد

الفرد الوحيد في عائلة سايتو الذي لم يبهرني هو الابن الأصغر ميتسو الذي خمنتُ أنه في أوائل العقد الثالث.

والآن عندما أسترجع تلك الأمسية، أوقن أن شكوكي في الشاب ميتسو قد استثيرت بمجرد أن وقعتْ عليه عيناي. لم أزل غير موقن بالشرارة التي أطلقتْ أول تحذير - ربما لأنه ذكّرني بالشاب إنشي الذي قابلتُه بشقة كورودا. على أية حال حين شرعنا في تناول الطعام، ألفيت نفسي متأكداً أكثر فأكثر من هذه الشكوك. ومع أن ميتسو كان يتصرف وقتئذ بمنتهى الذوق الواجب، ثمة شيء في نظراته التي كنتُ أضبطها أو في الطريقة التي ناولني بها الصحن عبر المائدة جعلني أستشعر عداوته واتهامه.

بعد عدة دقائق من تناولنا الطعام حينذاك، ورد ببالي خاطر مباغت؛ وهو أن موقف ميتسو لا يختلف حقيقة عن موقف بقية العائلة - غاية الأمر أنه لا يتحلى بمثل مهارتهم لإخفائه. فاعتدت منذ ذلك الحين أن أرمي ميتسو بنظرات خاطفة كما لو كان أوضح المؤشرات على حقيقة تفكير آل سايتو. لكن لأنه جلس بعيداً عبر المائدة ولأن السيد كيو الجالس إلى جانبه شغله على ما يظهر بمحادثات مطولة، لم أطرق أي حديث ذي دلالة مع ميتسو في تلك المرحلة من الأحداث.

أذكر أن السيدة سايتو علّقت في إحدى المرات: "سمعنا أنك مغرمة بالعزف على البيانو يا آنسة نوريكو."

صدرتْ عن نوريكو ضحكة خافتة: "أنا لا أتدرب بما يكفي."

"اعتدتُ العزف عندما كنتُ أصغر لكني الآن لا أتدرب أنا الأخرى. ليس لدينا نحن النساء متسع من الوقت لمثل هذه الهوايات، أليس كذلك؟"

"فعلاً،" أجابت ابنتي بنوع من العصبية.

"أنا عن نفسي لا أتذوق الموسيقى بتاتاً،" قاطع تارو سايتو الكلام رامقاً وجه نوريكو وهو ثابت الجنان. "الحق أن أمي تتهمني دائماً بعدم قدرتي على تمييز الألحان. ومن ثم لا أثق في ذوقي الخاص فاضطر أن أستشيرها في الملحنين الذين يجب أن أعجب بهم."

مكتبة الفكر الجديد

"كلام فارغ،" قالت السيدة سايتو.

"أتعلمين يا آنسة نوريكو؟ في مرة من المرات كانت معي مجموعة من التسجيلات لكونشيرتو بيانو من تأليف باخ وكنتُ مولعة بها للغاية لكن أمي لم تنفك تنتقدها وتوبخني على ذوقي الرديء. وطبعاً لم تصمد آرائي أمام آراء أمي، ونتيجة لهذا نادراً ما أستمع الآن لباخ. لكنك قد تستطيعين إنقاذي يا آنسة نوريكو، ألستِ مولعة بباخ؟"

"باخ؟" رانت علامات الارتباك لحظة على أسارير ابنتي ثم ابتسمتْ قائلة: "أجل، بالطبع. مولعة به جداً."

"آه،" فاه تارو بنبرة المنتصر. "ستحتاج أمي الآن إلى إعادة النظر في ذوقها."

"ابني يتكلم كلاماً لا معنى له يا آنسة نوريكو. ما انتقدتُ أبداً أعمال باخ بأكملها. لكن أخبريني، ألا تتفقين معي أن شوبان أبلغ فيما يخص العزف على البيانو؟"

"بالقطع،" ردت نوريكو.

مِثل هذه الإجابات الجامدة طبعتْ سلوك ابنتي في أغلب الجزء الأول من الأمسية. قد أزعم أن هذا لم يغب تماماً عن توقعاتي: فعندما تتوسط نوريكو أفراد العائلة أو أصدقاء مقربين، تدأب على اتخاذ سلوك ثرثار نوعاً ما، وكثيراً ما تتصف بالظرف والبلاغة؛ غير أني طالما عهدتها في الجلسات الأكثر رسمية تواجه صعوبة في إيجاد اللهجة الملائمة؛ وبالتالي تعطي انطباعاً بأنها شابة يلفها الخجل. أن يحدث هذا بالتحديد في هذه المناسبة من بين كل المناسبات أمر يدفع إلى القلق؛ إذ تبدى واضحاً أن آل سايتو ليسوا من النوع التقليدي للأسر الذين يؤثرون أن تكون نساؤهم صامتات رزينات، وقد لاح حضور السيدة سايتو الطاغي مؤيداً لهذه الفكرة. تكهنتُ في الحقيقة بهذا وشددتُ في استعداداتنا للقاء على أنه ينبغي لنوريكو أن تؤكد بالقدر الملائم على سجاياها الذكية المفعمة بالحياة، وقد وافقتني ابنتي تماماً على هذه الخطة. الحق أنها صرحت بإصرار متناه أنها تنوي التصرف بصراحة وبساطة حتى إني خشيت أن

مكتبة الفكر الجديد

تتمادى وتتجاوز حدود اللياقة. لذا بينما كنتُ أراقبها وهي تكافح لتقدم ردوداً بسيطة تتلون بالإذعان على أسئلة آل سايتو الفورية – وقد ندر أن برحتْ نظرتها الشاخصة صحنها – وسعني تخيل ما عانته من إحباط.

لكن باستثناء مشاكل نوريكو، بدا أن الحديث يتدفق بسهولة حول المائدة. وقد برهن الدكتور سايتو على الأخص أنه خبير بما ينعم به من قدرة على خلق جو هادئ في المكان، حتى إنه لولا وعيي بحملقة الشاب ميتسو إليّ، ربما كنتُ قد نسيت خطورة الموقف وقللت من حذري. بإمكاني أن أذكر أن الدكتور سايتو استراح إلى الوراء في كرسيه في إحدى اللحظات وقال:

"الظاهر أن المزيد من المظاهرات نشبت اليوم في وسط المدينة. أتعلم يا سيد أونو؟ كنتُ أستقل الترام هذه الظهيرة وركب رجل في جبهته كدمة كبيرة. جلس إلى جواري، فسألتُه بالطبع إذا كان على ما يرام ونصحتُه بالذهاب إلى المستوصف. لكن أتعلم؟ اتضح أنه كان للتو عند الطبيب وكان لحظتها عاقد العزم على معاودة الانضمام إلى رفقائه المتظاهرين. ماذا تستنتج من ذلك يا سيد أونو؟"

كان حديث الدكتور سايتو عرضيّاً بدرجة كافية لكن خالجني الانطباع لحظة أن كل مَن كان يجلس إلى المائدة – بمن فيهم نوريكو – امتنع عن الأكل لسماع إجابتي. احتمال كبير طبعاً أن هذا من شطحات خيالي لكني بالفعل أذكر بمنتهى الوضوح أني لمحت الشاب ميتسو وهو يراقبني بحدة غريبة.

أجبته: "إن إيذاء الناس أمر يؤسف له بحق، لا ريب أن المشاعر تتصاعد حدتها."

قاطعتْ السيدة سايتو: "أنا متأكدة من صواب كلامك يا سيد أونو، لعل المشاعر تتصاعد بالفعل لكن يبدو أن الناس تتمادى الآن في تلك المشاعر، فقد أصيب العديدون. على أن زوجي يدعي أن هذا للصالح العام وقد غاب عن فهمي حقاً مرماه."

مكتبة الفكر الجديد

توقعتُ أن يند عن الدكتور سايتو رد فعل لكن بدلاً من هذا خيم صمت لاح من خلاله أن الانتباه يتركز عليَّ مجدداً.

فعلّقتُ: "كما تقولين، إصابة العديدين بالأذى أمر يؤسف له أشد الأسف."

"إن زوجتي يا سيد أونو تعطي فكرة خاطئة عني كالمعتاد. لم أدع البتة أن كل هذا العراك محمود لكني كنت أحاول إقناع زوجتي أن في هذه الأحداث معاني تتجاوز مجرد إيذاء الناس. لا شك في أن الواحد لا يريد أن يرى ضرراً يقع بالناس إلا أن الروح الكامنة – شعور الناس بالحاجة إلى التعبير بصراحة وبقوة عن أفكارهم – هي الأمر الصحي، ألا تعتقد هذا يا سيد أونو؟"

لعلي ترددت لحظة؛ على كل تكلم تارو قبل أن أستطيع الرد.

"لكن من المؤكد يا أبي أن الأمور تخرج الآن عن نطاق السيطرة. إن الديمقراطية امتياز رائع غير أنها لا تعني أن للمواطنين الحق في إثارة الشغب متى اختلفوا في إحدى القضايا. فنحن اليابانيين نظهر كالأطفال في هذا المضمار. لم يزل علينا أن نتعلم كيفية النهوض بمسؤولية الديمقراطية."

قال الدكتور سايتو ضاحكاً: "ها هي حالة فريدة من نوعها. يبدو أن الأب في هذه القضية على الأقل أكثر ليبرالية بمراحل من الابن. قد يكون تارو محقاً، فبلادنا في هذه المرحلة أشبه بالطفل الصغير الذي يتعلم المشي والجري بيد أني أعتقد أن الروح الكامنة صحية. فالمسألة تعادل مشاهدة طفل صغير وهو يركض ويكشط ركبته. فالمرء لا يرغب في أن يحول دون خروجه ويحبسه في البيت. ألا تظن هذا يا سيد أونو؟ أم أني ليبرالي زيادة على اللزوم كما يصر ابني وزوجتي؟"

ربما جانبني الصواب مرة أخرى لأني كما قلت احتسيت الخمر أسرع قليلاً مما انتويت، لكن تراءى لي أن اختلاف الآراء المفترَض بين آل سايتو يحوي انسجاماً غريباً، وفي غضون ذلك لاحظتُ أن نظرات الشاب ميتسو ترصدني ثانية.

قلتُ: "آمل بالقطع ألا يتأذى آخرون."

مكتبة الفكر الجديد

أعتقد أن تارو سايتو غير دفة الموضوع عند هذه النقطة بأن سأل نوريكو عن رأيها في أحد المراكز التجارية الذي افتُتح حديثاً بالمدينة وعاد الحديث إلى موضوعات أبسط.

إن هذه المناسبات ليست قطعاً هينة بالنسبة إلى أية عروس مرتقبة - فمن الظلم أن نطلب من شابة أن تصدر أحكاماً بالغة الحسم حول سعادتها في المستقبل بينما هي ذاتها واقعة تحت مثل هذا التدقيق - لكن عليّ أن أعترف أني لم أتوقع أن تتأثر نوريكو بتوترها إلى هذا الحد. فمع تقدم الأمسية بدت ثقتها آخذة في التضاؤل حتى ظهرتْ عاجزة عن أن تنطق سوى بـ "نعم" أو "لا". أبصرتُ تارو سايتو وهو يبذل وسعه ليحمل نوريكو على الاسترخاء إلا أن المناسبة اقتضت ألا يبدو عليه الإلحاح الزائد، فانتهت محاولاته المرة بعد الأخرى لبدء محادثة طريفة بصمت مشوب بالحرج. وفيما كنتُ أشاهد محنة ابنتي، لفت نظري مجدداً التباين بين مجريات الأحداث ولقاء السنة السابقة. كانت سيتسوكو وقتئذ موجودة في إحدى زياراتها حتى تؤازر أختها غير أن نوريكو لاحت ليلتها في غير حاجة إلى مساندتها. أذكر في الحقيقة أني تميزت غيظاً لمّا استمرت نوريكو وجيرو مياك في تبادل النظرات العابثة عبر الطاولة وكأنهما يهزآن من رسمية المناسبة.

قال الدكتور سايتو: "أتتذكر يا سيد أونو آخر مرة التقينا فيها، اكتشفنا أن بيننا أحد المعارف المشتركين، السيد كورودا."

كنا في هذا الوقت نقترب من نهاية الوجبة.

"آه نعم، فعلاً."

أشار الدكتور سايتو إلى الشاب ميتسو الذي ما تبادلتُ معه كلمة واحدة حتى وقتها: "يدرس ابني في الوقت الحالي بجامعة يوماشي حيث يُدرس الآن السيد كورودا."

"أحقاً؟" لاحت مني التفاتة إلى الشاب قائلاً: "إذن فأنت تعرف السيد كورودا حق المعرفة؟"

مكتبة الفكر الجديد

"ليست معرفة قوية. للأسف لستُ بارعاً في الفنون واتصالي بأساتذة الفن محدود."

قال الدكتور سايتو مقاطعاً: "لكن السيد كورودا ذو سمعة طيبة، أليس كذلك يا ميتسو؟"

"هو كذلك بالفعل."

"كان السيد أونو ذات يوم من معارف السيد كورودا المقربين. أكنتَ تعلم بذلك؟"

"نعم، سمعتُ بهذا."

في تلك اللحظة بدّل تارو الحديث من جديد:

"أتعلمين يا آنسة نوريكو؟ اعتقدت دوماً بنظرية تفسر عدم تذوق أذني للموسيقى. فعندما كنتُ طفلاً، لم يضبط أبواي أبداً درجات النغم الصحيحة بالبيانو. وفي كل يوم طوال معظم أعوام تكويني، كنتُ مجبراً على الاستماع لأمي وهي تتدرب على بيانو نغماته نشاز. ألا تخالين أن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون هذا وراء كل متاعبي؟"

"نعم،" قالت نوريكو ثم غضت بصرها نحو الطعام.

"ها هو الرأي! كنتُ أؤكد دوماً أنها غلطة أمي وكانت هي توبخني باستمرار كل هذه السنين لعدم تذوقي للموسيقى. لقد عوملتُ بظلم جائر، ألا تتفقين معي يا آنسة نوريكو؟"

ابتسم ثغر نوريكو بدون أن يحير جواباً.

عند تلك النقطة طفق السيد كيو – الذي كان بعيداً عن الأنظار حتى تلك اللحظة – يقص إحدى نوادره الكوميدية. ووفقاً لرواية نوريكو على الأقل كان لا يزال في وسط حكايته عندما قاطعتُه بتحولي إلى الشاب ميتسو سايتو:

"تكلم السيد كورودا معك عني بلا ريب."

رفع ميتسو عينيه بتعبير يمتلئ اضطراباً.

"تكلم عنك يا سيدي؟" نبس بنبرة لم تنج من التردد. "أنا متأكد أنه ينوه

مكتبة الفكر الجديد

بك كثيراً لكني للأسف لست وثيق الصلة بالسيد كورودا وعلى هذا...." تضاءل صوته وانسحبتْ نظراته إلى والديه التماساً للعون.

"أنا على يقين،" تفوه الدكتور سايتو بلهجة داخلها نوع من التعمد أدهشني، "أن السيد كورودا يتذكر السيد أونو جيداً."

تطلعتُ إلى ميتسو ثانية: "لا أظن أن السيد كورودا يذكرني بالخير."

لاحت من الشاب التفاتة أخرى مثقلة بالحرج ناحية والديه، فتكلمتْ السيدة سايتو هذه المرة:

"بالعكس، أنا على ثقة أنه يقدرك أيما تقدير يا سيد أونو."

"البعض يا سيدة سايتو" - لعل صوتي ارتفع قليلاً - "يعتقد أن سيرتي المهنية تحمل تأثيراً سلبياً، تأثيراً من الأحسن له الآن أن يُمحى ويُلقى في طي النسيان. وأنا لست جاهلاً بوجهة النظر تلك وأخال السيد كورودا ممن يؤيدونها."

"فعلاً؟" قد أكون مخطئاً بهذا الشأن لكني ظننت أن الدكتور سايتو يراقبني مثلما ينتظر المدرس أن يردد تلميذه قطعة محفوظات حفظها عن ظهر قلب.

"فعلاً، وأنا عن نفسي على أتم الاستعداد الآن لتقبل صحة هذا الرأي."

"أنا متأكد أنك تجور على نفسك يا سيد أونو،" أنشأ تارو سايتو يقول إلا أني استأنفت سريعاً:

"هناك مَن يقولون إن أمثالي هم المسؤولون عما نزل بأمتنا هذه من فظائع. وأنا أعترف عن طيب خاطر أني ارتكبت العديد من الأخطاء فيما يخصني وأقر أن أكثر ما صنعتُ ألحق في نهاية المطاف ضرراً بأمتنا وأن تأثيري كان جزءاً من تأثير أكبر ترتبتْ عليه معاناة لا توصف لشعبنا. أعترف بهذا، كما ترى يا دكتور سايتو أعترف به من غير تردد."

مال الدكتور سايتو إلى الأمام وقد علت ملامحه الحيرة.

"لا تؤاخذني يا سيد أونو، أتقول إنك غير راض عما أديتَه من عمل؟ عن لوحاتك؟"

مكتبة الفكر الجديد

"لوحاتي، تعاليمي. أنا كما ترى يا دكتور سايتو أعترف بهذا بلا أدنى تردد. كل ما في وسعي أن أقوله هو أني تصرفت وقتها بحسن نية. إذ رسخ في اعتقادي بإخلاص لا مزيد عليه أني أحقق الخير لأبناء بلدي لكني الآن كما ترى لا أهاب الاعتراف بخطأي."

"أنا متيقن أنك تقسو على نفسك يا سيد أونو،" قال تارو سايتو بصوت مرح ثم تلفت إلى نوريكو: "أخبريني يا آنسة نوريكو، هل أبوك متزمت دائماً إلى هذا الحد مع نفسه؟"

أدركتُ أن نوريكو كانت تحدجني بنظرات ذاهلة، وربما نجم عن ذلك أن تخلت عن حذرها مع تارو لتجري ثرثرتها المعتادة على شفتيها للمرة الأولى في ذلك المساء.

"أبي ليس متزمتاً على الإطلاق. أنا التي يجب أن أتزمت معه وإلا لن يستيقظ أبداً لتناول الإفطار."

"حقاً؟" قال تارو سايتو مبتهجاً لانتزاعه رداً أقل رسمية من نوريكو. "أبي أيضاً يتأخر في النوم. يقولون إن الكبار ينامون أقل منا إنما يبدو بناء على تجربتنا أن هذا غير صحيح بالمرة."

ضحكتْ نوريكو قائلة: "أخالها مشكلة تخص الآباء فقط، أنا واثقة أن السيدة سايتو لا يصعب عليها الاستيقاظ."

"رائع،" عقّب الدكتور سايتو موجهاً كلامه إليّ، "إنهما يسخران منا ونحن لم نخرج حتى بعد من الحجرة."

لا أريد أن أدعي أن الخطبة برمتها كانت معلقة في الميزان حتى تلك اللحظة لكني أحسست بلا مراء أن اللقاء انقلب عند تلك النقطة من لقاء مربك وربما منذر بكارثة إلى أمسية ناجحة. فقد رحنا نأخذ بأطراف الحديث ونحتسي الساكي بعد الوجبة بفترة طويلة. وبحلول الوقت الذي أقبلتْ فيه سيارات التاكسي، تجلى إحساس بأننا جميعاً على وفاق، والأهم من ذلك بدا واضحاً أن تارو سايتو ونوريكو، على تحفظهما، قد تآلفا.

مكتبة الفكر الجديد

لا أزعم بالطبع أني ما تجرعت الألم خلال لحظات معينة من ذلك المساء؛ ولا أدعي أني كنت سألقي بهذا النوع من التصريح حول الماضي بمنتهى السهولة ما لم تكرهني الظروف على حكمة الإقدام على هذا. ومع ذلك لا بد أن أقول إنه يصعب عليّ فهم كيف يرغب أي إنسان يقدر احترامه لذاته أن يتحاشى مسؤولية أفعاله السابقة فترة طويلة؛ لعله ليس بالأمر الميسور على الدوام غير أنه لا سبيل إلى الشك في أن المرء يفوز بالرضا والكرامة عند مجابهة ما اقترفه من أخطاء في حياته. ومهما يكن ليس ثمة قطعاً أي عار شنيع في الأخطاء المرتكبة بحسن نية، فالمعيب بحق هو العجز عن الإقرار بها أو عدم الرغبة في ذلك.

عندك شينتارو مثلاً – الذي يبدو أنه حصل مصادفة على وظيفة التدريس التي رغب فيها كل الرغبة. في رأيي أن شينتارو كان سيصبح اليوم رجلاً أكثر اغتباطاً إذا ما واتته الشجاعة والأمانة للاعتراف بما قام به في الماضي. أظنه من الجائز أن رد فعلي البارد في تلك الظهيرة بعد بداية العام الجديد مباشرة أقنعه بتغيير مسلكه في التعامل مع اللجنة بخصوص ملصقات الأزمة الصينية لكن تخميني أن شينتارو أبى إلا أن يمارس نفاقه الحقير سعياً وراء مأربه. والحق أني صرت أعتقد الآن أن طبع شينتارو شابه دوماً قدر من المكر والخداع لم أنتبه إليه حقاً فيما مضى.

عندما كنتُ عند السيدة كاواكامي في إحدى الأمسيات القريبة، فاتحتُها في المسألة: "أتدرين يا أوباسان؟ يعتريني بعض الشك أن شينتارو لم يكن قط رجلاً ساذجاً كما أرادنا أن نعتقد. فهذه طريقته فحسب للتفوق على الآخرين وتسيير الأمور على هواه. فالأفراد ممن هم على شاكلة شينتارو إن لم يرغبوا في أداء عمل ما، يتظاهرون بأنهم تائهون من غير عون وأنهم قد أُعفوا من كل مهمة."

"حسبك يا معلم." رشقتني السيدة كاواكامي بنظرة مستنكرة رافضة على نحو مفهوم إساءة الظن بشخص ظل مدة طويلة من أحسن زبائنها.

استطردتُ: "تأملي مثلاً يا أوباسان مهارته في تحاشي ذكر الحرب. ففي الوقت الذي كان فيه الآخرون يفقدون كل غال، اكتفى شينتارو بالعمل في ذلك الأستوديو الصغير الخاص به وكأن لا شيء يقع حوله."

مكتبة الفكر الجديد

"لكن يا معلم ساق السيد شينتارو مريضة."

"سواء كانت مريضة بالفعل أم لا، استدعوا الكل إلى الحرب. وجدوه بطبيعة الحال في النهاية إلا أن الحرب انفضت خلال أيام. أتعلمين يا أوباسان أن شينتارو أخبرني مرة أنه خسر أسبوعين من العمل من جراء الحرب. هذا ما كلفتْ الحرب شينتارو. صدقيني يا أوباسان، إن كثيراً من العلل تتوارى وراء المظهر الطفولي لصديقنا السابق."

"طيب، على أية حال،" قالت السيدة كاواكامي في ضجر، "يبدو أنه لن يرجع إلى هنا بعد الآن."

"فعلاً يا أوباسان. البادي أنك فقدتِه إلى الأبد."

مالت السيدة كاواكامي إلى حافة الطاولة وهي تمسك في يدها بسيجارة تحترق، كانت نظراتها تتردد بين أرجاء حانتها الصغيرة. كنا كالعادة بمفردنا في المحل. تسللتْ أشعة شمس أول المساء من شبكات البعوض المثبتة على النوافذ، فتبدت الحجرة مترية أكثر وأعتق مما تكون عليه بمجرد أن يحل الظلام وتضيئها مصابيح السيدة كاواكامي. وبالخارج ما فتئ العمال يشتغلون. كان صوت الدق يدوي بالحانة من أحد الأماكن طوال الساعة المنصرمة والمكان يهتز بأكمله المرة تلو الأخرى بفعل موتور شاحنة أو انفجار ناتج عن آلة الثقب. وفيما تتبعتُ نظرة السيدة كاواكامي حول المكان في تلك الليلة الصيفية، عنّ لي خاطر ما، وهو أن حانتها الصغيرة ستبدو مكاناً ضيقاً مهلهلاً في غير محله وسط الأبنية الإسمنتية الضخمة التي تشيدها شركة المدينة حولنا في تلك اللحظة، فاقترحتُ على السيدة كاواكامي:

"أتعلمين يا أوباسان؟ يتعين عليك حقاً أن تفكري بجدية في قبول هذا العرض والانتقال إلى مكان آخر، إنها فرصة عظيمة."

"لكن مر عليّ وقت طويل وأنا هنا،" قالت ولوحتْ بيدها لتبدد الدخان المتصاعد من سيجارتها.

مكتبة الفكر الجديد

"بإمكانك يا أوباسان افتتاح مكان جديد أنيق في حي كيتاباشي أو حتى في هونشو وتأكدي أني سأزورك متى مررت بالمنطقة."

أطرقتْ السيدة كاواكامي هنيهة كمن تستمع إلى شيء ما وسط ما أحدثه العمال من أصوات بالخارج ثم أشع وجهها بابتسامة قائلة: "كان هذا الحي آية في الروعة في يوم من الأيام، أتتذكر يا معلم؟"

أجبت ابتسامتها بمثلها غير أن شفتيّ لم تنفرجا عن جواب. كانت المنطقة القديمة جميلة بلا مراء، فقد استمتعنا جميعاً بأوقاتنا، وكانت الروح التي اقترنتْ بالمزاح والجدال مخلصة على الدوام لكن عل نفس تلك الروح لم تكن رامية دوماً إلى الخير. وشأن العديد من الأشياء الآن، قد يكون ذلك العالم الصغير انقضى بلا رجعة. ساورتني رغبة ليلتئذ في أن أقول هذا للسيدة كاواكامي لكن قدّرتُ أنه ستعوزني اللباقة إن فعلتُ. فمن الواضح أن الحي القديم يحتل مكانة عزيزة في قلبها – فقد كرستْ له أغلب حياتها وطاقتها – وبوسع الإنسان بالتأكيد أن يتفهم عزوفها عن قبول فكرة زواله إلى الأبد.

مكتبة الفكر الجديد

نوفمبر 1949

ما زالت ذاكرتي عن المرة الأولى على الإطلاق التي قابلتُ فيها الدكتور سايتو قوية للغاية مما جعلني واثقاً كل الثقة من دقتها. لا بد وأنها كانت منذ عهد لا يربو على ست عشرة سنة في اليوم الذي أعقب انتقالي إلى منزلي. أذكر أنه كان يوماً صيفياً تسطع شمسه وكنتُ بالخارج أضبط السور أو لعلي كنت أثبت شيئاً بالمدخل متبادلاً التحية مع مَن يمر من جيراني الجدد. أوليت الطريق ظهري برهة وعيت بعدها أن شخصاً يقف خلفي، الظاهر ليشاهد ما أصنع. استدرت لأجد رجلاً في مثل عمري تقريباً ينعم النظر في اسمي المنقوش حديثاً على عمود البوابة.

"إذاً فأنت السيد أونو، حسناً، حسناً، إن هذا لشرف حقيقي، شرف حقيقي أن يسكن شخص في مثل منزلتك هنا في حينا. أنا عن نفسي مستغرق في عالم الفن الرفيع. أعرفك بنفسي، أنا سايتو من جامعة مدينة الإمبراطور."

"الدكتور سايتو؟ ياه، إن الشرف لنا، سمعتُ عنك الكثير يا سيدي."

أعتقد أننا أخذنا نتحدث عدة لحظات هناك خارج مدخل بيتي، وأنا متأكد تمام التأكد أن الدكتور سايتو نوه مراراً وتكراراً في نفس تلك الواقعة بعملي وسيرتي المهنية. أذكر أنه قبل أن يمضي في سبيله نازلاً التل ردد كلمات فحواها: "إنه لشرف عظيم يا سيد أونو أن يقيم بحينا فنان له مثل مكانتك."

منذ ذلك الحين داومتُ أنا والدكتور سايتو على تبادل التحية بكل احترام كلما اتفق أن تقابلنا. صحيح على ما أخال أنه نادراً ما توقفنا لإجراء أحاديث

مكتبة الفكر الجديد

طويلة عقب تلك المقابلة الأولى إلى أن خلقتْ الأحداث الأخيرة مودة أكبر بيننا غير أن ذاكرتي عن ذاك اللقاء الأول وتعرُّف الدكتور سايتو على اسمي المكتوب على البوابة واضحة بقدر كاف لأن أؤكد بشيء من الثقة أن ابنتي الكبرى سيتسوكو أخطأتْ على الأقل في بعض الأمور التي حاولت الإلماح إليها في الشهر المنقضي. فليس من المحتمل مثلاً أن الدكتور سايتو غمضتْ عليه هويتي حتى ألزمتْه مفاوضات الزواج في العام المنصرم على اكتشاف شخصي.

ولأن زيارتها هذه السنة كانت بالغة القصر ولأنها قضتها في بيت نوريكو وتارو الجديد بحي إيزوميماشي، كانت تمشيتي مع سيتسوكو في ذاك الصباح عبر متنزه كاواب فرصتي الوحيدة للتحدث إليها كما ينبغي. ليس من المستغرب إذاً أن أقلب تلك المحادثة في عقلي فترة من الوقت بعدها، وأظنه معقولاً أن أجد نفسي الآن ساخطاً أكثر فأكثر على أشياء معينة قالتها لي يومذاك.

على أني لم أستطع حينها أن أعمل فكري في كلمات سيتسوكو لأني أذكر أن مزاجي كان على ما يرام، وكنت سعيداً بصحبة ابنتي والاستمتاع بالمشي عبر متنزه كاواب بعد انقطاع. جرى هذا منذ أكثر من شهر بالضبط عندما كانت الشمس، كما ستذكر، تشرق نهاراً رغم تساقط أوراق الشجر. كنتُ أنا وسيتسوكو نشق سبيلنا في طريق مشجر واسع يخترق وسط المتنزه. بكرنا إلى موعد اتفقنا عليه لمقابلة نوريكو وإشيرو بجانب تمثال الإمبراطور تيشو، فرُحنا نسير على مهل متوقفين من حين إلى آخر لنتطلع بعيون تنطق بالإعجاب إلى مشاهد الخريف الطبيعية.

علك ستوافقني في أن متنزه كاواب هو أكثر متنزهات المدينة إرضاء للزائرين؛ فبعد أن يسير المرء برهة في تلك الشوارع المزدحمة الضيقة بحي كاواب، ينتعش انتعاشاً لا حد له عندما يلفي نفسه في إحدى تلك الطرق الطويلة الرحبة ذات الأشجار. غير أنك إن كنت حديث العهد بالمدينة ولستَ مطلعاً على تاريخ متنزه كاواب، ربما وجب عليّ أن أشرح لك هنا لِم استحوذ المتنزه دوماً على اهتمام خاص في قلبي.

مكتبة الفكر الجديد

هنا وهناك بالمتنزه، ستتذكر بلا شك عبورك لبعض رقع العشب المنعزلة التي لم تكن أكبر من فناء مدرسة، تطل عليك من بين الأشجار وأنت تمشي في أي من تلك الطرق المشجرة وكأن مخططي المتنزه اختلط عليهم الأمر وتخلوا عن خطة ما أو تركوها بغير إكمال. الواقع أن هذا هو تقريباً الوضع. فمنذ بضع سنوات كانت تعتمل بذهن أكيرا سوجيمورا أكثر الخطط طموحاً لمتنزه كاواب – وهو الرجل الذي اشتريت بيته عقب وفاته بوقت قليل. أنا مدرك أن اسم 'أكيرا سوجيمورا' قلما يُسمع هذه الأيام لكن دعني أوضح لك أنه منذ فترة بسيطة كان بلا مراء واحداً من أكثر رجال المدينة نفوذاً. وقد سمعتُ أنه امتلك في إحدى الفترات أربعة منازل، وقلما أمكنك أن تطيل التجول في هذه المدينة قبل أن تصادف مشروعاً ما أو غيره يمتلكه سوجيمورا أو يرتبط به أشد الارتباط. وفي حوالي عام 1920 أو 1921 قرر سوجيمورا وهو في أوج نجاحه أن يغامر بأغلب ثروته ورأس ماله في مشروع يسمح له بدمغ بصمته على هذه المدينة وسكانها إلى الأبد. فقد استقر عزمه أن يحول متنزه كاواب – الذي كان وقتها مكاناً طاله الإهمال ولم ينج من الكآبة – إلى بؤرة النشاط الثقافي بالمدينة. فالأمر لن يقتصر على توسعة الأرض لتضم مناطق طبيعية إضافية يسترخي بها الناس بل سيغدو المتنزه موقعاً لمختلف المراكز الثقافية المتألقة – متحف للعلم الطبيعي؛ مسرح كابوكي جديد لمدرسة تاكاهاشي التي فقدتْ مؤخراً مسرحها بشارع شيراهاما بفعل حريق؛ مبنى للاحتفالات مقام على الطراز الغربي؛ وكذلك مدفن لقطط المدينة وكلابها على ما في ذلك من غرابة. ليس بوسعي تذكر المزيد مما خطط له، بيد أني لم أخطئ تقدير ما طغى على الخطة من طموح جارف. فسوجيمورا لم يكن يأمل أن يبدل شكل حي كاواب فقط بل توازن المدينة الثقافي برمته ليضفي بذلك ثقلاً جديداً على الجانب الشمالي من النهر. ومثلما قلت لم تكن تلك الخطط بأقل من محاولة رجل واحد لدمغ بصمته على شخصية المدينة إلى الأبد.

لاح لي أن العمل يجري على قدم وساق عندما كانت الخطة تجابه صعوبات

مكتبة الفكر الجديد

مالية بالغة. لستُ متأكداً من تفاصيل الموضوع لكن كانت العاقبة أن تلك "المراكز الثقافية" الخاصة بسوجيمورا لم يتم بناؤها قط. خسر سوجيمورا نفسه مبلغاً لا يستهان من المال ولم يستعد أبداً سالف نفوذه. بعد أن وضعتْ الحرب أوزارها، وقع متنزه كاواب تحت السيطرة المباشرة لسلطات المدينة التي شيدت الطرق المشجرة. وكل ما بقي اليوم من خطط سوجيمورا هي رقع العشب الخالية على نحو غريب حيث كان من المفترض أن ترتفع متاحفه ومسارحه.

ربما قلت من قبل إن تعاملاتي مع عائلة سوجيمورا بعد أن وافته المنية – عند ابتياعي لآخر منزل من منازله – لم تكن من النوع الذي يجعلني أشعر تماماً بالود إزاء ذكرى الرجل. مع ذلك كلما ألفي نفسي أتجول بمتنزه كاواب هذه الأيام، أشرع في التفكير في سوجيمورا وخططه، معترفاً أني بدأت أكن للرجل إعجاباً. فالحق أن مَن يتشوف إلى أن يرتفع إلى ما فوق المتوسط، إلى أن يضحي شخصاً غير عادي، يستحق يقيناً الإعجاب حتى لو خاب في النهاية وخسر ثروته في سبيل طموحه. وفي اعتقادي أن سوجيمورا لم يمت رجلاً تعيساً، ففشله لم يكن شبيهاً بما يتعرض له أغلب الأشخاص العاديين من حالات فشل مهينة، ورجل مثله كان سيفطن إلى هذا الفارق. فالإنسان إن أخفق حيثما لم يتحل الآخرون بالشجاعة أو الإرادة للتجريب، يستشعر عزاء بل وقناعة عميقة عند اجتلاء حياته من خلفه.

غير أني لم أعتزم الإسهاب في سيرة سوجيمورا. فكما قلت كنت بوجه عام أستمتع بتمشيتي مع سيتسوكو عبر متنزه كاواب رغم إبدائها لملاحظات حملتْ دلالات ما استوعبتُها جيداً حتى تدبرتُها في وقت لاحق. مهما يكن انتهى حديثنا عندما لاح في منتصف الطريق تمثال الإمبراطور تيشو على بعد مسافة قصيرة حيث رتبنا لمقابلة نوريكو وإشيرو. كنتُ أحدق في اتجاه المقاعد المحيطة بالتمثال حين التقطتْ أذناي صوت ولد يصيح: "ها هو أوجي!"

أقبل إشيرو ناحيتي مهرولاً وقد بسط ذراعيه كمن يتوقع عناقاً. إلا أنه حين بلغني، بدا وكأنه كبح نفسه، إذ ثبت على وجهه تعبيراً رزيناً ومد يده ليصافحني.

مكتبة الفكر الجديد

"يوم سعيد،" خاطبني بأسلوب جاد.

"ياه يا إشيرو، كبرتَ حقاً وأصبحتَ رجلاً. كم عمرك الآن؟"

"أعتقد أني في الثامنة. من فضلك يا أوجي تعال من هنا. عندي أمور قليلة لأناقشها معك."

تتبعناه أنا وأمه إلى مقعد نوريكو حيث كانت تنتظر. ارتدت ابنتي الصغرى فستاناً زاهياً لم أره مطلقاً من قبل.

"شكلك مبهج للغاية يا نوريكو، الظاهر أن البنت عندما تبرح بيتها، تبدأ فوراً في التغير."

"ليس هناك ما يدعو المرأة إلى لبس رداء رتيب لمجرد أنها تزوجت،" سارعتْ نوريكو بالرد وإن بدت مسرورة بمجاملتي.

أذكر أننا جلسنا جميعاً تحت تمثال الإمبراطور تيشو وتجاذبنا أطراف الحديث برهة. كنا قد التقينا في المتنزه لأن ابنتيّ أرادتا قضاء بعض الوقت معاً في شراء الأقمشة، لذا وافقتُ على اصطحاب إشيرو لتناول الغداء بأحد المراكز التجارية ثم أمضيت فترة بعد الظهر أريه وسط المدينة. ما طاق إشيرو صبراً على الانتظار وراح ينكز ذراعي ونحن جالسون قائلاً:

"يا أوجي، دع النساء يثرثرن مع بعضهن. عندنا مسائل لا بد من الاهتمام بها."

انتهيت أنا وحفيدي إلى المركز التجاري بعد ميعاد الغداء المعتاد بوقت قليل، فلم نجد طابق المطعم مزدحماً. أخذ إشيرو وقته في الاختيار من بين شتى الأطباق المعروضة فوق الأرفف، تلفت إليّ ذات مرة قائلاً:

"أوجي، خمن ما هو طعامي المفضل الآن."

"أأ. لا أعرف يا إشيرو. كعكة ساخنة؟ آيس كريم؟"

"السبانخ! فالسبانخ تمد الإنسان بالقوة!" قال وهو ينفخ صدره ويوسع كتفيه.

"نعم. حسناً، بوجبة الغداء الصغيرة بعض السبانخ."

مكتبة الفكر الجديد

"وجبة الغداء الصغيرة للأطفال."

"قد تكون للأطفال لكنها لذيذة جداً. ممكن أوجي يطلبها لنفسه."

"حسناً. سآخذ أنا أيضاً وجبة الغداء الصغيرة لأكون معك. لكن قل للرجل أن يضع لي الكثير من السبانخ."

"حاضر يا إشيرو."

"لازم يا أوجي أن تأكل السبانخ بقدر الإمكان، فهي تعطي قوة."

اختار إشيرو إحدى الموائد إلى جانب صف من النوافذ العريضة، وفي حين كنا ننتظر غداءنا، أخذ يلصق وجهه بالزجاج ليشاهد الشارع الرئيسي المزدحم الواقع أسفلنا بأربعة طوابق. لم أكن قد رأيت إشيرو منذ زيارة سيتسوكو من أكثر من سنة - فهو لم يحضر حفل زفاف نوريكو لإصابته بفيروس - فاسترعى انتباهي كم كبر خلال تلك الفترة. فهو لم يكن فقط أطول بكثير إنما صار سلوكه كله أهدأ وأقل طفولية ولا سيما عينيه اللتين اعترتهما نظرة أكبر سناً بكثير.

الحق أنه في الوقت الذي كنتُ أراقب فيه إشيرو يومها وهو يضغط وجهه إلى الزجاج ليتفرج على الشارع، استطعت أن أبصر كيف سيصبح شبيهاً بأبيه. كانت هناك أيضاً آثار من سيتسوكو غير أنها تواجدتْ بالأساس في سلوكه والقليل من حركات وجهه. بالطبع استوقفني من جديد شبه إشيرو بإبني كنجي في تلك السن. أعترف أن راحة غريبة تداخلني حين ألاحظ أن الأطفال يرثون أوجه التشابه هذه من أفراد العائلة وكل أملي أن يحتفظ حفيدي بها في سن المراهقة.

لا ريب أننا لا نتعرض لهذه الخصائص المتوارثة الصغيرة في سن الطفولة فقط؛ فأي معلم أو ناصح يعجب به الإنسان بشدة في سن المراهقة المبكرة سوف يخلف بصمته. والواقع أنه بعد فترة طويلة من إعادة الإنسان تقييم أغلب تعاليم ذلك الرجل وربما حتى بعد نبذها، سوف تنزع بعض السمات إلى البقاء كظل ما لذلك التأثير وتمكث مع الإنسان طيلة عمره. فأنا مدرك مثلاً إلى أن بعض سلوكياتي - كالطريقة التي أحفظ بها توازن يدي حين أشرح موضوعاً

مكتبة الفكر الجديد

ما وبعض التغييرات التي تنتاب نبراتي عندما أحاول التعبير عن تهكمي أو نفاد صبري، بل عبارات بأكملها أولع باستخدامها وقد ظنها الناس عباراتي – أنا واع لأنها كلها سمات اكتسبتُها في الأصل من السيد موري، معلمي السابق. ولعلي لا أفرط في إطراء نفسي حين أتصور أن العديد من تلاميذي اكتسبوا مني تباعاً مثل هذه الموروثات الصغيرة. أرجو كذلك أن يظل معظمهم شاكرين لأكثرية ما تعلموه برغم أية إعادة تقييم ربما قاموا بها لتلك السنوات التي قضوها تحت إشرافي. أنا عن نفسي مهما كانت مواطن الضعف الواضحة في شخصية معلمي السابق – سيجي مورييما أو "السيد موري" كما لقبناه دائماً – ومهما حدث بيننا في النهاية، لا شك في أني سوف أقر دوماً بأن تلك الأعوام السبعة التي أنفقتُها مقيماً في فيلا أسرته بريف مقاطعة واكابا كثير التلال كانت أكثر السنوات حسماً بالنسبة لمسيرتي المهنية.

عندما أحاول اليوم استدعاء صورة لفيلا السيد موري، أميل إلى تذكر منظر غاية في البهاء من أعلى طريق جبلي يؤدي إلى أقرب قرية. فأثناء صعود المرء ذلك الطريق، ستظهر الفيلا في الوادي بالأسفل كمستطيل خشبي معتم يتوسط أشجار الأرز الطويلة. تتصل أجزاء الفيلا الثلاثة الشاهقة لتشكل ثلاثة أضلاع من مستطيل يحيط بفناء مركزي؛ وقد اكتمل الضلع الرابع بسور من أشجار الأرز وبوابة. هكذا كان الفناء مطوقاً بالكامل، وبإمكان المرء تخيل كيف شق على المعتدين في الأيام الغابرة أن يدخلوا حالما انغلقتْ تلك البوابة الضخمة.

على أن متطفلي هذه الأيام لن يواجهوا مثل تلك الصعوبة، ففيلا السيد موري أمست في حالة خربة كل الخراب وإن لم يتأت للمرء تمييز هذا من أعلى الطريق. فالمرء لن يحزر من هناك أن بالمبنى حجرات يكسو جدرانها ورق ممزق ويغطي أرضياتها حصير بال حتى إن خطر السقوط إلى الطابق الأسفل تربص بالمرء في عدة أماكن إذا ما وطأ بقدمه دون احتراس. وعندما أحاول في الحقيقة استدعاء صورة الفيلا عن كثب، لا يتوارد إلى ذهني سوى قراميد سطح مهشمة وتعريشات متفسخة وشرفات مهترئة تكسرتْ حوافها.

مكتبة الفكر الجديد

كانت تلك الأسطح تكشف باستمرار عن ارتشاحات جديدة، وبعد انقضاء ليلة ينهمر فيها المطر، تفوح في كل الغرف رائحة الخشب الرطب ومصاريع النوافذ الرثة. انصرمتْ شهور كانت الحشرات والعثة تغزو فيها المكان بأعداد كبيرة، فكانت تلتصق بالأخشاب في كل مكان وتختبئ في كل شق وصدع حتى خشينا أن تتسبب في انهيار المكان تماماً.

من بين كل تلك الغرف ثمة غرفتان أو ثلاث في وضع يدل على ما كانت عليه الفيلا من روعة في يوم من الأيام. كانت واحدة من تلك الغرف تشع بضوء ساطع أغلب النهار لذا أفردها السيد موري للمناسبات الخاصة. أذكر أنه كان يستدعي كل تلاميذه - وكنا عشرة - إلى تلك الحجرة من وقت لآخر كلما فرغ من لوحة جديدة. أذكر كيف كنا نتسمر عند العتبة لنلهث معجبين باللوحة القائمة في منتصف الأرضية. قد يكون السيد موري في غضون ذلك يعتني بنبات من النباتات أو يطل من النافذة غافلاً فيما يبدو عن قدومنا. ما نلبث أن نتحلق حول اللوحة على الأرضية، وكل واحد يشير للآخرين بنبرات خفيضة إلى جمالياتها. "وانظر كيف ملأ المعلم تلك الزاوية هناك. بديع!" لكن لا أحد منا يوجه بالفعل إليه الحديث: "يا لها من لوحة مدهشة يا معلم" إذ كان عُرف هذه المناسبات بطريقة ما هو أن نتصرف كما لو لم يكن المعلم موجوداً.

كثيراً ما كانت كل لوحة جديدة تشكل ملامح أحد الابتكارات الأخاذة ليتطور بيننا جدال متقد الحماسة. أذكر مثلاً أننا دخلنا الحجرة مرة لتعترض أعيننا لوحة تصور امرأة راكعة مرسومة من زاوية منخفضة بغرابة - منخفضة جداً لدرجة أننا بدونا وكأننا نتطلع إليها من مستوى الأرضية.

أذكر أن أحدهم جزم قائلاً: "من الواضح أن المنظور المنخفض يسبغ على المرأة وقاراً لن تناله لو رُسمتْ بنظرة مختلفة. إنه إنجاز غاية في الدهشة. فهي تلوح من كل النواحي الأخرى امرأة ترثي لحالها وهذا التوتر هو ما يضفي على اللوحة قوتها الرقيقة."

علق آخر: "قد يكون هذا صحيحاً. ربما تتميز المرأة بضرب من الوقار

مكتبة الفكر الجديد

على أن هذا ينبع بالكاد من المنظور المنخفض. إذ يبدو جلياً أن المعلم ينبئنا بأمر أكثر صلة باللوحة، فهو يقول إن المنظور لا يظهر منخفضاً سوى لأن أعيننا متناغمة مع مستوى معين من الرؤية لتتجلى هنا مشيئة المعلم في تحريرنا مما يقيدنا من عادات اعتباطية. فهو ينهي إلينا:"لا حاجة بكم إلى أن تبصروا دائماً الموجودات من الزوايا الاعتيادية المبتذلة،" ومن ثم فاللوحة في منتهى الإلهام."

ما أسرع ما انقلب حديثنا إلى صياح وعارض كل منا الآخر مستخدمين نظريات حول نوايا السيد موري. ورغم جدالنا، واصلنا اختلاس النظر إلى المعلم الذي لم يعطنا أية إشارة على موافقته على أي من نظرياتنا. أذكر أنه اكتفى بالوقوف هناك في النهاية القصية للحجرة وقد ربع يديه وجعل يتفرس في الفناء من خلال الشبكة الخشبية المثبتة بالنافذة فيما أطلت من وجهه نظرة توحي بالتأمل. استمع إلى جدالنا فترة من الوقت ثم استدار قائلاً: "ربما عليكم مغادرة المكان الآن. هناك بعض المسائل أود أن أتولى أمرها". ما إن فاه بهذه الكلمات حتى خرجنا جميعاً في صف واحد مغمغمين ثانية بآهات الإعجاب باللوحة الجديدة.

وفيما أحكي هذه الواقعة أدرك أن سلوك السيد موري قد يستوقفك وكأن به مسحة من العجرفة لكن ربما يسهل عليك فهم ما أبداه من تحفظ في مثل هذه المناسبات لو كنتَ أنت نفسك تشغل موقعاً لا ينفك الناس يبجلونه ويعجبون به. إذ ليس من المرغوب فيه أن يداوم المدرس على إلقاء التعليمات على تلاميذه وتقديم الآراء لهم؛ ففي كثير من المواقف يُفَضَّل أن يُمسك المدرس عن الكلام حتى يمنحهم الفرصة للنقاش والتأمل. وكما سبق القول أي شخص يفوز بمركز عظيم التأثير سوف يقدر هذا.

على أية حال كانت النتيجة تتابع المناظرات حول عمل معلمنا طيلة أسابيع متوالية. ومع الغياب المستمر لأي إيضاح من جانب السيد موري نفسه، نزعنا إلى الاعتماد على واحد منا، فنان اسمه ساساكي تمتع في تلك المرحلة بمكانة التلميذ القائد عند السيد موري. ورغم أني قلت إن بعض المجادلات كان من

مكتبة الفكر الجديد

الممكن أن تستمر لأمد طويل، حالما يقرر ساساكي موقفه من القضية، يضع هذا في المعتاد نهاية للجدل. وبالمثل إن أوحى ساساكي أن لوحة شخص "غير وفية" بأية طريقة لتعاليم معلمنا، يؤدي هذا في كل الحالات تقريباً إلى استسلام فوري من قِبل المذنب الذي يهجر اللوحة تواً أو يحرقها مع النفاية في بعض الحالات.

أذكر بحق أن السلحفاة دمر أعماله مراراً وتكراراً لعدة شهور عقب وصولنا معاً إلى الفيلا تحت مثل هذه الظروف. ففي حين كنتُ أنا قادراً على الاندماج بكل سهولة مع أسلوب عملهم هناك، أنتج رفيقي المرة تلو المرة أعمالاً تبرز عناصر تتعارض بوضوح مع مبادئ معلمنا. ناشدتُ زملائي الجدد عدة مرات شارحاً لهم نيابة عنه أنه لا يتعمد عدم الإخلاص للسيد موري. وخلال تلك الأيام الأولى طالما دنا السلحفاة مني بسحنة يكللها الحزن وقادني لأرى أحد أعماله غير المكتملة قائلاً بصوت منخفض: "يا سيد أونو، قل لي أرجوك، أهذه اللوحة تشبه ما قد ينتجه المعلم؟"

حتى أنا كان السخط يتولاني أحياناً حين أكتشف أنه استعمل غافلاً - رغم الانتقادات - واحداً من العناصر المزعجة إزعاجاً لا اختلاف عليه. فأولويات السيد موري لم تكن صعبة مطلقاً على الفهم. فقد أُطلق أيامها لقب "يوتامارا الحديث" عدة مرات على معلمنا، وبرغم أنه نعت كان يُمنح بسهولة زائدة لأي فنان قدير تخصص حينذاك في تصوير نساء حي المتعة، يميل اللقب إلى تلخيص اهتمامات السيد موري بدقة. ذلك أن السيد موري كان يعمد إلى محاولة "تحديث" تعاليم يوتامارا؛ ففي العديد من أشد لوحاته تميزاً - "ربط طبلة الرقص" مثلاً أو "بعد الاستحمام" - يرسم المرأة من الخلف على نمط يوتامارا الكلاسيكي. والعديد من مثل تلك الملامح الكلاسيكية تتكرر في أعماله: امرأة تمسك بمنشفة أمام وجهها، أخرى تمشط شعرها الطويل. وقد استعمل السيد موري الأداة التقليدية الممثلة في التعبير عن المشاعر بشكل كلي وذلك من خلال منسوجات تمسك بها المرأة أو ترتديها بدلاً من استخدام ما

مكتبة الفكر الجديد

يعلو وجهها من تعبير. غير أن أعماله حفلت في نفس الوقت بتأثيرات أوروبية عدها أشد المعجبين بيوتامارا إخلاصاً بمثابة هجوم على تعاليمه؛ إذ أقلع مثلاً منذ فترة طويلة عن استخدام الخطوط الغامقة التقليدية لتحديد الأشكال وآثر الاستخدام الغربي لمجموعات الألوان مع الأضواء والظلال لخلق هيئة ثلاثية الأبعاد. كما اقتدى بلا مراء بالأوروبيين في اهتمامه الأول والأخير: ألا وهو استعمال الألوان المخففة. فقد كانت رغبة السيد موري أن يستثير سوداوية ما داخل جو ليلي يحف بنسائه، وطوال الأعوام التي درستُ فيها تحت رعايته، أجرى تجارب موسعة على الألوان في محاولة منه لانتزاع الإحساس بضوء المشكاة. ولأجل هذا كان دائماً تصوير المشكاة بمكان ما في اللوحة - بالإيحاء إن لم يكن في الواقع - علامة تميز أعمال السيد موري. وربما يكون نموذجاً لبطء السلحفاة في إدراك أساسيات فن السيد موري أنه، حتى بعد قضاء عام بالفيلا، كان يستخدم ألواناً تُحدث الأثر الخاطئ تماماً ثم يتساءل بعدها عن سبب اتهامه ثانية بعدم الوفاء في حين أنه تذكر إضافة مشكاة ضمن تركيبته.

وعلى الرغم من كل مرافعاتي، ضاق أمثال ساساكي ذرعاً بمصاعب السلحفاة، وكان الجو ينذر أحياناً بالعداء تجاه رفيقي بالضبط مثلما حدث معه بشركة السيد تاكيدا. وأثناء عامنا الثاني بالفيلا حل بساساكي تغيير أدى إلى إظهاره عداوة معذبة اتخذت طبيعة أقسى وأقتم من أي شيء أضمره للسلحفاة من قبل.

أتصور أن كل مجموعات التلاميذ تنحو إلى اتخاذ قائد - شخص اصطفى المعلم قدراته كمثال يحتذي به الآخرون. هذا التلميذ القائد يميل إلى الاضطلاع بدور المترجم الأساسي لأفكار معلمه للتلاميذ الأقل خبرة والعاجزين عن استيعابها وذلك بفضل إلمامه العميق بأفكار أستاذه مثلما فعل ساساكي بالضبط. إلا أن نفس هذا التلميذ القائد هو على الأرجح مَن ستتكشف له عيوب أعمال أستاذه أو سيطور أفكاراً خاصة به تختلف عن أفكار معلمه. ونظرياً يتعين بطبيعة الحال على المعلم الكفء تقبل هذه النزعة وبالقطع الترحيب بها كعلامة على أنه آزر تلميذه للارتقاء إلى مرحلة النضج. غير أن المشاعر المواكبة قد تكون

مكتبة الفكر الجديد

غاية في التعقيد عند التطبيق. فالمرء أحياناً عندما يرعى تلميذاً موهوباً بمثابرة فترة طويلة، يصعب عليه ألا يرى في تلك الموهبة الناضجة خيانة له، وقد تطرأ بينهما بعض المواقف المؤسفة.

إن ما فعلناه مع ساساكي إثر خلافه مع معلمنا ليس إلى تبريره من سبيل بتاتاً، ولن يجدينا نفعاً تذكر تلك الأحداث هنا إلا أن ذاكرتي عن تلك الليلة التي تركنا فيها ساساكي واضحة وضوح الشمس في ذهني.

كان أغلبنا قد خلد إلى النوم قبل رحيله. كنتُ أرقد في فراشي مستيقظاً في الظلام بإحدى تلك الغرف المتهدمة عندما نمى إليّ صوت ساساكي. كان ينادي على شخص بالقرب من الشرفة بيد أنه لم يتلق رداً من المخاطب. تناهت إليّ في آخر الأمر أصوات ستارة تنغلق ووقع أقدام ساساكي وهي تدنو. سمعتُه يتوقف عند حجرة أخرى ويقول شيئاً لكن يظهر أن كلماته لم يقابلها سوى صمت جديد. اقتربتْ خطواته مع ذلك وسمعتُه يفتح ستارة الحجرة بجانبي قائلاً:

"نحن صديقان حميمان منذ سنين عديدة، ألن تتحدث معي على الأقل؟"

لم يجد ساساكي أية استجابة من المخاطب:

"ألن تخبرني فحسب بمكان اللوحات؟"

ظل السكون يرين على المكان لكن صك أذنيّ - وأنا راقد هناك في الظلام - صوت جرذان تعدو تحت ألواح أرضية تلك الغرفة المجاورة فتراءى لي هذا الضجيج نوعاً من الرد.

مضى صوت ساساكي: "لو كنتَ تعتبرها بغيضة إلى هذه الدرجة، فلا معنى لاحتفاظك بها. لكنها تعني لي الكثير الآن، أريد أن آخذها معي أينما سأذهب، فلستُ أملك ما آخذه سواها."

جاء صوت عدو الجرذان مرة أخرى كرد على طلبه ثم غشي المكان صمت طويل. دام الصمت فترة طويلة حقاً حتى إني ظننت أن ساساكي ابتعد في الظلام دون أن أسمعه. لكني سمعته عند ذاك ينبس مجدداً:

مكتبة الفكر الجديد

"لقد آذاني الآخرون أشد الإيذاء خلال هذه السنوات القليلة الماضية إلا أن أكثر ما آلمني هو رفضك أن تعطيني ولو مجرد كلمة عزاء واحدة."

أطبق صمت آخر سأل بعده ساساكي: "ألن تنظر حتى إليّ وتتمنى لي الخير؟"

في النهاية سمعتُ الستارة تنغلق وصوت خطوات ساساكي وهو ينزل الشرفة ويبتعد عبر الفناء.

لم يُذكر اسم ساساكي بالفيلا بعد رحيله إلا نادراً وفي المرات المعدودة التي ذُكر فيها، لم يُشر إليه سوى بـ "الخائن". أذكر بحق كيف كانت ذكرى ساساكي تصيبنا بالاستياء عندما أستدعي ما حدث مرة أو مرتين أثناء تلك النزاعات نابية الألفاظ التي كثيراً ما انغمسنا فيها.

كنا نميل في الأيام الدافئة إلى ترك ستائر غرفنا مفتوحة على وسعها، فكان في استطاعة المحتشدين في إحدى الحجرات أن يروا مجموعة ثانية تجتمع هي الأخرى في الجناح المقابل. سرعان ما ينتهي هذا الوضع إلى أن يصرخ أحدهم عبر الفناء بتعليق مستفز مضحك، فما تلبث المجموعتان أن تتجمعا في شرفتيهما لتتصايحا بالإهانات. ربما يبدو هذا التصرف منافياً للعقل حين أحكيه غير أن أسلوب تصميم الفيلا وما يُحدثه من أصوات مدوية عندما يصيح أحدهم من جناح لآخر شجعنا على الانهماك في تلك الخلافات الطفولية. كنا نرشق الآخرين بالإهانات على نطاق واسع - كأن نسخر من رجولة أحدهم أو لوحة اكتملت للتو - إلا أن تلك الإهانات خلت في الأغلب من أية نية للتجريح، وأذكر شجارات كثيرة مسلية بالفعل أغرقتْ كلا الجانبين في ضحك صاخب. من المؤكد أن ذكرياتي عن هذه الأحاديث تلخص بدقة ما استمتعنا به خلال تلك السنوات بالفيلا من مودة تخللها التنافس وكذا الروح العائلية. ومع ذلك حين أثير اسم ساساكي خلال هذه الإهانات مرة أو اثنتين، خرجتْ الأمور فجأة عن نطاق السيطرة، إذ تخطى الزملاء الحدود وتشاجروا بالفعل في الفناء. فتعلمنا سريعاً أن مقارنة شخص بـ "الخائن" ولو على سبيل الفكاهة لن تُستقبل بروح مرحة على الإطلاق.

مكتبة الفكر الجديد

علك تستنتج من تلك الذكريات أن تفانينا لمعلمنا ولمبادئه كان كاملاً جامحاً. إنما عقب إدراك طبيعة ما حدث بعد وقوعه - وفور تجلي عيوب نفوذ ما - يسهل توجيه الانتقاد إلى معلم عزز مثل ذاك المناخ. لكن من ناحية أخرى، فأي شخص تمسك بطموحات رفيعة أو شغل مكانة يحقق من خلالها إنجازاً ضخماً وشعر بالحاجة إلى نقل أفكاره شاملة ما استطاع، سيخامره بعض التعاطف مع الأسلوب الذي أدار به السيد موري دفة الأمور. فبرغم أن الأمر يبدو الآن سخيفاً قليلاً في ضوء ما لحق بمستقبله، انصبت مشيئة السيد موري وقتها على تغيير هوية فن الرسم بمدينتنا كلية. نشد كذلك هدفاً آخر لم يكن بأقل من الأول في ذهنه، ألا وهو تكريس وقت وفير وثروة هائلة لتنشئة التلاميذ، ولعله من المهم أن نتذكر هذا عند إصدار الأحكام على معلمنا السابق.

لا ريب أن تأثيره علينا لم يقتصر على عوالم الفن فحسب. فقد عشنا طيلة تلك السنوات وفقاً لقيمه وأسلوب حياته، واستتبع هذا قضاء وقت طويل في استكشاف "عالم المدينة العائم" - العالم الليلي للمتعة والتسلية والشرب، عالم كون خلفية جميع لوحاتنا. والآن يشملني حنين لا يفارقني عندما ينثال على ذاكرتي وسط المدينة كما كان أيامها؛ لم تكن الشوارع مشحونة إلى هذا الحد بضوضاء المرور وكانت المصانع تستنشق شذى الزهرات الموسمية من جو الليل. كنا نفضل ارتياد مقهى صغير يسمى "قناديل الماء" بجانب القناة في شارع كوجيما، فقد كان المرء يبصر بالفعل قناديل المنشأة منعكسة على مياه القناة حين يدنو منها. ربطتْ مالك المقهى صداقة قديمة بالسيد موري مما ضمن لنا الحصول على معاملة كريمة دوماً. أذكر ليالي هناك لا يمكن أن تُطوى في زوايا النسيان، أمضيناها في الغناء مع المضيفات والشرب معهن. اعتدنا كذلك الاختلاف إلى مكان آخر، قاعة الرماية بشارع ناجاتا حيث لم تمل صاحبة المكان أبداً من تذكيرنا بأن السيد موري استعان بها منذ سنين خلت - لمّا كانت فتاة جيشا بأكيهارا - كعارضة لمجموعة من الصور المطبوعة عن كليشيهات خشبية حققتْ رواجاً شديداً وقتها. كانت تشتغل في تلك القاعة نحو ست مضيفات أو

مكتبة الفكر الجديد

سبع، وبعد مضي برهة بات لكل منا الأثيرة لديه يبادلها الغليون ويقضي معها الليلة.

لم يكن لهونا محصوراً في رحلاتنا إلى المدينة. فقد ظهر أن للسيد موري سلسلة لا تنتهي من المعارف المنتسبين إلى عالم اللهو، إذ لم تنقطع عن الفيلا فرق جوالة فقيرة من الممثلين والراقصين والموسيقيين الذين احتفينا بهم وكأنهم أصدقاء نقابلهم بعد غيبة. كنا نحتسي كميات كبيرة من الخمر ويغني زوارنا ويرقصون طيلة الليل ثم ما نلبث أن نرسل أحدهم ليوقظ بائع الخمر في أقرب قرية لإمدادنا بالمزيد. كان أحد الزوار المعتادين أيامها قاصاً يدعى ماكي، وهو رجل سمين مرح الطوية يقدر من خلال طريقة أدائه للقصص القديمة أن يجعلنا نسترسل في حالة ضحك لا إرادي في لحظة ثم يُسيل دموعنا حزناً في اللحظة التالية. وفيما أعقب من سنوات صادفتُ ماكي مرات قليلة في الميجي-هيداري وانهمكنا بنبرات دهشة في ذكرياتنا حول تلك الليالي بالفيلا. كان ماكي على اقتناع أنه يتذكر حفلات عديدة تواصلتْ بلا انقطاع طوال الليل حتى النهار التالي ثم الليلة الثانية. وبرغم عدم تأكدي من هذا، كان عليّ أن أسلم بصحة ذكريات جرت نهاراً بفيلا السيد موري عندما كانت الأجساد النائمة أو المنهكة تتبعثر في كل مكان وقد تهالك بعضها في الفناء والتهبت أشعة الشمس فوقها.

على أن ذاكرتي أنشط عن إحدى تلك الليالي. كنتُ أسير وحدي في الفناء المركزي شاعراً بالامتنان لهبوب هواء الليل العليل ولهروبي لحظة من المرح الصاخب. أذكر أن قدميّ قادتاني حتى مدخل المخزن، وقبل أن أدلف إليه أرسلتُ نظرة خلفي عبر الفناء نحو الحجرة التي يرفه بها رفقائي وزوارنا عن بعضهم البعض، فشاهدتُ خيالات تتراقص خلف الستائر الورقية وترامى صوت مغن ينساب باتجاهي عبر سكون الليل.

اتخذتُ طريقي إلى المخزن لعلمي أنه أحد الأماكن القليلة في الفيلا التي تتيح الفرصة للمرء أن يمكث بلا إزعاج لأية فترة من الوقت. أتخيل أن الحجرة كانت تستعمل في الأيام الغابرة في تخزين الأسلحة والدروع لمّا كان الحراس

مكتبة الفكر الجديد

والخدم يقيمون بالفيلا. غير أني حين دخلتها ليلتها وأضأت المصباح المعلق فوق الباب، وجدتُ الأرضية مكتظة إلى آخرها بأكوام من كل نوع وصنف وقد استحال عبورها بدون أن أثب من فراغ إلى فراغ؛ زخر المكان بأكوام من اللوحات القديمة مربوطة معاً بحبال، وحوامل مكسرة، وكل ضروب القدور والجرار تتأ منها الفرش والعصي. تغلبتُ على العقبات حتى بلغتُ مكاناً خالياً على الأرضية جلستُ عليه. لاحظتُ أن المصباح الموضوع فوق الباب يجعل الأشياء تلقي ظلالاً ضخمة حولي؛ كان أثراً مخيفاً أشعرني وكأني جالس في نسخة مصغرة من مقبرة غريبة.

لا بد وأني غرقت في تأملاتي لأني أذكر أني جفلت من صوت باب المخزن وهو ينفتح. رفعتُ نظري لأرى السيد موري بالمدخل فسارعتُ بالقول: "مساء الخير يا معلم."

ربما لم يبعث المصباح نوراً كافياً لإلقاء الضوء على مجلسي من الحجرة أو على وجهي الذي قبع في الظل. على كل حدق السيد موري إلى الأمام قائلاً:

"مَن هذا؟ أونو؟"

"أجل يا معلم."

راح يرنو إلى الأمام هنيهة ثم تناول المصباح من فوق العارضة وأمسكه أمامه. أخذ يتقدم نحوي واطئاً بحذر الأشياء الملقاة على الأرضية. وفي أثناء ذلك. تحركتْ الظلال في كل مكان حولنا متأثرة بحركة المصباح. أسرعتُ بإفساح مكان إلا أنه سبقني وجلس على مقربة فوق صندوق خشبي قديم. أطلق تنهيدة قائلاً:

"خرجتُ لأستنشق القليل من الهواء النقي فوقعتْ عيناي على الضوء هنا. عم الظلام جميع الأنحاء عدا هنا. فقلتُ لنفسي، بما أن المخزن لا يصلح لاختباء العشاق، فأياً كان الموجود هناك لا بد أنه يشعر بالوحدة."

"أخالني كنت أجلس في حلم يا معلم، فلم أكن أعتزم البقاء هنا طويلاً."

كان قد وضع المصباح على الأرضية بجانبه، فلم أستطع أن أرى سوى

مكتبة الفكر الجديد

شبحه. أطلعني: "الظاهر أن إحدى الراقصات مفتونة بك، وستصاب بخيبة أمل لو اكتشفتْ أنك أضعت الليلة هنا."

"لم أقصد أن أبدو وقحاً مع ضيوفنا يا معلم. فأنا مثلك، ما خرجتُ سوى لاستنشاق بعض الهواء النقي."

استعنا بالصمت هنيهة. وعبر الفناء كان بمقدورنا سماع رفاقنا يغنون ويصفقون بأياديهم في تناغم إيقاعي.

أفضى السيد موري في آخر الأمر: "حسناً يا أونو، ما رأيك في صديقي القديم جيزابورو؟ شخصية فريدة."

"فعلاً يا معلم. يبدو سيداً في غاية الدماثة."

"لعله يرتدي ملابس مهلهلة هذه الأيام لكنه كان ذات يوم شخصية طبق صيتها الآفاق. وكما بَين لنا الليلة ما زال يتمتع بالكثير من مهاراته السابقة."

"بالفعل."

"إذن ماذا يقلقك يا أونو؟"

"يقلقني يا معلم؟ آه، لا شيء بالمرة."

"هل يضايقك شيء ما في شخصية جيزابورو العجوز؟"

"أبداً يا معلم،" قلت وأنا أضحك ارتباكاً. "ياه، مطلقاً. إنه سيد جذاب بحق."

أمضينا فترة وجيزة نطرق مواضيع أخرى، أي شيء جال في خاطرنا. لكن عندما رد السيد موري الحديث إلى "قلقي" ثانية واتضح أنه على استعداد أن يقعد هناك منتظراً حتى أفضي بسريرة قلبي، صارحتُه في النهاية:

"يتراءى لي حقاً أن السيد جيزابورو رجل مهذب في منتهى الطيبة. كان راقصوه كرماء أيما كرم لترفيههم عنا. بيد أني لا أتمالك يا معلم التفكير في الأمر، لقد كثرتْ زيارات أمثالهم خلال هذه الشهور القليلة الماضية."

لم تنفرج شفتاه عن رد، لذا مضيت أبوح:

"لا تؤاخذني يا معلم. أنا لا أعني التقليل من احترام السيد جيزابورو

مكتبة الفكر الجديد

وأصدقائه. لكن أحياناً ما أشعر بالقليل من الحيرة، الحيرة لأننا نحن أهل الفن نكرس وقتاً طويلاً للاستمتاع بصحبة أمثال السيد جيزابورو."

أعتقد أن معلمي نهض عند تلك اللحظة تقريباً وسار والمصباح في يده قاصداً الحائط الخلفي للمخزن. كان الجدار غارقاً في الظلمة لكن ما إن رفع المصباح قبالته حتى كشف بجلاء عن ثلاث صور مطبوعة عن كليشيهات خشبية معلقة على الحائط الواحدة تحت الأخرى، تصور كل منها فتاة جيشا من ظهرها وهي جالسة على الأرضية تعدل تسريحة شعرها. دقق السيد موري في الصور لحظات قليلة محركاً المصباح من صورة لأخرى ثم هز رأسه وغمغم لروحه: "بها عيوب جسيمة. يعيبها الاحتفال بالتوافه". مرت عدة ثوان أردف بعدها دون أن يشيح بنظره عن الصور: "غير أن المرء دائم التعلق بأعماله الأولى. لعلك ستشعر ذات يوم بالمثل نحو ما قمت به من عمل هنا." هز رأسه تارة أخرى قائلاً: "لكن تشوب جميع هذه الصور عيوب جسيمة يا أونو."

"أنا لا أوافقك الرأي يا معلم. في اعتقادي أن هذه الصور أمثلة رائعة على سمو موهبة الفنان فوق تخوم أسلوب محدد. لقد اعتقدتُ في أحيان كثيرة أن حبس صور المعلم الأولى في مثل هذه الغرف عار شنيع. إذ لا بد من غير ريب أن تُعرض مع لوحاته."

ظل السيد موري منهمكاً في صوره ثم كرر: "بها عيوب جسيمة. لكن أحسبني كنت غراً صغيراً." حرك مصباحه من جديد فخبت لوحة في العتمة في حين ظهرتْ أخرى للعيان. ثم أنهى إليّ: "كل هذه مشاهد من أحد منازل فتيات الجيشا بهونشو، منزل كان له اعتباره في أيام شبابي. اعتدنا أنا وجيزابورو أكثر ما اعتدنا زيارة تلك الأماكن معاً." ثم أعاد بعد لحظة أو اثنتين: "بها عيوب جسيمة يا أونو."

"لكني لا أستطيع أن أقف على العيوب التي يمكن أن تلتقطها أكثر العيون تمييزاً في هذه الصور."

مكتبة الفكر الجديد

ما انفك يتفحص الصور دقائق أخرى ثم شرع في العودة إلى مكانه عبر الحجرة. بدا لي أنه أنفق وقتاً مبالغاً فيه حتى تخطى عقبات الأرضية؛ كنتُ أسمعه أحياناً يتمتم لنفسه وصوت قدمه تدفع جرة أو صندوقاً. خلته بالفعل مرة أو مرتين ينشد شيئاً في فوضى الأكوام، ربما المزيد من صوره المبكرة، إلا أنه اتخذ مكانه في النهاية على الصندوق الخشبي القديم وندت عنه تنهيدة. لفنا السكون لحظات ثم أسر إليّ:

"إن جيزابورو رجل تعيس. فقد أخذ بأسباب حياة بائسة. ألمّ الخراب بموهبته. مات من أحبهم ذات يوم أو هجروه منذ زمن بل إنه كان في شبابنا شخصية لا تزايلها الوحدة والحزن." كف السيد موري لحظة ثم استأنف: "لكننا درجنا أحياناً على الشرب والاستمتاع بنساء أحياء المتعة ليتذوق بعدها جيزابورو السعادة. فقد كانت أولئك النسوة تلقين على أذنيه بكل ما يهفو إليه، وأياً ما كان يصدقهن لمدة سواد الليل. لكن ما إن يبزغ الصباح حتى يثوب إلى رشده، كان بالطبع أذكى من أن يصدق تلك الكلمات. غير أن جيزابورو لم يجل تلك الليالي لهذا السبب؛ فقد اعتاد دوماً أن يقول إن أفضل الأشياء تجتمع ليلاً ثم يتلاشى أثرها صباحاً. ما يسميه الناس العالم العائم يا أونو هو عالم فطن جيزابورو إلى كيفية تقديره."

أحجم السيد موري مجدداً عن الكلام. واستطعت كالسابق أن أرى هيئته مجرد شبح لكن خامرني انطباع أنه يصغي لأصوات العربدة المقبلة من الجانب الآخر للفناء. ثم خرج عن صمته: "هو الآن أكبر سناً وأشد حزناً لكن أدركه تغيير طفيف. هو الليلة سعيد، تماماً مثلما ألف أن يكون بمنازل المتعة تلك". سحب نفساً طويلاً كمن يدخن تبغاً ثم راح يقول: "إن أروع ضروب الجمال وأكثرها رقة التي يأمل أي فنان انتزاعها تنساب داخل منازل المتعة تلك بعد أن يسدل الليل أستاره. وفي مثل هذه الليالي يا أونو يتسرب بعض من ذلك الجمال داخل أحيائنا هنا. بيد أن تلك الصور المعلقة هناك لا تلمح حتى إلى هذه الصفات الزائلة الخادعة. ففيها الكثير من العيوب يا أونو."

مكتبة الفكر الجديد

"لكني أرى يا معلم أن تلك الصور توحي بلغة متناهية التأثير بتلك الصفات."

"كنتُ صغيراً جداً عندما أعددت هذه الصور. أظنني لم أمجد العالم العائم لأني ما استطعت أن أحمل نفسي على الإيمان بقيمته. فكثيراً ما ينوء الشباب بأثقال الذنب من جراء الملذات، وأحسبني لم أختلف عنهم في شيء. أتصور أني اعتقدت أن إهدار الوقت في مثل تلك الأماكن وتبديد مهارات الإنسان في الاحتفاء بنشاطات مجردة عابرة به شيء من الضياع والفساد. فمن العسير أن يعجب الإنسان بجمال عالم حين يرتاب في شرعيته ذاتها."

تفكرتُ في حديثه ثم أقررت: "من الحق أن أعترف يا معلم أن ما انتهيتَ إليه قد ينطبق على عملي أنا أيضاً، لهذا لن أدخر وسعاً لتصحيحه."

يبدو أن السيد موري لم يسمعني، إذ استطرد قائلاً: "على أني نفضتُ يا أونو كل تلك الشكوك منذ أمد بعيد. وعندما يمتد بي العمر وأطل على حياة خلفتُها ورائي لأجدني كرستها لمهمة أسر الجمال الفريد لذلك العالم، سأكون قرير العين ولن يدفعني أي إنسان إلى الاعتقاد أني ضيعت وقتي سدى."

يجوز طبعاً أن السيد موري لم يفه بتلك الكلمات تحديداً. فبعد تأمل تلك العبارات، تظهر في الواقع أقرب إلى نوعية العبارات التي كنتُ أنا نفسي أصرح بها لتلاميذي بعدما نشرب قليلاً بالميجي-هيداري. "باعتباركم الجيل الجديد من الفنانين اليابانيين، أنتم تحملون على عاتقكم مسؤولية ثقافة هذه الأمة. إني أشعر بالفخر لأن لدي تلاميذ مثلكم. وعلى حين أني قد لا أستحق غير أقل الثناء على لوحاتي، عندما أتطلع إلى حياتي من ورائي وأتذكر أني احتضنتكم وعاونت مسيرتكم، لن يجعلني أي إنسان أعتقد أني ضيعت وقتي هباء". وكلما كنت ألقي بأحد تلك التصريحات، تتعالى حول المائدة كل أصوات هؤلاء الشباب المجتمعين لتحجب القوية منها الضعيفة احتجاجاً على نبذي للوحاتي صارخين بأنها بلا شك أعمال عظيمة واثقة من مكانتها عبر الأجيال المقبلة. لكني أشرت من قبل أني ورثت فعلاً من السيد موري عبارات وتعبيرات كثيرة أضحت صفة

مكتبة الفكر الجديد

مميزة لشخصي، فهناك احتمال كبير أن تكون تلك الكلمات هي عين كلمات معلمي ليلتها وقد رسختْ في ذهني لِما خلفتْه من انطباع قوي وقتئذ.

غير أني عدت إلى الانحراف عن الموضوع. كنتُ أحاول استدعاء الغداء الذي تناولتُه بالمركز التجاري مع حفيدي الشهر الفائت عقب تلك المحادثة المزعجة مع سيتسوكو بمتنزه كاواب. أعتقد في الحقيقة أني كنت أتذكر على الأخص إطراء إشيرو الذي أضفاه على السبانخ.

فور وصول غذائنا جلس إشيرو منشغلاً بالسبانخ في طبقه دافعاً إياها بملعقته. رفع وجهه قائلاً: "انظر يا أوجي!"

راح حفيدي يكوم أكبر كم ممكن من السبانخ بملعقته ثم رفعها عالياً في الهواء وجعل يسكبها في فمه كمن يشرب البقية الباقية في زجاجة.

"عيب يا إشيرو."

إلا أن حفيدي ظل يصب المزيد من السبانخ في فمه وهو يمضغ بنشاط طيلة الوقت. لم يخفض ملعقته سوى لمّا فرغتْ وامتلأ خداه إلى حد الانفجار. ثبّت بعد ذلك تعبيراً متجهماً على وجهه وهو لا يزال يمضغ ثم دفع صدره إلى الأمام لاكماً الهواء حوله.

"ماذا تفعل يا إشيرو؟ أخبرني ماذا يشغلك."

"خمن يا أوجي!" قال وهو يلوك السبانخ.

"أ أ. لا أعرف يا إشيرو. رجل يحتسي الساكي ويقاتل. لا؟ قل لي أنت إذاً. لا يستطيع أوجي التخمين."

"البحار جاحظ العينين!"

"مَن هذا يا إشيرو؟ بطل آخر من أبطالك؟"

"يأكل البحار جاحظ العينين السبانخ لتزوده بالقوة."

دفع صدره ثانية إلى الأمام وسدد للهواء مزيداً من اللكمات.

"فهمتُ يا إشيرو،" قلت ضاحكاً. "السبانخ طعام رائع حقاً."

"أيجعلك الساكي قوياً؟"

مكتبة الفكر الجديد

ابتسمت وهززت رأسي: "الساكي يجعلك تعتقد أنك قوي إنما الحقيقة يا إشيرو هي أنك لا تزداد قوة عن سابق شربك له."

"إذاً لِم يا أوجي يشرب الرجال الساكي؟"

"لا أعلم يا إشيرو. ربما لأنهم يستطيعون الاعتقاد أنهم أقوياء هنيهة لكن الساكي لا يمد الرجل بالقوة بالفعل."

"تزودك السبانخ بالفعل بالقوة."

"إذن فالسبانخ أفضل بكثير من الساكي. استمر يا إشيرو في تناول السبانخ. لكن انظر، ماذا عن كل هذه الأصناف الأخرى بطبقك؟"

"أنا أحب شرب الساكي والويسكي. هناك حانة في مدينتي أذهب دائماً إليها."

"أحقاً يا إشيرو؟ أظنه يحسن بك أن تواصل أكل السبانخ، فهي كما تقول تجعلك قوياً فعلاً."

"أنا أحب الساكي أكثر. أشرب عشر زجاجات كل ليلة ثم أشرب عشر زجاجات ويسكي."

"صحيح يا إشيرو؟ هذا هو الشرب الحقيقي وإلا فلا. لا بد أن هذا يسبب صداعاً حقيقياً لأمك."

"النساء لا تفهمن أبداً طبيعة شربنا نحن الرجال،" قال إشيرو ثم صرف انتباهه إلى الغداء الموضوع أمامه. إلا أنه ما لبث أن رفع عينيه ثانية: "سيأتي أوجي على العشاء الليلة."

"نعم يا إشيرو، أتوقع أن تعد خالتك نوريكو طعاماً شهياً."

"أحضرتْ خالتي نوريكو بعض الساكي وقالت إن أوجي والعم تارو سيشربانه كله."

"حسناً، ربما نشربه كله حقاً. أنا متأكد أن النساء سوف يلذ لهن احتساء القليل منه أيضاً. لكنها على حق يا إشيرو، الساكي بالأساس شراب الرجال."

"ماذا يحدث يا أوجي إن شربتْ النساء الساكي؟"

مكتبة الفكر الجديد

"أ أ. لا يمكن تخمين هذا. فالنساء لسن في قوتنا نحن الرجال يا إشيرو، لذا قد يسكرن بسرعة البرق."

"ربما تسكر خالتي نوريكو! قد تشرب كأساً صغيرة وتسكر تماماً."

انطلقتْ ضحكة من بين شفتيّ: "نعم، محتمل جداً."

"ربما تسكر خالتي نوريكو تماماً! وستصدح بأغان ثم تهوي نائمة على المائدة!"

"طيب يا إشيرو،" قلت والضحك لا يذهب عني. "يستحسن إذاً أن نحتفظ بالساكي لأنفسنا نحن الرجال، أليس كذلك؟"

"الرجال أقوى، لذا نستطيع أن نشرب أكثر."

"صحيح يا إشيرو. الأفضل أن نحتفظ بالساكي لأنفسنا."

تفكرتُ لحظة ثم أضفت: "أظنك في الثامنة الآن يا إشيرو. ستكبر لتغدو رجلاً ناضجاً. مَن يعلم؟ ربما يعمل أوجي على أن تحصل على بعض الساكي الليلة."

صوب حفيدي إليّ نظرة تنم عن إحساسه بالتهديد ولم ينبس بكلمة. وجهتُ إليه ابتسامة ثم رنوت إلى السماء الرمادية الباهتة من النافذة العريضة بجواري.

"لم تقابل خالك كنجي قط يا إشيرو. عندما كان في مثل عمرك، كان في مثل حجمك وقوتك. أذكر أنه تذوق الساكي لأول مرة لمّا كان في سنك تقريباً. سأعمل على أن تتذوق قليلاً منه الليلة."

بدا إشيرو وكأنه يدرس المسألة لحظة ثم قال:

"ربما تعمل أمي مشكلة."

"لا تقلق من أمك يا إشيرو. سيقدر أوجي على التعامل معها."

هز إشيرو رأسه في سأم. "لا تفهم النساء أهمية احتساء الرجال للساكي."

"لقد حان الوقت لرجل مثلك أن يتذوق الساكي. لا تشغل بالك يا إشيرو، دع أمك لأوجي. لا يمكننا أن ندع النساء يتحكمن فينا، أليس كذلك؟"

ظل حفيدي منهمكاً في أفكاره هنيهة ثم علا صوته فجأة:

مكتبة الفكر الجديد

"قد تسكر خالتي نوريكو!"

"سنرى يا إشيرو،" قلت ضاحكاً.

"قد تسكر خالتي نوريكو تماماً."

مرت خمس عشرة دقيقة أو نحوها ونحن في انتظار الآيس كريم ثم سأل إشيرو بصوت متفكر:

"يا أوجي أكنتَ تعرف يوجيرو ناجوشي؟"

"لا بد أنك تعني يوكيو ناجوشي. لا، لم يسبق لي أبداً معرفته معرفة شخصية."

لم يبدر من حفيدي أي رد فعل مشغولاً على ما يظهر بالفرجة على انعكاس صورته على لوح الزجاج المجاور.

رحت أقول: "يبدو أن أمك كانت تفكر هي الأخرى في السيد ناجوشي حين تحدثتُ معها بالمتنزه هذا الصباح. أفهم من ذلك أن الكبار كانوا يتكلمون عنه على العشاء الليلة الماضية، أليس كذلك؟"

مضى إشيرو يحملق برهة إلى انعكاس صورته ثم استدار إليّ متسائلاً:

"أكان السيد ناجوشي مثل أوجي؟"

"أكان السيد ناجوشي مثلي؟ حسناً، يبدو أن أمك لا تعتقد هذا. الحكاية يا إشيرو هي أني كنت أقول شيئاً لعمك تارو في مرة من المرات ولم أكن جاداً فيما قلته. لكن البادي أن أمك أخذته على محمل جاد زيادة عن اللزوم. بالكاد أذكر ما قلته آنذاك للعم تارو لكن حدث أن أوحى أوجي أنه يشترك في أمر أو اثنين مع أشخاص كالسيد ناجوشي. الآن أخبرني يا إشيرو، ماذا كان الكبار يقولون الليلة الماضية؟"

"لِم قتل السيد ناجوشي نفسه يا أوجي؟"

"لا يمكن معرفة هذا على وجه اليقين يا إشيرو. فأنا لم أكن أعرف السيد ناجوشي شخصياً قط."

"لكن أكان رجلاً شريراً؟"

مكتبة الفكر الجديد

"لا. ما كان رجلاً شريراً. لم يكن سوى شخص عمل مجتهداً على أن يصنع ما حسبه في سبيل الخير. لكن تعرف يا إشيرو؟ حين انتهت الحرب، اختلفتْ الأمور تماماً. كانت الأغاني التي لحنها السيد ناجوشي ذائعة الصيت، ليس في المدينة فقط بل في أرجاء اليابان كافة. غناها المغنون في المذياع والحانات وصدح أمثال خالك كنجي بها وهم يتقدمون إلى المعركة أو قبلها. وبعد أن انتهت الحرب، ظن السيد ناجوشي أن أغانيه كانت - يعني - نوعاً من الخطأ. إذ تفكر في كل مَن لقي حتفه وكل الصبية الذين في سنك يا إشيرو وحُرموا من آبائهم، فكر في كل هذه الأشياء وظن أن أغانيه ربما كانت غلطة. فشعر أن من واجبه أن يقدم اعتذاراً لكل مَن عاش، لصبية صغار حُرموا من آبائهم ولآباء فقدوا صبية صغاراً مثلك. أراد أن يقول لكل هؤلاء الناس: أنا آسف. أعتقد أن هذا هو سبب انتحاره. لم يكن السيد ناجوشي رجلاً شريراً البتة يا إشيرو. فقد تحلى بالشجاعة عندما اعترف بأخطائه واتصف بكل شجاعة وشرف."

كان إشيرو يرمقني وهو مستغرق في التفكير، فضحكتُ قائلاً: "ما بالك يا إشيرو؟"

هم حفيدي بالتحدث لكنه التفت ثانية لينظر إلى وجهه المنعكس على الزجاج.

"ما قصد جدك أوجي أي شيء بقوله إنه يشبه السيد ناجوشي. كانت دعابة ليس إلا. أخبر أمك بذلك عندما تسمعها مرة ثانية تتحدث عن السيد ناجوشي. لأنه من كلامها هذا الصباح، أستطيع أن أقول إنها فهمت الأمر برمته بشكل خاطئ تماماً. ماذا بك يا إشيرو؟ حط عليك الهدوء فجأة."

عقب تناول الغداء قطعنا بعض الوقت في التجول بين محلات وسط المدينة، نتفرج على اللعب والكتب. وقرب انتهاء الظهيرة ابتعت لإشيرو آيس كريم آخر من أحد المقاهي الأنيقة الكائنة بحذاء شارع ساكوراباشي وذلك قبل أن نتوجه إلى شقة تارو ونوريكو الجديدة بإيزوميماشي.

ومنطقة إيزوميماشي أصبح من الشائع، كما قد تعلم، أن يسكنها الآن

مكتبة الفكر الجديد

الأزواج الشبان القادمون من بيئات اجتماعية أرقى، فهي تتميز ولا شك بجو مهذب محترم. لكن يلوح لي أن أغلب العمارات حديثة الإنشاء التي جذبتْ هؤلاء الأزواج الشبان تفتقر إلى الإبداع ويعيبها الضيق. فشقة تارو ونوريكو مثلاً صغيرة مكونة من حجرتين في الطابق الثالث: الأسقف منخفضة والأصوات تصل إليها من الشقق المجاورة والنافذة تشرف كلية على المبني المقابل ونوافذه. وبعد قضاء بعض الوقت في المكان، بدأتُ أجده خانقاً من فرط ضيقه، وأنا موقن أن هذا لا يعود فقط إلى اعتيادي على منزلي التقليدي الأكثر رحابة. على أن نوريكو فخورة أي فخر بشقتها وما تنفك تطري خصائصها "الحديثة". إذ يبدو أنه من الميسور للغاية الحفاظ على نظافتها والتهوية بها شديدة، الفاعلية والمطابخ والحمامات بالأخص مصممة على الطراز الغربي بالمبنى كله، وابنتي تؤكد لي أنها أكثر عملية بمراحل من - مثلاً - المنافع الموجودة ببيتي.

مهما كان المطبخ مريحاً، فهو أشد ما يكون صغراً، وعندما دلفتُ إليه في ذلك المساء لأرى كيف تتقدم الوجبة على يد ابنتيّ، لم يتسع لي كي أقف به، فلم أمكث لأتحدث معهما طويلاً، إذ بدتا كذلك مشغولتين. لكني علقت في إحدى اللحظات:

"أتعلمين؟ قال لي إشيرو إنه متحمس لتذوق القليل من الساكي."

كانت سيتسوكو ونوريكو تقفان متجاورتين وهما تُقطِّعان الخضراوات، فإذا بهما تكفان وترفعان بصريهما إليّ.

استطردتُ: "أعطيت الموضوع بعض التفكير وقررت أنه من الممكن أن ندعه يتذوق مقداراً قليلاً لكن ربما ينبغي أن تخففيه ببعض الماء."

"معذرة يا أبي، لكن أتقترح أن يشرب إشيرو الساكي الليلة؟" استفسرتْ سيتسوكو.

"القليل منه فحسب، فهو قبل كل شيء ولد لا يزال في طور النمو. لكن كما قلتُ يحسن بك أن تخففيه."

مكتبة الفكر الجديد

تبادلتْ ابنتاي النظرات ثم قالت نوريكو: "إنه لا يزال في الثامنة يا أبي."

"ليس ثمة ضرر ما دمت ستخلطينه بالماء. قد لا تفهمن أنتن النساء لكن هذه الأشياء تعني الكثير بالنسبة لولد صغير مثل إشيرو. إنها مسألة كبرياء. سوف يتذكر هذا الحدث بقية عمره."

"يا أبي، هذا هراء. كل ما سيحدث هو أن إشيرو سيمرض،" اعترضتْ نوريكو.

"هراء أم لا، لقد قلّبتُ الموضوع بعناية. أنتن النساء أحياناً لا تبدين تعاطفاً كافياً مع كبرياء ولد." أشرت إلى زجاجة الساكي الموضوعة على الرف فوق رأسيهما وقلت: "جرعة صغيرة فقط ستفي بالغرض."

هممت بالخروج عقب هذه الكلمات الأخيرة بيد أني سمعت نوريكو تقول: "هذا غير مطروح للنقاش يا سيتسوكو. لا أدري ماذا يدور في ذهن أبي."

"لِم كل هذا الهرج والمرج؟" قلت مستديراً عند المدخل. فقد وردتْ إليّ من خلفي أصوات تارو وحفيدي يتضاحكان على شيء ما بحجرة المعيشة. خفضتُ صوتي واستطردتُ: "على أي حال أنا أعطيته وعداً الآن وهو يتوق إلى التجربة. أنتن النساء لا تفهمن أحياناً في مسائل الكبرياء."

كنتُ على وشك ترك المطبخ ثانية عندما تحدثتْ سيتسوكو هذه المرة:

"إنه عطف كبير من أبي أن يراعي مشاعر إشيرو بهذا الاهتمام لكن ألا تراه قد يكون من المستحسن أن ننتظر حتى يكبر إشيرو قليلاً؟"

صدرتْ عني ضحكة خافتة: "أتعلمين؟ أذكر احتجاج أمك بنفس تلك الطريقة تماماً حين قررتُ أن أترك كنجي يتذوق الساكي في هذه السن، والساكي بالتأكيد لم يؤذ أخاك."

شعرتُ بالندم في الحال لإقحامي كنجي في مثل هذا الخلاف التافه وأعتقد بحق أني تضايقت من نفسي أيما ضيق برهة، لذا يجوز أني لم أعر ما قالته سيتسوكو بعدها اهتماماً كبيراً. مهما يكن يبدو أنها قالت شيئاً من قبيل:

"لا شك يا أبي أنك أوليت تربية أخي عناية بالغة إنما في ضوء ما جرى

مكتبة الفكر الجديد

في الماضي، ربما نستطيع أن ندرك أن أفكار أمي كانت بحق الأكثر سداداً فيما يتعلق بموضوع أو اثنين على الأقل."

كي أكون منصفاً، يُحتمل أنها لم تقل أي شيء بغيضاً إلى هذه الدرجة، ويجوز حقاً أني أسأت كلية فهم ما قالته لأني أذكر بوضوح أن نوريكو لم يصدر عنها بتاتاً أي رد فعل تجاه كلمات أختها سوى أنها عادت متبرمة إلى تقطيع خضراواتها، فضلاً عن أني لا أخال سيتسوكو قادرة على إقحام ملحوظة لا مبرر لها على الإطلاق مثل هذه في الحديث. لكن من جانب آخر، حين آخذ بعين الاعتبار التلميحات التي ألقتها بمتنزه كاواب في وقت سابق من نفس اليوم، أظن أن عليّ أن أعترف باحتمالية قولها بالفعل كلمات لها مثل هذا الوقع. على كل أذكر أن سيتسوكو ختمت حديثها:

"بالإضافة إلى أني أخشى ألا يرغب سويشي في أن يحتسي إشيرو الساكي حتى يكبر قليلاً، لكن هذا لطف بالغ من أبي أن يولي مشاعر إشيرو هذه العناية."

مع إدراكي أن إشيرو قد يسمع حديثنا مصادفة ولأني ما أردت أن أفسد ما كان لم شمل عائلي يندر حدوثه، تركتُ النقاش ينتهي عند هذا الحد وخرجتُ من المطبخ. أذكر أني جالست تارو وإشيرو هنيهة في غرفة المعيشة، نخوض في الأحاديث الممتعة ونحن ننتظر العشاء.

جلسنا أخيراً لتناول الطعام بعد نحو ساعة. وفيما كنا نأكل، مد إشيرو يده إلى قارورة الساكي ونقر عليها بأصابعه وهو يرميني بنظرة تشي بسرنا. تبسمتُ له دون أن أفتح فمي بكلمة.

جهزتْ النساء وجبة عامرة وسرعان ما تدفق الحديث بيننا بعفوية. أضحكنا تارو كلنا عندما حكى قصة أحد زملائه بالعمل اشتهر بعدم التزامه الكامل بمواعيد إنجاز شغله بسبب مزيج من سوء حظه وغبائه الهزلي. وبينما كان يروي القصة، قال تارو:

"تفاقمتْ الأمور حقاً حتى إنه يبدو أن رؤساءنا اعتادوا تسميته بالسلحفاة.

مكتبة الفكر الجديد

وأثناء اجتماع مؤخراً، نسي السيد هياساكا نفسه وأعلن بالفعل: 'سنستمع لتقرير السلحفاة ثم نأخذ استراحة الغداء.' "

"حقاً؟" هتفتُ به دهشاً. "هذا في منتهى الغرابة، أنا نفسي كان لدي زميل ذات يوم يُلقب بهذه الكنية ولنفس الأسباب على ما يظهر."

غير أن تارو لم يبد بالغ الاندهاش لهذه المصادفة، إذ أومأ بأدب قائلاً: "أذكر أنه كان هناك أيضاً تلميذ بالمدرسة سميناه كلنا بالسلحفاة. وفي الحقيقة مثلما يوجد بكل مجموعة قائدها الطبيعي، أخالها تشتمل كذلك على 'سلحفاة.' "

بعد تلك الملحوظة رجع تارو إلى قص نادرته. والآن طبعاً عندما أفكر في المسألة، أجد صهري على حق تماماً؛ فأغلب المجموعات التي تضم أنداداً لا تخلو من 'سلحفاة' وإن لم يُستخدم الاسم نفسه دائماً. فمن بين تلاميذي مثلاً كان شينتارو مَن لعب هذا الدور. وليس هذا إنكاراً لجدارة شينتارو، على أنه حينما نضعه جنباً إلى جنب مع أمثال كورودا، يبدو للمرء وكأن موهبته تفتقد بعداً كاملاً.

أعتقد أني لست معجباً بالإجمال بسلاحف هذا العالم. ففي حين يُقدر المرء ثباتهم الكادح وقدرتهم على البقاء، يرتاب في أنهم تعوزهم الصراحة ويقوون على الخيانة. وفي ظني أن الإنسان يحتقر في النهاية عزوفهم عن مواجهة المخاطر باسم الطموح أو من أجل مبدأ يدّعون الإيمان به. ومَن على شاكلتهم لن يسقطوا البتة ضحايا لنوعية المصائب العظمى التي ابتُلي بها مثلاً أكيرا سوجيمورا من جراء متنزه كاواب لكنهم بالمثل، وبرغم ما قد يكتسبونه أحياناً من احترام ضئيل لكونهم معلمين بإحدى المدارس أو غير ذلك، لن يحققوا إطلاقاً أي إنجاز فوق عادي.

صحيح أنني صرت مولعاً للغاية بالسلحفاة أثناء تلك الأعوام التي أمضيناها معاً بفيلا السيد موري إلا أني ما اعتبرته أبداً نداً لي وذلك لطبيعة صداقتنا ذاتها التي تشكلت أثناء اضطهاد السلحفاة بشركة الأستاذ تاكيدا وما واجهه من عقبات خلال شهورنا الأولى بالفيلا؛ إذ توثقتْ عرى صداقتنا بعد فترة لتصبح بطريقة

مكتبة الفكر الجديد

ما علاقة كان هو فيها على الدوام مديناً لي بـ "دعم" ما غير محدَد قدمتُه له. بل إنه بعد انقضاء فترة طويلة حتى أدرك كيف يرسم دون إثارة عداء الآخرين، حتى غدا محبوباً بوجه عام لطبعه اللطيف الكريم، كان لا يزال يقول لي جملاً مثل:

"لقد طوقتَ عنقي بجميلك يا سيد أونو، فالفضل يرجع لك أنهم يحسنون معاملتي هنا."

كان السلحفاة بمعنى ما مديناً لي بالقطع، فمن الواضح أنه بدون مبادرتي ما كان ليفكر مطلقاً في ترك الأستاذ تاكيدا ليصير تلميذ السيد موري. كان كارهاً إلى أبعد حد أن يتخذ مثل تلك الخطوة المغامرة بيد أنه حالما أُكره على القيام بها، ما خالجه أبداً شك في صواب القرار. الحق أن السلحفاة خلع على السيد موري مهابة عظيمة حتى إنه لم يستطع لمدة طويلة - لِما لا يقل عن أول سنتين - أن يُجري محادثة مع معلمنا سوى أن يغمغم قائلاً: "نعم أيها المعلم" أو "لا أيها المعلم".

راح السلحفاة طوال تلك الأعوام يرسم بمثل البطء الذي دأب عليه لكن لم يخطر ببال أحد أن يأخذ هذا ضده. كان هناك في الواقع عديدون آخرون ممن اشتغلوا بمثل بطئه تماماً. وقد مال هذا الحزب في الواقع إلى السخرية منا نحن العاملين بسرعة أكبر. أذكر أنهم وصفونا بـ "المهندسين" مقارنين الطريقة الحادة المهتاجة التي عملنا بها - ما إن تبرق في بالنا خاطرة - بسائق قاطرة يجرف الفحم خوفاً من نفاد الطاقة في أية لحظة. ونحن في المقابل سمينا الحزب البطيء بـ "المتراجعين". و"المتراجع" مصطلح يُستعمل في الأصل ليشير إلى شخص يصر في حجرة مزدحمة بالمشتغلين على الحوامل أن يخطو إلى الوراء كل بضع دقائق ليتفحص لوحته مما يسفر عن اصطدامه المستمر بزملائه العاملين خلفه. كان بالطبع إجحافاً ما بعده إجحاف أن نوحي بأن الفنان الذي يود أن يأخذ وقتاً كافياً مع لوحته مذنب بتلك العادة المضادة لروح الجماعة، ألا وهي التراجع للخلف إذا أمكن القول مجازاً، غير أننا استمتعنا بما لازم اللقب من إثارة. وأذكر بحق الكثير من المزاح رائع الظرف حول "المهندسين" و"المتراجعين".

مكتبة الفكر الجديد

الحقيقة مع ذلك هي أن معظمنا تقريباً نزع إلى "التراجع"، لذا تفادينا قدر الإمكان الاحتشاد معاً أثناء العمل. فكان العديد من زملائي يقيمون حواملهم صيفاً على مسافات منتظمة بطول الشرفات أو بالخارج في الفناء نفسه في حين أصر آخرون على تخصيص عدة غرف للرسم، إذ طاب لهم التنقل من حجرة إلى أخرى حسب الضوء. أما أنا والسلحفاة فقد واظبنا على العمل في المطبخ المهجور - وهو ملحق واسع كالمخزن يقع خلف أحد الأجنحة.

كانت الأرضية تربة مستوية عند المدخل ترتفع في المؤخرة لتكسوها ألواح خشبية تسع حاملينا نحن الاثنين. أما العوارض المتقاطعة المنخفضة ذات الكلاليب - التي تدلت عليها ذات يوم القدور وأدوات المطبخ الأخرى - وأرفف الخيزران المعلقة على الحوائط فقد نفعتنا في وضع الفرش والخرق والألوان وغيرها. كنتُ أنا والسلحفاة نحضر قدراً ضخماً قديماً أسود اللون ونملأه كله بالمياه ثم نحمله إلى المستوى المرتفع ونعلقه على البكرات القديمة ليتدلى بيننا في مستوى الكتف أثناء الرسم.

وفي ظهيرة أحد الأيام كنا نرسم في المطبخ القديم كما هي العادة عندما فاتحني السلحفاة:

"يتملكني أشد الفضول بشأن لوحتك الحالية يا سيد أونو، لا بد أنها لوحة شديدة التميز."

انفرج فمي عن ابتسامة دون أن أصرف نظري عن اللوحة وسألتُه: "لِم تقول هذا؟ إنها مجرد تجربة بسيطة تخصني، هذا كل ما في الأمر."

"لكن مر وقت طويل يا سيد أونو منذ رأيتك تعمل بمثل هذه الكثافة. وقد التمستَ الخصوصية وأنت لم تلتمس الخصوصية منذ سنتين على الأقل منذ كنتَ تجهز 'رقصة الأسد' لمعرضك الأول."

ربما ينبغي هنا أن أفسر أنه بين الفينة والأخرى متى شعر الفنان أن عملاً معيناً ستتم عرقلته قبل اكتماله بفعل تعليقات من أي نوع، 'يلتمس الخصوصية' لذلك العمل ليصبح مفهوماً وقتها ألا يحاول أي شخص النظر إليه ريثما يحين

مكتبة الفكر الجديد

الوقت الذي يسحب فيه الفنان طلبه. كان ترتيباً حكيماً نظراً لمعيشتنا وعملنا بهذا القرب، إذ أتاح مساحة للمرء كي يجازف دون مخافة سخرية الآخرين.

"هل المسألة ملاحظة حقاً؟ ظننت أني أجيد إخفاء إحساسي بالإثارة؟"

"يظهر أنك تنسى يا سيد أونو، نحن نرسم جنباً إلى جنب منذ قرابة ثمانية أعوام الآن. أجل، بإمكاني حقاً أن أؤكد أن هذا العمل بالغ التميز بالنسبة لك."

علّقتُ: "ثمانية أعوام، أظنك على حق."

"فعلاً يا سيد أونو. إنه شرف لي أن أعمل عن كثب مع من هو في مثل موهبتك. كثيراً ما يتضاءل قدري إلى جانبك لكنه شرف عظيم مع ذلك."

"أنت تبالغ،" ابتسمتُ متابعاً الرسم.

"على الإطلاق يا سيد أونو. أشعر بالفعل أني لم أكن لأتقدم البتة طيلة هذه السنوات بدون الإلهام النابع من رؤية أعمالك وهي تتضح أمام عينيّ. لقد انتبهتَ بالقطع إلى ما تدين به لوحتي المتواضعة 'فتاة الخريف' للوحتك الرفيعة 'فتاة في المغيب.' إنها واحدة من محاولات عديدة كي أباري ألمعيتك يا سيد أونو. أنا فاطن إلى أنها محاولة واهنة بيد أن السيد موري كان على جانب من الكرم أن أثنى عليها باعتبارها خطوة ذات شأن بالنسبة لمستقبلي."

"تُرى الآن،" كفت يدي لحظة عن ضربات الفرشاة وتطلعتُ إلى عملي. "تُرى هل ستلهمك هذه اللوحة أيضاً."

أخذتُ أرنو برهة إلى لوحتي نصف المكتملة ثم رميت صديقي بنظرة عبر القدر العتيق المعلق بيننا. كان السلحفاة يرسم بسعادة غافلاً عن تحديقي فيه. زاد وزنه قليلاً منذ أول معرفتي به في شركة الأستاذ تاكيدا، والنظرة المنهَكة المتوجسة التي علت وجهه أيامها تبدلت كلية بسيماء من القناعة الطفولية. أذكر حقيقة أن شخصاً في ذلك الوقت تقريباً شبه السلحفاة بجرو دُلل للتو، وقد تلاءم هذا الوصف من دون شك مع الانطباع الذي بلغني وأنا أرصده يرسم في تلك الظهيرة بالمطبخ القديم.

"أخبرني يا سلحفاة، أنت قانع كل القناعة بعملك الآن، أليس كذلك؟"

مكتبة الفكر الجديد

"كل القناعة، شكراً يا سيد أونو،" أجاب من فوره.

ثم رفع نظره مردفاً بسرعة وقد سادت وجهه ابتسامة عريضة: "ما يزال أمام عملي درب طويل قبل أن يحتل مقاماً إلى جانب عملك يا سيد أونو."

عاد ينظر إلى اللوحة، راقبتُه يعمل لبضع دقائق ثم سألتُه:

"ألا تفكر أحياناً في تجربة بعض... بعض المناهج الجديدة؟"

"مناهج جديدة؟" نبس دون أن يرتقي بناظريه.

"قل لي يا سلحفاة، أليست لديك طموحات أن تنتج في يوم ما لوحات ذات أهمية حقة؟ أنا لا أقصد عملاً قد نعجب به ونطري عليه فيما بيننا هنا بالفيلا فحسب إنما عمل له أهمية فعلية، عمل يعد إسهاماً مهماً في ميراث أمتنا. من أجل هذه الغاية أتحدث يا سلحفاة عن الحاجة إلى منهج جديد."

كنتُ أرقبه بدقة وأنا أنقل إليه كل هذا الكلام بيد أنه لم يتوقف عن الرسم.

"لا أكتمك يا سيد أونو، أي شخص يشغل مكانتي المتواضعة لا ينقطع عن تجربة مناهج حديثة لكني أعتقد أني شرعت أخيراً في العام الماضي في العثور على الطريق السليم. تعرف يا سيد أونو؟ لاحظتُ أن السيد موري ينظر إلى لوحاتي عن كثب أكثر فأكثر العام الماضي. أعلم أنه مسرور مني. ومَن يدري؟ ربما حتى تتهيأ لي الفرصة في وقت ما من المستقبل أن أقيم المعارض جنباً إلى جنب معك ومع السيد موري." ثم اتجه ببصره نحوي وضحك متحرجاً: "معذرة يا سيد أونو، إنه مجرد خيال جامح ليشحذ همتي."

قررت ألا أستزيد الحديث في الموضوع وصدق عزمي أن أحاول مجدداً في وقت لاحق كسب ثقة صديقي، غير أن الأحداث سبقتني في النهاية بما وقع منها.

كان صباحاً مشرقاً بعد أيام قليلة من المحادثة التي حكيتها للتو. مرقتُ من المطبخ القديم لأجد السلحفاة يقف على المستوى المرتفع في مؤخرة ذلك المبنى الشبيه بالمخزن ويحملق إلى وجهي. احتاجت عيناي إلى ثوان معدودة

مكتبة الفكر الجديد

حتى تتكيفا مع العتمة بعد نور الصباح الساطع بالخارج لكني سرعان ما لاحظت ما غام على وجهه من سحابة حذرة بل وتقريباً مذعورة؛ كان هناك شيء ما بحق في الطريقة المرتبكة التي رفع بها ذراعه نحو صدره قبل أن يدعها تسقط مجدداً. أوحى ذلك أنه توقع أني سأهاجمه. بادرتُه بالتحية لكنه ظل مطرقاً، فدنوتُ منه وألقيت عليه سؤالي:

"ما الخطب؟"

"يا سيد أونو..." تمتم ولم يضف. اعتليت المستوى المرتفع فنظر إلى يساره والعصبية تتلبَّسه. تتبعتُ تحديقه وصولاً إلى لوحتي غير المكتملة، مغطاة ووجهها إلى الحائط. أومأ السلحفاة تجاهها في عصبية:

"يا سيد أونو، أهذه مزحة؟"

"لا يا سلحفاة،" قلت وأنا أصعد المستوى المرتفع، "إنها ليست مزحة على الإطلاق."

تقدمتُ إلى اللوحة وسحبتُ الأغطية ثم أدرتها في مواجهتنا، فما كان من السلحفاة إلا أن حوَّل بصره على الفور.

"يا صديقي كنتَ في يوم من الأيام شجاعاً بما يكفي فأنصتَّ إليّ وأقدمنا معاً على خطوة لا غنى عنها في سبيل مسيرتنا المهنية. وأنا أسألك الآن أن تدرس اتخاذ خطوة أخرى معي إلى الأمام."

سأل السلحفاة وهو لا يزال يشيح بوجهه:

"يا سيد أونو، هل مدرسنا على علم بهذه اللوحة؟"

"لا، ليس بعد. لكني أعتقد أني قد أريه إياها هو الآخر. لقد استقر عزمي أن أرسم من الآن فصاعداً تماشياً مع هذه الأفكار. انظر إلى لوحتي يا سلحفاة. دعني أشرح لك ما أحاول صنعه وبعدها ربما نستطيع أن ننجز معاً من جديد خطوة ذات شأن."

استدار أخيراً لينظر إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

"يا سيد أونو،" قال بصوت يقترب من الهمس، "أنت خائن. والآن أرجوك ائذن لي."

وحالما نبس بهذه الجملة، هرول إلى خارج المبنى.

واللوحة التي أزعجتْ السلحفاة إلى هذه الدرجة عنوانها 'الرضا عن الذات'، ومع أنها لم تبق في حوزتي طويلاً، استثمرتُ فيها آنذاك الكثير من الجهد حتى إن تفاصيلها ظلت مطبوعة بذاكرتي؛ أشعر بحق أني أستطيع اليوم إعادة إبداعها بكل دقة إن رغبتُ. وقد استلهمتُ اللوحة من منظر صغير شهدتُه قبل رسمها ببضعة أسابيع، شيء اصطدمتْ به عيناي أثناء مشيي مع ماتسودا.

أذكر أننا كنا في طريقنا إلى مقابلة زملاء لماتسودا من جمعية أوكادا-شينجين أراد أن يقدمني إليهم. كان هذا في نهاية الصيف لمّا انصرمتْ أكثر أيامه حرارة إذ أذكر أني تتبعت خطوات ماتسودا الواسعة المطردة بحذاء الجسر الصُلب في نيشيزورو وأنا أمسح العرق عن وجهي متمنياً أن يتمهل رفيقي. ارتدى ماتسودا يومذاك سترة صيفية أنيقة لونها أبيض، وكالعادة أمال قبعته في أناقة. وعلى سرعته، كانت خطواته الواسعة عفوية بلا أي استعجال. وحينما توقف عند منتصف الجسر، لم تبد عليه حتى المعاناة من القيظ.

"يشرف الجسر على منظر مثير من هنا،" ابتدرني قائلاً. "أليس كذلك يا أونو؟"

كان المشهد في الأسفل محاطاً بإطار من مباني مصنعين يلوح أحدهما يمنة والآخر يسرة وقد أُقحمت بينهما فوضى من الأسطح المكتظة، بعضها مغطى بألواح خشبية رخيصة والبعض الآخر مصنوع ارتجالاً من المعادن المموجة. لا تزال نيشيزورو تُعرف حتى الآن بأنها منطقة محرومة بيد أن الأوضاع أيامها كانت أسوأ مئات المرات. وعند تصفح هذا المجتمع من فوق الجسر، ربما يظنه الغريب موقعاً مهجوراً في سبيله إلى الفناء لولا العديد من الشخوص الدقيقة التي تتراءى للمرء مع المعاينة الأدق، شخوص تتحرك بنشاط حول المنازل كما يحتشد النحل حول الأحجار.

مكتبة الفكر الجديد

نبهني ماتسودا: "انظر إلى هناك يا أونو، ثمة المزيد والمزيد من مثل هذه الأماكن في مدينتنا. منذ سنتين أو ثلاث فحسب، لم يكن هذا مكاناً رثاً لكنه تحول الآن إلى منطقة أكواخ. إن الناس تزداد فقراً يا أونو ويجبرون على هجرة منازلهم بالريف لينضموا إلى رفقائهم الذين يقاسون في مثل هذه المناطق."

"يا للبشاعة، هذا الحال يجعل الواحد راغباً في صنع شيء من أجلهم."

واجهني ماتسودا بواحدة من ابتساماته المترفعة التي لم تخفق مرة في إشعاري بعدم الراحة والحماقة ثم استدار ليستقر بصره على المنظر: "إنها مشاعر حسنة النية. كلنا نتفوه بها. في كل دروب الحياة. وفي غضون ذلك تظهر إلى حيز الوجود مثل هذه الأماكن لتستشري في كل الأنحاء شأنها شأن الفطريات المؤذية. اسحب نفساً عميقاً يا أونو، بإمكانك حتى من هنا أن تشم رائحة قذارة البالوعات."

"لقد شممتُ رائحة كريهة، أهي بالفعل قادمة من هناك؟"

لم يجبني ماتسودا وأخذ يرصد ذلك المجتمع المكون من أكواخ وابتسامة غريبة تنطبع على وجهه ثم أنبأني:

"قلما يرى السياسيون ورجال الأعمال مثل هذه الأماكن، وإن رأوها على أية حال، فهم يقفون بمنأى آمن عنها، كما نقف نحن الآن. أشك لو أن الكثير من السياسيين ورجال الأعمال ساروا من هناك، كما أشك إن كان قد فعلها فنانون كثيرون."

لاحظتُ التحدي البادي في نبرات صوته فقلت:

"لن أعترض لو لم يكن ذلك ليؤخرنا عن موعدنا."

"بالعكس، سنوفر كيلو متراً أو اثنين باختصار المسافة عبر المنطقة."

كان ماتسودا على صواب في تصوره أن الرائحة منشؤها بالوعات ذاك المجتمع. فبينما كنا ننزل إلى سفح الجسر الصُلب لنشرع في شق طريقنا عبر سلسلة من الحارات الضيقة، اشتدت الرائحة إلى أن أصبحت بحق مثيرة للغثيان. ما عاد هناك أي أثر للرياح حتى تقاوم الحر، والحركة الوحيدة في

مكتبة الفكر الجديد

الهواء كانت طنين الذباب اللانهائي حولنا. ألفيت روحي أجاهد ثانية لمجاراة خطوات ماتسودا الواسعة وإن لم أشعر هذه المرة برغبة في أن يبطئ سرعته.

انتصب على الجانبين ما بدا وكأنه أكشاك مغلقة يومها في ساحة أحد الأسواق غير أنها كانت في الواقع منازل قائمة بذاتها لا يفصلها أحياناً عن الزقاق إلا ستارة من القماش. جلستْ في بعض المداخل عجائز شيعننا بنظرات شاخصة لا تخلو من فضول وإن لم تكن عدوانية البتة؛ ظهر الأطفال الصغار وهم يجيئون ويذهبون في كل الاتجاهات بينما راحت القطط تعدو حول أقدامنا. أوغلنا في الزقاق، نتفادى الملاءات والغسيل المعلق على حبال رديئة؛ تجاوزنا رضعاً يبكون وكلاباً تنبح وجيراناً يتسامرون في ود عبر الزقاق من وراء الستائر المغلقة على ما يظهر. وبعد برهة ازداد وعيي بمصارف البالوعات المفتوحة على جانبيّ الطريق الضيق وقد حام حولها الذباب. وفيما واصلتُ ملاحقة ماتسودا، انتابني شعور واضح بأن المساحة بين المصارف تزداد ضيقاً باطراد حتى بدا وكأننا نحفظ توازننا فوق جذع شجرة ساقط على الأرض.

بلغنا في آخر الأمر ما يشبه الساحة. سدت الطريق أمامنا مجموعة كبيرة من الأكواخ المزرية. أشار ماتسودا إلى فتحة بين اثنين منها تراءت من خلالها قطعة مفتوحة من الأرض الخراب.

أخبرني: "لو قطعنا الطريق من هناك سننتهي خلف شارع كوجان."

لاحظتُ بالقرب من مدخل الطريق الذي أشار إليه ماتسودا ثلاثة صبية صغار ينحنون فوق شيء واقع على الأرض وينخسونه بالعصي. عندما دنونا منهم، استداروا بعجلة والعبوس ينال من وجوههم. ومع أني لم أتبين شيئاً، أنبأني أمر في سلوكهم أنهم كانوا يعذبون حيواناً. لا بد وأن عين الاستنتاج قد وصل ماتسودا لأنه قال ونحن نسير بحذائهم: "حسناً، معهم شيء صغير يسلون به أنفسهم."

لم أفكر كثيراً في هؤلاء الصبية الصغار وقتها. مرت بضعة أيام ثم استعادت ذاكرتي بجلاء تام صورة الثلاثة وهم يستديرون نحونا بوجوه مقطبة ملوحين

مكتبة الفكر الجديد

بعصيهم وهم واقفون هناك وسط كل تلك القذارة، فاستخدمتُها كفكرة رئيسية للوحة 'الرضا عن الذات.' لكني سألفت انتباهك إلى أن السلحفاة عندما اختلس النظر إلى لوحتي الناقصة في ذاك الصباح، كان الصبية الثلاثة الذين شاهدهم مختلفين عن نماذجهم الأصلية في ناحية أو ناحيتين هامتين. فبرغم أنهم كانوا لا يزالون واقفين أمام كوخ حقير قذر وملابسهم هي عين الأسمال البالية التي ارتداها الصبية الأصليون، لم يكن العبوس المرتسم على وجوههم عبوس المذنب في موقف الدفاع لمجرمين صغار ضُبطوا متلبسين؛ على العكس، تبدى على وجوههم العبوس الرجولي لمحاربي الساموراي وقد شمروا عن سواعدهم للقتال. وهي ليست صدفة كذلك أن صبية لوحتي أمسكوا بعصيهم في أوضاع كلاسيكية على غرار فن الشيش الياباني، الكندو.

وفوق رؤوس هؤلاء الصبية الثلاثة أبصر السلحفاة اللوحة تخبو لتتضح صورة ثانية – ثلاثة رجال سمان في منتهى الأناقة يجلسون بحانة مريحة ويطلقون قهقهاتهم. تراءت على وجوههم نظرات منحطة؛ علهم يحكون النكات عن عشيقاتهم أو موضوع من تلك المواضيع. صيغت هاتان الصورتان المتناقضتان معاً ضمن حدود ساحل الجزر اليابانية. وفي أسفل الهامش الأيمن كتبتُ بحروف جلية 'الرضا عن الذات'؛ كما أضفت بحروف أصغر في أسفل الجانب الأيسر التصريح التالي: 'إلا أن الشباب على أهبة الاستعداد للقتال في سبيل كرامتهم.'

حينما أصف هذا العمل المبكر والبسيط بلا مراء، ربما تستوقفك بعض ملامحه بألفتها. إذ يجوز أنك ملم بلوحتي 'عيون على الأفق' التي حققتْ في الثلاثينيات – كصورة مطبوعة عن كليشيه – بعض الشهرة والأثر في كل أرجاء المدينة. كانت 'عيون على الأفق' في الواقع تنقيحاً للوحة 'الرضا عن الذات' رغم الاختلافات التي قد تكون متوقعة لاعتبارات المسافة الزمنية بينهما. واللوحة الثانية، كما قد تتذكر، وظفتْ أيضاً فكرتين متناقضتين تندمجان مع بعضهما ويحف بهما ساحل اليابان؛ كانت الصورة العلوية عبارة مرة أخرى عن ثلاثة رجال مهندمين يتباحثون غير أن سيماءهم هذه المرة اختلجت فيها العصبية

مكتبة الفكر الجديد

ولاحت وكأنها تتطلع إلى مبادرة من أحدهم. ولا حاجة بي أن أذكرك أن هذه الوجوه تشبه وجوه السياسيين البارزين الثلاثة. أما الصورة السفلية فكانت لها الغلبة، صار الصبية الثلاثة الذين ضربهم الفقر جنوداً تنبعث الصرامة من جباههم؛ كان اثنان منهم يقبضان على بنادق مزودة بحراب ويحيطان بضابط يشهر سيفه ويشير إلى الأمام، جهة الغرب نحو آسيا. ومن ورائهم لم تعد هناك خلفية توحي بالفقر؛ فقط العلم العسكري للشمس المشرقة. استبدلتُ 'الرضا عن الذات' في أسفل الهامش الأيمن بـ 'عيون على الأفق!' وعلى الجانب الأيسر كتبتُ رسالة: 'لا وقت لأحاديث الجبناء. لا بد لليابان أن تسير قدماً.'

وبالطبع لو كنتَ وافداً جديداً على المدينة، يحتمل ألا تكون قد صادفت هذا العمل لكني لا أعتقد أني أبالغ لو قلتُ إن عدداً كبيراً ممن عاشوا هنا قبل الحرب كانوا على علم به. فقد نال بحق استحساناً عظيماً وقتها وذلك لأسلوب الفرشاة المفعم بالحيوية وخصوصاً الاستخدام القوي للألوان. لكني بطبيعة الحال واع تماماً لأن 'عيون على الأفق' - مهما كانت ميزاتها الفنية - لوحة تعبر عن مشاعر عفى عليها الزمن الآن. الحق أني أول المعترفين بأن نفس تلك المشاعر قد تستوجب الإدانة، فلستُ ممن يهابون الإقرار بما شاب إنجازات الماضي من عيوب.

لكني لم أرد أن أناقش 'عيون على الأفق.' فما ذكرتُها هنا سوى لعلاقتها الواضحة باللوحة الأولى ولأعترف، فيما أظن، بما خلفه لقائي بماتسودا من أثر على مساري المهني اللاحق. طفقتُ أقابل ماتسودا بانتظام لبضعة أسابيع قبل ذلك الصباح الذي اكتشف فيه السلحفاة لوحتي. وأخال أن استمراري في لقائه دال على إعجابي بأفكاره، فأنا أذكر أني لم أمل إليه في مبدأ الأمر. الواقع أننا ختمنا أغلب اجتماعاتنا الأولى بعداء شديد. أذكر على سبيل المثال أني توجهتُ معه في إحدى الأمسيات إلى حانة في مكان ما بوسط المدينة وذلك بعد أمد قصير من اليوم الذي تتبعتُه فيه عبر منطقة نيشيزورو الفقيرة. غاب عن بالي اسم الحانة ومكانها لكني أستحضر بوضوح أنها كانت غارقة في الظلمة والقذارة،

مكتبة الفكر الجديد

يرتادها حثالة المدينة. لسعني الخوف بمجرد أن دلفتُ إليها إلا أن ماتسودا بدا معتاداً على المكان، إذ حيا بعض الرجال الذين كانوا يلعبون الورق على المائدة قبل أن يقودني إلى ركن به مائدة صغيرة شاغرة.

لم يتبدد خوفي بعد برهة من جلوسنا. إذ اقترب سكيران غليظا المظهر وهما يترنحان نحو الركن. أرادا أن يشاركانا الحديث بيد أن ماتسودا أمرهما بكل صراحة أن يبتعدا. توقعتُ بالفعل حدوث مشكلة لكن الظاهر أن ثمة شيئاً ما في شخصية رفيقي أفقدهما شجاعتهما، فمضيا عنا دون تعليق.

جلسنا فترة وجيزة بعدها نحتسي الخمر، وجرى بيننا حوار سرعان ما اكتسب طابعاً فظاً. أذكر أني قلت له مرة:

"لا ريب أننا نحن أهل الفن قد نستأهل أحياناً سخرية أمثالك لكنك مخطئ للأسف في افتراضك أننا جميعنا نرنو إلى العالم بعيون ساذجة."

ندت عن ماتسودا ضحكة.

"ينبغي أن تتذكر يا أونو أني قابلت الكثير من الفنانين، وأنتم على الجملة زمرة منحلة انحلالاً مذهلاً. إن معرفتكم بأحوال هذا العالم لا تزيد في الغالب على معرفة الطفل به."

كنتُ على وشك الاحتجاج قبل أن يردف ماتسودا: "عندك مثلاً يا أونو خطتك هذه التي اقترحتَها للتو بجدية متناهية. هي مؤثرة أيما تأثير، على أنها - إذا سمحتَ لي أن أقول - تكشف النقاب عن كل السذاجة المميِزة لكم أنتم الفنانين."

"أعجز عن فهم السبب الذي يجعل فكرتي تستحق استهزاءك. لكن الواضح أني أخطأت حين افترضتُ أنك تحفل بفقراء هذه المدينة."

"لا داعي لهذه السخرية الطفولية، أنت تعلم جيداً مبلغ همي. لكن دعنا نتأمل قليلاً خطتك الصغيرة تلك. دعنا نفترض أن الشيء بعيد الاحتمال سوف يحدث، وهو أن معلمك سيتعاطف معك، وعليه ستقضون كلكم في الفيلا أسبوعاً، ربما أسبوعين، في إنتاج - ماذا؟ عشرين لوحة؟ ثلاثين على الأكثر.

مكتبة الفكر الجديد

إذ لا هدف من إنتاج أكثر من ذلك، فلن تبيعوا أكثر من عشر لوحات أو إحدى عشرة لوحة. ماذا ستصنع بعدها يا أونو؟ ستجوب المناطق الفقيرة بهذه المدينة حاملاً كيساً صغيراً من العملات التي جمعتَها من جراء كل هذا العمل الشاق؟ وستهب سنتاً لكل فقير تقابله؟"

"معذرة يا ماتسودا، لكن يتحتم عليّ أن أكرر على مسامعك - لقد جانبك الصواب حين افترضتَ في شخصي السذاجة المفرطة. أنا لم أقترح لحظة واحدة أن يقتصر المعرض على مجموعة السيد موري. فأنا واع كل الوعي لحجم الفقر الذي نسعى إلى تخفيفه، ولهذا أتيتك بهذا الاقتراح. فجمعية أوكادا-شينجين التي تشترك فيها تشغل مكانة لها القدرة على تنمية مثل هذه الخطة. إن المعارض الضخمة التي تقام بانتظام في كل أرجاء المدينة جاذبة المزيد من الفنانين سوف تمثل إعانة عظيمة لهؤلاء الناس."

"أنا آسف يا أونو،" فاه ماتسودا وهو يبتسم ويهز رأسه. "لكني كنت للأسف محقاً في افتراضي برغم كل شيء. فأنتم الفنانون كما الوليد على قدر مفرط من السذاجة." استند إلى ظهر مقعده وبعث تنهيدة من صدره. كان سطح المائدة مغطى برماد السجائر، فأخذ ماتسودا في انشغال فكره يرسم أشكالاً عليه بعلبة كبريت فارغة تركها الجالسون قبلنا. واستطرد: "يوجد نوع معين من الفنانين هذه الأيام، وهم الذين تكمن موهبتهم العظمى في القدرة على الاختباء بعيداً عن العالم الواقعي. ويبدو للأسف أن مثل هؤلاء الفنانين يهيمنون الآن على الساحة، وقد خضعتَ يا أونو تحت سيطرة أحدهم. لا تغضب لهذه الدرجة يا أونو، فهذا صحيح. إن معرفتك عن العالم كمعرفة طفل عنه بل إني أشك مثلاً أنك تستطيع أن تقول لي من هو كارل ماركس."

نظرتُ إليه نظرة لا بد وأنها لاحت عابسة ولم أنبس ببنت شفة. فانطلقتْ منه ضحكة: "أرأيتَ؟ لكن لا تنزعج زيادة عن اللزوم، معظم زملائك لا يعرفون أزيد منك."

"لا تكن سخيفاً، بالطبع أعرف كارل ماركس."

مكتبة الفكر الجديد

"ياه، أنا آسف يا أونو، لعلي لم أوفك حقك، أرجوك، أخبرني عن ماركس."

هززت كتفيّ مستهجناً: "أعتقد أنه قاد الثورة الروسية."

"إذن ماذا عن لينين يا أونو؟ أكان ربما نائباً لماركس؟"

"زميلاً من نوع ما." شاهدتُ ماتسودا يبتسم ابتسامة أخرى واسعة، فقلت سريعاً قبل أن يتمكن من فتح فمه: "على كل حال كلامك هذا مناف للعقل، تلك شؤون بلد بعيد، أنا أتحدث عن فقراء مدينتنا."

"بالفعل يا أونو بالفعل، لكن أتعلم؟ أنت تعرف عن هذا الشأن أيضاً أقل القليل. كنتَ على صواب حقاً إذ افترضتَ أن جمعية أوكادا-شينجين تعني بتنشيط الفنانين وتقديمهم إلى العالم الحقيقي على أني قد أخدعك لو أوحيت أبداً أن جمعيتنا تريد أن تتحول إلى وعاء كبير للتسول. فنحن لا نكترث للإحسان."

"ليس بمقدوري أن أستوعب ما هو وجه الاعتراض على القليل من الإحسان. وإن في الوقت نفسه تفتحتْ أعيننا نحن الفنانين المنحلين، إذاً فهي نتيجة أحسن بكثير على ما أظن."

"إن عينيك هما يقيناً بعيدتان كل البعد عن البصيرة يا أونو لو اعتقدتَ أن القدر الضئيل من الإحسان بإمكانه إعانة فقراء بلدنا. جلية الأمر هي أن اليابان تنطلق نحو أزمة. فمقادير الشعب تحت أيدي رجال أعمال جشعين وسياسيين ضعاف، ومثل هؤلاء الأشخاص سوف يعملون على تنامي الفقر كل يوم ما لم نُقدِم نحن الجيل الصاعد على فعل شيء. بيد أني لست يا أونو داعياً يستهدف إثارة قضية سياسية، فاهتمامي ينصب على الفن والفنانين أمثالك، الفنانين الشبان أصحاب الموهبة الذين لم يعمهم بعد إلى الأبد ذلك العالم الحبيس التافه الذي تسكنونه كلكم. إن جمعية أوكادا-شينجين قائمة لمساعدة أمثالك كي يفتحوا أعينهم وينتجوا أعمالاً ذات قيمة أصيلة في هذه الأوقات العسيرة."

"لا تؤاخذني يا ماتسودا، لكن يصدمني أن تكون أنت الساذج في الحقيقة. إنّ هَم الفنان أن يأسر الجمال أينما يجده لكن مهما بلغتْ مهارته في إنجاز هذه

مكتبة الفكر الجديد

المهمة، سيكون قليل التأثير على نوعية القضايا التي تتحدث أنت عنها. وإذا كانت جمعية أوكادا-شينجين بحق كما تدعي، فهي إذن سيئة التخطيط. إذ تبدو لي مؤسسة على خطأ ساذج حول ما يمكن للفن أن يحققه وما لا يمكن له تحقيقه."

"أنت تعرف حق المعرفة أننا لا نزن الأمور بتلك البساطة المخلة. الواقع أن جمعية أوكادا-شينجين ليست بمعزل عن المجتمع. إذ يوجد شباب مثلنا في حقول الحياة كافة - في السياسة والجيش - يفكرون بنفس الطريقة. فنحن الجيل الصاعد، ومعاً يمكننا أن نبلغ هدفاً ذا قيمة حقة. وقد اتفق أن بعضنا يضمر للفن اهتماماً لا مزيد عليه ويتمنى أن يراه متفاعلاً مع عالم اليوم. الحقيقة يا أونو أنه في مثل هذه الأوقات - حين يزداد الناس فقراً والأطفال جوعاً ومرضاً بكل ركن حولك - لا يكفي أن يتوارى الفنان في مكان ما بعيد لينمق لوحات المومسات. يسعني أن أرى غضبك، بل إنك تبحث الآن عن طريقة لترد بها على حجتي لكني لا أقصد سوءاً يا أونو. أرجوك، أمعن التفكير في هذه النقاط لاحقاً، فأنت رغم كل شيء شخص يتمتع بموهبة هائلة."

"طيب، أخبرني إذاً يا ماتسودا، كيف نستطيع نحن الفنانين المنحطين الحمقى أن نساعد على إحداث ثورتك السياسية؟"

عاود ماتسودا الابتسام في استخفاف فأحسست منه بضيق شديد. قال: "ثورة؟ فعلاً يا أونو! يريد الشيوعيون ثورة إلا أننا لا نريد أي شيء من هذا القبيل. على العكس تماماً في الحقيقة. نحن نبغي إحداث عملية استعادة، ندعو ببساطة صاحب الجلالة الإمبراطور إلى العودة إلى منصبه الشرعي كرئيس لدولتنا."

"لكن الإمبراطور يشغل بالفعل هذا المنصب على وجه التحديد."

"ويحك يا أونو، إن عقلك غاية في السذاجة والتشوش." ظل صوته هادئاً تماماً كالعادة إلا أنه راح في تلك اللحظة يشتد صرامة. "إن الإمبراطور هو زعيمنا الشرعي لكن إلام صارت الأحوال على أرض الواقع؟ تم انتزاع السلطة على أيدي رجال الأعمال هؤلاء والسياسيين الموالين لهم. أنصت إليّ يا أونو،

مكتبة الفكر الجديد

لم تعد اليابان دولة متخلفة يسكنها الفلاحون والقرويون. نحن الآن أمة جبارة قادرة على مجاراة أية أمة غربية. إن اليابان تقف في نصف الكرة الآسيوي كالعملاق وسط المقعدين والأقزام. ومع ذلك ندع شعبنا يزداد يأساً على يأس وأطفالنا الصغار يموتون من سوء التغذية. وفي هذه الأثناء يتعاظم ثراء رجال الأعمال ولا ينفك السياسيون يختلقون الأعذار الوهمية ويثرثرون. أتستطيع أن تتخيل أية قوة من القوى الغربية تسمح بهذا الوضع؟ كانوا بلا شك سيبادرون إلى اتخاذ خطوة فعالة منذ أمد طويل."

"خطوة؟ ما نوع الخطوة التي تشير إليها يا ماتسودا؟"

"لقد آن لنا أن نشكل إمبراطورية في مثل قوة إمبراطوريتيّ بريطانيا وفرنسا وثرائهما. ينبغي أن نستغل بأسنا حتى نتوسع في الخارج. حان الآن الوقت أن تحتل اليابان مكانتها الشرعية وسط قوى العالم. صدقني يا أونو، لدينا الموارد لتحقيق هذا لكن لا يزال علينا أن نكشف عن إرادتنا. يجب أن نتخلص من هؤلاء السياسيين ورجال الأعمال، بعدها سيكون الجيش مسؤولاً أمام صاحب الجلالة الإمبراطور وحده." ثم أرسل ضحكة خفيضة وأطرق محملقاً إلى الأشكال التي نسجها من رماد السجائر: "لكن هذه مهمة على الآخرين بالأساس أن يقلقوا بشأنها، أما أمثالنا يا أونو فعليهم توجيه رعايتهم نحو الفن."

على الرغم من هذا، أعتقد أن سبب انزعاج السلحفاة في المطبخ المهجور بعدها بأسبوعين أو ثلاثة ليس وثيق الصلة بتلك القضايا التي ناقشتُها مع ماتسودا ليلتها؛ فالسلحفاة ليس نافذ البصيرة حتى يتعمق في فهم لوحتي غير المكتملة. فكل ما وقف عليه هو أنها تمثل تجاهلاً صارخاً لأولويات السيد موري؛ إذ تخلتْ عن مسعى المَدرسة الجماعي لأسر ضوء المشكاة الرقيق في عالم المتعة؛ وقدمتْ فن الخطوط اليدوية بصورة بينة ليكمل الأثر البصري؛ وفوق كل شيء كان السلحفاة سيصعق دون أدنى شك لو انتبه إلى أن أسلوبي توسع في استخدام الخطوط من غير تظليل – وهو منهج على جانب من التقليدية كما ربما تعلم – إلا أن نبذه كان واحداً من تعاليم السيد موري الأساسية.

مكتبة الفكر الجديد

أياً كانت أسباب حنقه، أدركتُ عقب ذاك الصباح أني ما عدت أستطيع أن أخفي عن المحيطين بي حقيقة أفكاري التي تسرع في التطور وأن المسألة مسألة وقت فقط حتى يسمع معلمنا نفسه بها. وهكذا بحلول الوقت الذي دار فيه ذلك الحوار بيني وبين السيد موري داخل مقصورة حدائق تاكامي، كنتُ قد قلّبت في رأسي ما قد أقوله وعقدتُ العزم على ألا أتخاذل.

تم هذا اللقاء بعد ذلك الصباح في المطبخ بأسبوع أو نحوه. أمضيتُ أنا والسيد موري فترة ما بعد الظهر في المدينة بغرض قضاء إحدى المهام - ربما لننتقي بعض الأدوات ونطلبها، لا أذكر بالضبط. ما أذكره بالفعل هو أن السيد موري لم يتعامل معي بأية طريقة غريبة أثناء إتمام المهمة. وبعدها ومع اقتراب المساء توفر لدينا وقت قصير قبل تحرك القطار فارتقينا الدرجات المنحدرة خلف محطة يوتسوجاوا وصعدنا إلى حدائق تاكامي.

قامتْ على حدائق تاكامي في تلك الأيام مقصورة تسر الناظرين، تقع بالضبط على حافة التل المشرف على المنطقة ولا تبعد في الحقيقة عن الموقع الحالي لنصب السلام التذكاري. كانت أوضح معالم المقصورة جاذبية مشكاوات تزين أفاريز السطح الأنيق على امتداده. على أني أذكر عند اقترابنا من المقصورة أن ليلتها بالذات كانت كل المشكاوات مطفأة. كنتَ تلفي المقصورة حين تخطو تحت سقفها في رحابة حجرة ضخمة، ولأنها لم تكن مسيجة من أي جانب، لم يحجب منظر المنطقة بالأسفل غير الأعمدة المقنطرة الداعمة للسطح.

احتمال كبير أن لقائي بالسيد موري ليلتها كان المناسبة التي اكتشفتُ فيها تلك المقصورة لأول مرة. وقد ظلت مكاناً مفضلاً إلى قلبي على مدار السنين حتى انتهى بها الأمر إلى أن دمرتْها الحرب، وطالما اصطحبتُ تلاميذي إليها كلما وضعتْنا المصادفات في ذلك الطريق. أعتقد بحق أني أجريت في تلك المقصورة ذاتها آخر أحاديثي مع كورودا - أعظم تلاميذي موهبة - قبل الحرب مباشرة.

على أية حال عندما تبعتُ السيد موري إلى المقصورة في تلك الأمسية

مكتبة الفكر الجديد

الأولى، كانت السماء تتشح بلون قرمزي باهت والأضواء تنبثق من فوضى الأسطح التي كانت لا تزال مرئية في الظلمة بالأسفل. تقدم السيد موري نحو المنظر واتكأ بكتفه على أحد الأعمدة رافعاً بصره نحو السماء فيما شاع الارتياح في وجهه. نبس دون أن يستدير ناحيتي:

"ثمة بعض أعواد الثقاب والشموع في منديلنا، من فضلك أضئ هذه المشكاوات، أتخيل أن يكون الأثر غاية في الإمتاع."

وفيما كنتُ أدور في المقصورة مشعلاً المشكاة بعد الأخرى، خبت الحدائق حولنا في العتمة بشكل مطرد. كان الهدوء يخيم عليها والسكون يغرقها. وفي هذه الأثناء رحت أحدق في شبح السيد موري المرتسم قبالة السماء وهو يتطلع بنظرات متأملة إلى المشهد. ربما كنتُ قد أضأت نصف المشكاوات لمّا سمعتُه يقول:

"ما الذي يقلقك إذاً كل هذا القلق يا أونو؟"

"معذرة يا معلم؟"

"ذكرتَ اليوم أن ثمة شيئاً ما يقلقك."

فرت مني ضحكة خافتة وأنا أمد يدي نحو إحدى المشكاوات.

"إنه أمر بسيط يا معلم. لن أزعجك به غير أني لست موقناً من مغزاه. الحقيقة هي أني اكتشفت منذ يومين أن أحدهم نقل بعض لوحاتي من المكان الذي أحفظها به دائماً في المطبخ القديم."

ظل السيد موري على إطراقه لحظات ثم قال:

"وبم أنبأك الآخرون؟"

"سألتُهم ولم يظهر أن أحداً يدري شيئاً أو على الأقل لم يبد أن أحداً يرغب في إخباري."

"ما الذي استنتجتَه إذاً يا أونو؟ أهناك مؤامرة تحاك ضدك؟"

"في الحقيقة يا معلم، يلوح لي فعلاً أن الآخرين شديدو الحرص على تحاشي صحبتي. والحق أني لم أستطع أن أقيم محادثة واحدة مع أي منهم

مكتبة الفكر الجديد

طوال هذه الأيام القليلة الفائتة. فعندما أدخل أية حجرة، يلوذ مَن فيها بالصمت أو يغادرونها كلية."

لم يبدر منه أي تعليق على كلامي. أرسلتُ بصري ناحيته فبدا أنه ما زال مستغرقاً في سماء غلفتْ خلفية المكان. كنتُ أضيء مشكاة أخرى حين التقطتُ صوته:

"لوحاتك موجودة عندي الآن. آسف لو كنتُ قد سببت لك ذعراً بأخذي إياها. غاية الأمر أن قليلاً من الفراغ أتيح لي صدفة منذ بضعة أيام ففكرتُ أن أنتهز الفرصة للاطلاع على عملك الجديد. ويبدو أنك كنت وقتئذ بالخارج في مكان ما. أعتقد أنه كان لزاماً عليّ أن أخبرك عندما عدتَ يا أونو. آسف."

"ياه، العفو يا معلم. شكراً جزيلاً أنك أوليت عملي هذه العناية."

"لكن هذا طبيعي أن أوليك عنايتي، فأنت أبرع تلاميذي وقد استثمرتُ أعواماً في احتضان موهبتك."

"بالقطع يا معلم، إن أفضالك تغرقني."

سكتْ كلانا لحظات معدودة بينما تابعتُ إشعال المشكاوات ثم توقفتُ قائلاً:

"أشعر بارتياح شديد لأن لوحاتي لم يصبها ضرر. كان يجب أن أفطن إلى وجود تفسير بسيط من هذا القبيل. أستطيع الآن أن أريح بالي."

لم يعقب السيد موري، ووسعني أن أدرك من خلال شبحه أنه لم يشح بعينيه عن المنظر. خطر ببالي أنه لم يسمعني فعلت نبرتي قليلاً:

"أنا سعيد أني أستطيع أن أريح بالي لسلامة اللوحات."

"أجل يا أونو،" رد السيد موري كمن يجفل مستيقظاً من أفكار نائية. "كان عندي القليل من وقت الفراغ فأرسلتُ أحدهم ليأتيني بعملك الجديد."

"كنتُ من الحماقة أن قلقت عليها، يسعدني أنها سالمة."

أمسكتُ عن القول هنيهة لذا خلته لم يسمعني مجدداً إلا أنه قال:

"لقد أخذني العجب قليلاً لما شاهدتُ. يبدو أنك تستكشف سبلاً غريبة."

مكتبة الفكر الجديد

لعله بالطبع لم يستخدم تلك العبارة تحديداً، 'تستكشف سبلاً غريبة' لأنه جال بذهني أني أنا نفسي نزعت كثيراً إلى استعمال ذلك التعبير خلال الأعوام التالية، علي كنت أتذكر كلماتي لكورودا في المناسبة التالية بنفس تلك المقصورة. لكني من ناحية أخرى أعتقد أن السيد موري أشار أحياناً بحق إلى 'استكشاف السبل؛' ويجوز أن يكون هذا في الحقيقة مثالاً آخر لما ورثتُه من خصال عن معلمي السابق. على كل أذكر أنه لم يند عني سوى ضحكة مرتبكة ثم امتدت يداي إلى مشكاة أخرى. تناهى إلى مسامعي صوته يقول:

"ليس سيئاً أن يجرب الفنان الشاب قليلاً، فهو بهذه الطريقة يثير من داخل منظومته أكثر اهتماماته سطحية - وذلك من بين فوائد أخرى - ثم يمكنه الرجوع بعدها إلى عمل أكثر جدية مصحوباً بالتزام لم يعهده من قبل." ثم تمتم بعد فترة توقف وكأنه يكلم روحه: "لا، التجربة ليست سيئة، إنها جزء من كون المرء شاباً، ليست سيئة على الإطلاق."

"يخالجني شعور طاغ يا معلم أن عملي الجديد هو أجمل أعمالي حتى الآن."

"إنه ليس سيئاً، ليس سيئاً على الإطلاق. لكن على الجانب الآخر لا يتعين على المرء أن يهدر وقتاً طويلاً في مثل تلك التجارب وإلا سيغدو حاله كمن يكثر من السفر، يحسن به أن يسرع بالرجوع إلى العمل الجاد."

تريثتُ قليلاً لأرى إذا كان سيضيف شيئاً ثم أنهيت إليه بعد لحظات: "كنتُ بلا شك أحمق لمغالاتي في القلق على سلامة اللوحات. لكن أتعلم يا معلم؟ أنا أشد افتخاراً بها من أي شيء آخر قمتُ به. ومع ذلك كان يجدر بي أن أخمن مثل هذا التفسير البسيط."

ظل السيد موري مطرقاً. وعندما رميته بنظرة سريعة عبر مشكاة كنتُ أضيئها، لم أستطع أن أميز إذا ما كان يتدبر كلماتي أم يفكر في شيء آخر كلية. وفي حين والت السماء غروبها وأضأتُ المزيد والمزيد من المشكاوات، غلف المقصورة مزيج عجيب من الضوء. غير أن هيئة السيد موري بدت كشبح مائل على عامود وهو يوليني ظهره.

مكتبة الفكر الجديد

قال أخيراً: "قيل لي بالمصادفة يا أونو إن هناك لوحة أو اثنتين أكملتَهما مؤخراً وليستا معي الآن."

"احتمال كبير أني لم أحفظ لوحة أو اثنتين مع اللوحات الأخرى."

"آه، وهي بلا مراء أحب لوحتين إلى نفسك."

لم أرد على هذه الملحوظة فأردف السيد موري:

"ربما تأتيني بتلك اللوحتين عند عودتنا يا أونو، فأنا أرغب بشدة في رؤيتهما."

تفكرتُ لحظة ثم قلت: "سأكون بالقطع ممنوناً للغاية لمعرفة رأى المعلم لكني لست موقناً تماماً من مكانهما."

"لكنك ستحاول أن تجدهما على ما أظن."

"سيحدث يا معلم. وفي غضون ذلك لعلي سأريح المعلم من اللوحات الأخرى التي تكرم وحفل بها، فهي بلا شك تزحم منزلك، لذا سأنقلها بمجرد عودتنا."

"لا داعي لأن تتعب نفسك بها يا أونو، حسبي أن تعثر على اللوحتين الباقيتين وتحضرهما."

"آسف يا معلم، لن أستطيع أن أجد اللوحتين."

"مفهوم يا أونو،" أطلق تنهيدة متبرمة، وكان بمقدوري أن أرى أنه استأنف التحديق في السماء. "أنت إذاً لا تعتقد أنه يمكنك أن تأتيني بهاتين اللوحتين."

"لا يا معلم، للأسف."

"مفهوم. لا ريب أنك فكرت ملياً في مستقبلك في حالة تخليك عن رعايتي."

"كان أملي أن يتفهم معلمي موقفي ويتابع دعمه لمسيرتي المهنية."

بقي صامتاً فرحت أقول:

"سوف يلم بي عظيم الألم عندما أغادر الفيلا. فهذه الأعوام الماضية كانت أسعد أعوام حياتي وأغلاها. فزملائي هم إخوة لي، أما أنت يا معلم، ياه، لقد

مكتبة الفكر الجديد

طوقتَ عنقي بأفضالك. أتوسل إليك يا معلم أن تلقي نظرة أخرى على لوحاتي الجديدة وتعيد التفكير فيها، وربما تسمح لي لمّا نعود أن أشرح نواياي في كل لوحة."

لم يبد حتى الآن أية إشارة على سماعي فاستطردتُ:

"لقد تعلمتُ الكثير طيلة هذه السنوات الماضية، تعلمتُ الكثير عن تأمل عالم المتعة وتمييز جماله الرقيق. لكني أشعر الآن أنه قد آن الأوان أن أرتقي نحو قضايا أخرى. إني أؤمن يا معلم أنه في مثل هذه الأوقات الحرجة يتعين على الفنانين أن يتعلموا تقدير شيء أكثر واقعية من تلك المتع التي تتوارى مع أول إشراقة للصباح. فليس من الضروري أن يشغل الفنانون على الدوام عالماً متفسخاً حبيساً. إن ضميري يا معلم يملي عليّ ألا أظل فناناً من العالم العائم إلى الأبد."

عند تلك الكلمات صرفتُ انتباهي مرة أخرى إلى المشكاوات، وبعد لحظات قليلة خاطبني السيد موري:

"كنتَ لفترة من الوقت أبرع تلاميذي وسوف يسوؤني أن أراك ترحل. دعنا نفترض مثلاً أن أمامك ثلاثة أيام حتى تأتيني باللوحتين الباقيتين. ستحضرهما ثم تتحول بنفسك إلى اهتمامات أكثر ملاءمة."

"مثلما ذكرتُ قبلاً يا معلم، أنا كلي أسف، لن أستطيع أن آتيك بهاتين اللوحتين."

أطلق السيد موري صوتاً كما لو كان يضحك لنفسه ثم قال: "كما أوضحتَ بنفسك يا أونو، إنها أوقات حرجة، وهي أحرج بالنسبة لفنان شاب، تقريباً مجهول وبلا دخل. لئن كنتَ أقل موهبة، كنتُ سأخاف على ضياع مستقبلك بعد أن تتركني لكنك رفيق حاذق ولا ريب أنك توليت الترتيبات المناسبة."

"في الحقيقة أنا لم أقم بأي ترتيبات من أي نوع. كانت الفيلا بيتاً لي منذ وقت طويل ولم أتوقع جدياً أن يتبدل الحال أبداً."

"أحقاً؟ طيب، كما سبق وقلتُ يا أونو، إذا كنتَ أقل موهبة، كان سيصبح

مكتبة الفكر الجديد

هناك مدعاة للقلق لكنك شاب حاذق." رأيت شبح السيد موري يستدير في مواجهتي ليقول: "لا ريب أنك ستفلح في أن تجد عملاً في رسم الصور التوضيحية للمجلات وكتب الأطفال المصورة بل ربما تتمكن من الالتحاق بشركة مثل التي كنتَ تشتغل بها عندما أتيت إليّ في بادئ الأمر. سوف يعني هذا بالطبع نهاية تطورك كفنان جاد لكن لا شك في أنك وضعتَ كل هذا في حساباتك."

قد تتراءى تلك الكلمات انتقامية لا ضرورة لأن يستخدمها معلم ضد تلميذ يعرف أنه ما زال يكن له إعجاباً. لكن من ناحية أخرى عندما يهب الأستاذ الرسام متسعاً من الوقت والموارد لتلميذ بعينه وعندما يسمح أيضاً لاسم ذلك التلميذ أن يقترن باسمه علانية، ربما يغدو مفهوماً أن يفقد المعلم اتزانه برهة وتصدر عنه ردود أفعال قد يندم عليها لاحقاً وإن كان هذا عذراً لا يقف على قدمين. ورغم أن المناورات حول ملكية اللوحات ستبدو بلا مراء حقيرة، فمن المفهوم بالقطع لو أن المعلم الذي أمدنا في الواقع بأغلب الألوان والمواد سينسى في تلك اللحظة أن تلميذه له أي حق مهما كان في تملك عمله الخاص.

وعلى الرغم من كل هذا، واضح أن مثل تلك العجرفة وحب التملك من جانب المعلم أمر يؤسف له مهما بلغتْ شهرته. ما زلت بين الحين والآخر أقلب في عقلي ذلك الصباح الشتوي البارد ورائحة الحريق التي كانت تغزو منخريّ. كان الشتاء السابق على نشوب الحرب وكنتُ أقف قلقاً على باب منزل كورودا - مكان رث ضيق اعتاد أن يستأجره بمنطقة ياكاماشي. وسعني أن أدرك أن رائحة الحريق تسري من ركن ما بالمنزل يعلو منه صوت امرأة تنشج. جذبتُ الجرس مرات وارتفع صوتي صائحاً بأن يأتي أحد لملاقاتي غير أني لم أحظ برد. قررتُ في النهاية أن أدخل بنفسي لكني عندما فتحت الباب الخارجي، ظهر بالمدخل شرطي في زيه الرسمي.

"ماذا تريد؟" سأل.

"جئتُ باحثاً عن السيد كورودا، أهو بالمنزل؟"

مكتبة الفكر الجديد

"تم أخذ الساكن إلى قسم الشرطة للاستجواب."

"استجواب؟"

"أنصحك بالعودة إلى بيتك وإلا سنبدأ في التحري عنك أنت أيضاً. نحن معنيون الآن بكل زملاء الساكن المقربين."

"لكن لم؟ هل ارتكب السيد كورودا جرماً؟"

"لا أحد يريد أمثاله في الجوار. إنْ لم تذهب إلى حال سبيلك، سنحتجزك لاستجوابك أنت أيضاً."

ومن داخل المنزل لم ينقطع نشيج السيدة، كانت والدة كورودا كما افترضتُ. ونفذ إلى مسامعي صياح أحدهم فيها.

"أين الضابط المسؤول؟" سألتُ.

"في طريقك إليه، أتريده أن يقبض عليك؟"

"قبل أن نتمادى في هذا، دعني أوضح لك أن اسمي أونو،" لم يظهر على الشرطي أنه تعرف على الاسم فواصلتُ وقد وقع في نفسي القليل من عدم الثقة: "أنا الرجل صاحب المعلومات التي أحضرتكم إلى هنا. أنا ماسوجي أونو، الفنان وعضو اللجنة الثقافية بوزارة الداخلية. أنا في الواقع مستشار رسمي للجنة النشاطات غير الوطنية. أعتقد أن هناك خطأ ما هنا وأود التحدث مع المسؤول أياً كان."

رشقني الضابط بنظرة مرتابة ثم استدار واختفى داخل المنزل. وما لبث أن عاد وأومأ إليّ بالدخول.

وفيما كنتُ أتتبعه عبر منزل كورودا، وقع بصري على محتويات الخزائن والأدراج وقد فرغتْ على الأرضية كلها. لاحظتُ أن بعض الكتب تكدست على بعضها ورُبطت في رزم. كانت حصيرة غرفة المعيشة مرفوعة وضابط يتفحص ألواح الأرضية بمصباح يدوي. ومن وراء حاجز مغلق أقبل على نحو أوضح صوت والدة كورودا وهي تنشج وأحد الضباط يصرخ في وجهها بالأسئلة.

قادني الشرطي إلى الخارج باتجاه الشرفة الواقعة في خلفية المنزل. وفي

مكتبة الفكر الجديد

وسط الفناء الصغير وقف ضابط آخر بزيه الرسمي وآخر يرتدي ملابس مدنية حول نار تضطرم في الهواء الطلق. استدار مرتدي الملابس المدنية وتقدم نحوي خطوات معدودة.

"السيد أونو؟" سأل بكل احترام.

بدا الشرطي الذي قادني إلى الداخل وقد استشعر أن سابق وقاحته لم تكن في محلها فاستدار إلى الداخل وهو يحث خطاه.

"ماذا حل بالسيد كورودا؟"

"أخذناه للاستجواب يا سيد أونو. سنعتني به، لا تقلق عليه."

حملقتُ بالنار خلفه التي كانت قد خمدت تقريباً الآن. كان الضابط ذو الحلة الرسمية ينكز الركام بعصا.

"هل حصلتم على تصريح بحرق تلك اللوحات؟"

"إن سياستنا أن ندمر أية مواد عدائية لن نحتاج إليها كدليل. وقد اخترنا عينة تكفي وتزيد، ونحن نحرق فحسب بقية هذه النفاية."

قلت: "ما كان لدي أدنى فكرة أن شيئاً من هذا سيحدث. كل ما حصل هو أني اقترحت على اللجنة أن يأتي أحدهم ليوبخ السيد كورودا حرصاً على مصلحته." تفرستُ مرة أخرى في الكومة التي تحترق بلا لهب وسط الفناء. "لم يكن حرقها لازماً بالمرة، فمن بينها العديد من الأعمال القيمة."

"يا سيد أونو نحن شاكرون لمعاونتك إلا أن التحقيقات قد بدأت الآن ولا بد أن تتركها في أيدي السلطات المناسبة. سوف نحرص على أن ينال السيد كورودا معاملة منصفة."

ابتسم وانصرف إلى النار موجهاً بعض الكلمات إلى الضابط ذي الحلة الرسمية. عاد الأخير إلى دفع النار وقال شيئاً بصوت غير مسموع بدا وكأنه: "نفاية غير وطنية."

مكثتُ في الشرفة، أرقب ما يجرى بعيون غير مصدقة. وفي آخر الأمر استدار ذو الملابس المدنية نحوي قائلاً: "أقترح يا سيد أونو أن تعود إلى بيتك الآن."

مكتبة الفكر الجديد

"لقد تفاقمتْ الأمور زيادة عن اللزوم، ولِم تستجوبون السيدة كورودا؟ ما صلتها هي بأي شيء؟"

"هذه مسألة تخص الشرطة الآن يا سيد أونو، ما عادت تعنيك في شيء."

"تفاقمتْ الأمور زيادة عن اللزوم. سوف أناقش الأمر مع السيد يوبوكاتا، وقد أرفع حقاً الموضوع رأساً إلى السيد سابوري نفسه."

نادى الرجل ذو الملابس المدنية على أحد الأشخاص بالمنزل فبرز إلى جانب الشرطي الذي فتح الباب.

"اشكر السيد أونو على مساعدته واصطحبه إلى الخارج،" قال ذو الملابس المدنية ثم ندت عنه كحة مباغتة وهو يستدير إلى النار. "اللوحات الرديئة تصدر دخاناً رديئاً" قال وهو مقطب الجبين ضارباً الهواء أمام وجهه.

ولكن هذا كله محدود الصلة بما أتناوله هنا. أعتقد أني كنت أستحضر أحداث ذلك اليوم من الشهر المنصرم عندما كانت سيتسوكو في زيارة قصيرة لنا؛ كنتُ في الواقع أحكي كيف أضحكنا تارو جميعاً حول مائدة العشاء بنوادره عن زملائه في العمل.

كان العشاء يمضي بصورة مرضية تماماً. لم أستطع مع ذلك تجنب ضيق أصابني لملاحظتي إشيرو كلما صبت نوريكو الساكي. في المرات القليلة الأولى كان يلقي إليّ عبر المائدة بابتسامة تآمرية جاهدتُ لردها بأخرى محايدة قدر المستطاع. لكن عندما تقدمتْ الوجبة وتوالى صب الساكي، امتنع عن النظر إليّ وحدج خالته بنظرة غاضبة وهي تعيد صب الأقداح.

كان تارو قد قص علينا عدة حكايات مسلية عن زملائه حين قالت سيتسوكو:

"أنت تسخر منهم يا سيد تارو لكني أعلم من نوريكو أن المعنويات الآن بشركتكم في عنان السماء. لا بد من غير ريب أن مثل هذا الجو يشكل حافزاً قوياً للعمل."

عند هذا التعليق تلون سلوك تارو فجأة بجدية متناهية، إذ قال وهو يومئ

مكتبة الفكر الجديد

لها: "هو كذلك يا سيدة سيتسوكو، إن ما تكفلنا به من تغييرات عقب الحرب جعل يؤتي ثماره الآن على مستويات الشركة كافة. ونحن نستشعر تفاؤلاً عظيماً في المستقبل. ففي الأعوام العشرة المقبلة سوف تصبح 'كى إن سي' اسماً معترفاً به ليس في كل اليابان فحسب بل في كل أرجاء العالم شريطة أن نبذل جميعاً قصارى جهدنا."

"رائع. أخبرتني نوريكو كذلك أن مدير فرعكم رجل دمث الخلق، لا بد وأن هذا أيضاً أحدث فرقاً في المعنويات."

"أنتِ بالقطع على صواب. على أن السيد هياساكا ليس فقط رجلاً دمث الخلق، إنه شخص يتمتع بمقدرة هائلة ورؤية نافذة. وأستطيع أن أؤكد لك يا سيدة سيتسوكو أن العمل لدى رؤساء غير أكفاء مهما كانوا طيبين يمكن أن يضعف معنويات الموظفين. إن من حسن حظنا أن شخصاً كالسيد هياساكا يقودنا."

"الحق أن سويشي قد حالفه الكثير من الحظ هو الآخر، فلديه رئيس ذو كفاءة عالية."

"أحقاً يا سيدة سيتسوكو؟ إنما هذا هو المتوقع من شركة في حجم نيبون للأدوات الكهربائية. فخيرة الأشخاص دون سواهم هم مَن يضطلعون بالمسؤولية في مثل تلك الشركة."

"كان الحظ حليفنا لكني واثقة يا سيد تارو أن هذا ينطبق بالمثل على 'كى إن سي،' فسويشي لا يكف عن مدحها."

"معذرة يا تارو،" قاطعتُهما عند تلك النقطة. "أنا واثق بالطبع أن لديك جميع الأسباب للتفاؤل في 'كى إن سي' لكني كنت أنوي أن أسألك، أتراه للصالح العام أن أجرت شركتكم الكثير من التغييرات الكاسحة في إثر الحرب؟ لقد سمعتُ أنه لم يبق إلا أقل القليل من الإدارة القديمة."

ابتسم صهري ولاحت على سحنته أمارات التدبر: "أنا مقدر بشدة قلق أبي. فالشباب والقوة وحدهما لا يفضيان دوماً إلى خير النتائج. لكن بصراحة يا أبي،

مكتبة الفكر الجديد

كان الوضع يستلزم الإتيان بفحص كامل دقيق، فقد كنا في حاجة إلى مديرين جدد ينتهجون منهجاً حديثاً يتناسب مع عالم اليوم."

"بالتأكيد، بالتأكيد. وأنا لا يخالجني أي شك في أن رؤساءك الجدد من أقدر الرؤساء. لكن أخبرني يا تارو، ألا يساورك القلق أحياناً من أن نكون قد تسرعنا أكثر من اللازم قليلاً في المشي في ركاب الأمريكيين؟ فأنا أول الموافقين على ضرورة محو العديد من الأساليب القديمة بلا رجعة لكن ألا تعتقد أحياناً أن بعض الجيد ينطرح مع الرديء؟ الحق أن اليابان تتبدى في بعض الأوقات أشبه بطفل صغير يأخذ دروساً من بالغ غريب."

"أنت محق تماماً يا أبي. أنا متأكد أننا تسرعنا قليلاً في بعض الأحيان بيد أن الأمريكيين لديهم عامة الكثير والكثير ليعلمونا إياه. ففي السنوات القليلة الماضية مثلاً قطعنا بالفعل نحن اليابانيين شوطاً طويلاً في فهم قضايا مثل الديمقراطية وحقوق الأفراد. في الواقع يا أبي يداخلني إحساس بأن اليابان أرست أخيراً أساساً لتبني عليه مستقبلاً مشرقاً، وهكذا سيكون في وسع شركات مثل شركتنا أن تتشوف إلى المستقبل بثقة لا حد لها."

قالت سيتسوكو: "فعلاً يا سيد تارو، لدى سويشي نفس الإحساس بالضبط. فقد صرح مؤخراً في عدد من المناسبات أن بلدنا - عقب أربعة أعوام من الاضطراب - نصبتْ أعينها أخيراً على المستقبل."

رغم أن ابنتي كانت تخاطب تارو بهذا التعليق، داخلني انطباع واضح بأنه موجه إليّ. البادي أن تارو أخذ كلامها على هذا المحمل أيضاً لأنه بدلاً من الرد عليها واصل:

"لقد حضرتُ يا أبي منذ بضعة أسابيع فقط حفلة عشاء للم شمل طلاب دفعتي بالكلية، وللمرة الأولى منذ الاستسلام أعرب جميع الحاضرين الوافدين من كل دروب الحياة عن تفاؤلهم بالمستقبل. إذاً فشركة 'كى إن سي' ليست هي الوحيدة التي يغلب عليها إحساس بصلاح الأوضاع. وبينما أتفهم كلية قلقك يا

مكتبة الفكر الجديد

أبي، أنا على ثقة أن الدروس التي تلقيناها خلال الأعوام السابقة كانت بوجه عام دروساً مفيدة سوف تهدينا كلنا إلى مستقبل باهر. لكن لعل كلامي في حاجة إلى تصحيح يا أبي."

"أبداً، أبداً،" قلت وعلى ثغري ابتسامة. "كما تقول لا شك لدي أن جيلكم ينتظره مستقبل باهر وأنتم جميعاً لا تنقصكم الثقة، ولا يسعني سوى أن أتمنى لكم الخير."

هَم صهري بالرد لكن في تلك اللحظة بالضبط مد إشيرو يده عبر المائدة ونقر بإصبعه على قارورة الساكي كما فعل مرة من قبل. حانت من تارو التفاتة نحوه: "آه، السيد إشيرو. هو بالضبط مَن نحتاج إليه لنقاشنا. قل لنا، ماذا ستصبح عندما تكبر؟"

أخذ حفيدي يحدق في قارورة الساكي برهة ثم سدد إليّ عينين متجهمتين. لمستْ أمه ذراعه هامسة: "يا إشيرو، عمك تارو يسألك. قل له ماذا تريد أن تصبح."

"رئيس نيبون للأدوات الكهربائية،" أعلن إشيرو عالياً.

فانفجرنا في الضحك.

سأله تارو: "هل أنت متأكد من ذلك يا سيد إشيرو؟ ألا تشاء بدلاً من هذا أن تقودنا في 'كى إن سي'؟"

"نيبون للأدوات الكهربائية هي أحسن شركة!"

عاودنا الضحك.

علق تارو: "يا له من عار علينا، فالسيد إشيرو هو تحديداً مَن سنحتاجه في 'كى إن سي' بعد سنين معدودة."

أذهب هذا الحديث الساكي عن تفكير إشيرو الذي بدا منذ تلك اللحظة يستمتع بوقته، إذ اشترك في الضحك ملء شدقيه كلما ضحك الكبار. فقط قرب نهاية الوجبة سأل بصوت لا مبال بالمرة:

مكتبة الفكر الجديد

"هل فرغ الساكي كله؟"

أجابته نوريكو: "حتى آخر قطرة، أيريد السيد إشيرو مزيداً من عصير البرتقال؟"

رد إشيرو العرض بأسلوب مهذب ثم تحول إلى تارو الذي كان يشرح له أمراً ما. استطعت رغم ذلك أن أتخيل خيبة أمله فغمرتني موجة من السخط على سيتسوكو لعدم تفهمها مشاعر ولدها الصغير.

سنحتْ لي فرصة الانفراد بالحديث مع إشيرو بعد نحو الساعة لمّا دخلتُ الحجرة الإضافية الصغيرة في الشقة لألقي عليه تحية المساء. كان النور ما يزال مضاء وإن ألفيت إشيرو وقد انحنى رأسه على صدره تحت اللحاف وهو يضغط الوسادة بخده. أطفأتُ النور فاكتشفتُ أن الستائر لم تحل دون أن يلقي ضوء العمارة المقابلة قضباناً معتمة على الجدران والسقف. ومن الحجرة المجاورة تعالت أصوات ابنتيّ وهما تتضاحكان. جثوت إلى جانب لحاف إشيرو الذي قال همساً:

"يا أوجي، خالتي نوريكو سكرانة؟"

"لا أعتقد يا إشيرو. إنها تضحك على شيء ما، هذا كل ما هنالك."

"ممكن أن تكون سكرانة قليلاً، ألا تظن يا أوجي؟"

"حسناً، ربما، قليلاً فقط. فلا ضرر من ذلك."

"لا تستطيع النساء تحمل الساكي، أليس كذلك يا أوجي؟" قال مقهقهاً وهو يضع وجهه على وسادته.

ضحكتُ قائلاً: "تعرف يا إشيرو؟ لا داعي للضيق بسبب موضوع الساكي الليلة، فالمسألة ليست مهمة حقاً. سرعان ما ستكبر وعندئذ ستتمكن من شرب الساكي كيفما يحلو لك."

نهضتُ قاصداً النافذة لأرى إن كنتُ أستطيع ضبط الستارة لجعلها أكثر إحكاماً. فتحتُها وأغلقتُها عدة مرات إلا أن طرفيّ الستارة ظلا متباعدين بما سمح لي أن أبصر دوماً نوافذ المبنى المقابل المضاءة.

مكتبة الفكر الجديد

"لا يا إشيرو، الأمر فعلاً لا يستأهل الضيق."

سكتْ حفيدي لحظات ثم أقبل صوته من خلفي:

"لا يجب أن يقلق أوجي."

"نعم؟ ماذا تقصد يا إشيرو؟"

"لا يجب أن يقلق أوجي لأنه لو قلق، لن ينام. وإذا لم ينم كبار السن، سيمرضون."

"فهمتُ. طيب يا إشيرو. يعدك أوجي ألا يقلق إنما يجب ألا تتضايق أنت أيضاً لأن المسألة فعلاً لا تستأهل الضيق."

لزم إشيرو الصمت. فتحتُ الستارة وأغلقتُها من جديد.

"لكن طبعاً لو كان إشيرو أصر حقاً على الساكي الليلة، كان أوجي مستعداً أن يتدخل ويعمل على أن يشرب بعضاً منه لكن تقديراً للظروف أعتقد أننا كنا على صواب لمّا تركنا النساء يفعلن ما يردن هذه المرة. فمثل هذه الأشياء البسيطة لا تستحق أن نغضبهن من أجلها."

"أحياناً في البيت يريد أبي أن يفعل شيئاً وتقول له أمي إنه غير مسموح، حتى أبي لا يقدر أحياناً على أمي."

"حقاً،" قلت ضاحكاً.

"لذا لا يجب أن يقلق أوجي."

"لا داعي لقلق أي منا يا إشيرو،" ابتعدتُ عن النافذة وجثوت ثانية بجانب لحافه: "الآن حاول أن تنام."

"هل سيبيت أوجي هنا؟"

"لا، سيرجع أوجي بعد قليل إلى منزله."

"لِم لا يبيت أوجي أيضاً هنا؟"

"لا يوجد مكان كاف هنا يا إشيرو، تذكر أن أوجي لديه بيت واسع له هو وحده."

مكتبة الفكر الجديد

"هل سيجيء أوجي ليودعني غداً في المحطة؟"

"طبعاً يا إشيرو، سأجيء، وأنت أكيد ستأتي للزيارة قريباً."

"على أوجي ألا يقلق لأنه لم يقدر أن يجعل أمي تعطيني الساكي."

"الظاهر أنك تكبر بسرعة يا إشيرو،" قلت ضاحكاً. "ستكون رجلاً ممتازاً عندما تكبر، وربما ستصبح بحق رئيساً لنيبون للأدوات الكهربائية أو شيئاً في مثل ضخامة هذا المنصب. الآن دعنا نسكت قليلاً لنرى إذا كنتَ ستنام."

قعدتُ إلى جانبه هنيهة مجيباً بهدوء متى تحدث. وبينما كنت أنتظر في تلك الحجرة المظلمة أن ينام حفيدي مستمعاً بين الحين والآخر لانفجارات الضحك الآتية من الحجرة المجاورة، جعلتُ أعمل فكري في المحادثة التي جرت ذلك الصباح مع سيتسوكو بمتنزه كاواب. علها كانت أول فرصة تتهيأ لي للتفكير فيها، وحتى تلك اللحظة لم يدر لي ببال فعلاً أن يموج داخلي بمثل هذا الغضب. بيد أني حين تركتُ حفيدي النائم لأنضم ثانية إلى الآخرين بحجرة المعيشة، كان الضيق من ابنتي الكبرى قد بلغ مني مبلغه. لا مراء أن هذا وراء قولي لتارو بعد وهلة من جلوسي:

"أتعلم؟ حين يفكر المرء في الأمر يجده غريباً. أنا وأبوك نعرف بعضنا منذ أكثر من ست عشرة سنة ومع ذلك لم نغدُ صديقين حميمين إلا خلال العام السابق."

رد صهري: "فعلاً، لكني أحسب أن الأمور كثيراً ما تسير على هذا المنوال. فالمرء يجاور دائماً جيراناً عديدين لا يبادلهم سوى تحية الصباح، وهو شيء يدعو إلى الأسف عند التفكير فيه."

"لكن أنا والدكتور سايتو لم نكن طبعاً مجرد جيران. فبحكم ارتباطنا بعالم الفن، عرف كل واحد منا سمعة الآخر، وهو إذاً أمر يدعو إلى المزيد من الأسف أن أباك وأنا لم نبذل جهداً أكبر لتجمعنا الصداقة من البداية. ألا تظن هذا يا تارو؟"

مكتبة الفكر الجديد

فيما كنتُ أتفوه بتلك الجملة، اختلستُ نظرة سريعة إلى سيتسوكو لأتحقق من أنها تسمع.

"هذا أمر يؤسف له بحق لكن على الأقل أتيحت لكما الفرصة أخيراً كي تصيرا صديقين."

"ما أعنيه يا تارو هو أن الأمر جدير بعميق الأسف بما أن كلينا عرف طيلة الوقت بسمعة الآخر في عالم الفن."

قال تارو: "أجل، هو أمر يؤسف له. فالمرء يعتقد أنه حين يعلم أن جاره هو الآخر زميل بارز، سيفضي ذلك إلى علاقة أكثر حميمية. لكني أتصور أن هذا لا يحدث في الغالب بسبب جداول الأعمال المشحونة وخطط المستقبل."

لمحتُ سيتسوكو بنظرة يتخللها بعض الارتياح إلا أن ابنتي لم تبد مطلقاً أية إشارة تعبر عن دلالة كلمات تارو. يحتمل طبعاً أنها لم تكن ملقية انتباهها حقاً؛ تخميني مع ذلك أن سيتسوكو فطنت بالفعل إلى المغزى لكنها تكبرت على مقابلة نظرتي بمثلها بعد أن واجهتُها بالدليل على خطأها الفادح حين ألقت بتلك التلميحات صباحها.

كنا نسير الهوينى في الطريق الرئيسي الواسع بالمتنزه معجبين بأشجار الخريف المصطفة على الجانبين. أخذنا نتبادل الانطباعات حول حياة نوريكو الجديدة متفقين على أنها من الواضح في منتهى السعادة بحق.

كنت أقول: "إني أنعم بكل الرضا، كان مستقبلها يجثم على صدري لكن يظهر أن أحوالها تسير الآن على ما يرام. فتارو رجل رائع وليس لنا أن نأمل في زوج خير منه."

قالت سيتسوكو والابتسام لا يفارق شفتيها: "غريب أننا كنا جميعاً بالغي الانشغال عليها منذ سنة فقط."

"إني أنعم بكل الرضا. وتعلمين يا سيتسوكو؟ أنا ممتن لدورك في الموضوع ككل، لقد كنتِ خير عون لأختك لمّا ساءت الأحوال."

مكتبة الفكر الجديد

"على العكس، ما فعلتُ سوى أقل القليل لسكني بعيداً عنكما."

"وبالطبع،" قلت ضاحكاً، "أنت مَن حذرتني العام الماضي. 'خطوات وقائية' - أتذكرين يا سيتسوكو؟ كما ترين، أنا لم أتجاهل نصيحتك."

"عفواً يا أبي، أية نصيحة؟"

"حسبك يا سيتسوكو، لا داعي لهذه اللباقة. أنا مستعد الآن للإقرار بوجود جوانب من سيرتي لا تحمل على الفخر، وقد اعترفتُ فعلاً بهذا خلال المفاوضات، تماماً كما اقترحتِ."

"آسفة، غاب عن فهمي تماماً مرماك يا أبي."

"ألم تخبرك نوريكو عن اللقاء المشترك؟ حسناً، لقد تأكدتُ مساءها من إزالة أية عوائق تعترض طريق سعادتها من جراء سيرتي، وأخالني كنت سأقوم بهذا على أية حال لكني شاكر برغم ذلك على نصيحة السنة الماضية."

"لا تؤاخذني يا أبي لكني لا أذكر أني قدمت أية نصائح في العام الماضي. ومع ذلك بالنسبة للقاء، ذكرتْه نوريكو في الواقع عدة مرات. إذ كتبتْ لي خطاباً فور انتهاء اللقاء معبرة عن دهشتها لأن أبي... لكلمات أبي عن نفسه."

"أحسب أن ذهولاً حط عليها، فدائماً ما بخستْ نوريكو قدر أبيها العجوز. لكني لست ممن يتركون بناتهم تقاسين لمجرد أنهم يتكبرون على مواجهة الحقيقة."

"أخبرتني نوريكو أنها واقعة في الحيرة لتصرف أبي ليلتها، والبادي أن آل سايتو تولتهم نفس الحيرة. فلم يكن أحد متأكداً بالمرة مما رمى إليه أبي بما قال. الحق أن سويشي أيضاً لم يكتم حيرته عندما قرأتُ له خطاب نوريكو."

"لكن هذا عجيب،" قلت ضاحكاً. "ياه يا سيتسوكو، أنت نفسك مَن دفعتني إلى هذا السنة الماضية. فأنت مَن اقترحت أن أتخذ 'إجراءات وقائية' لئلا نخفق مع آل سايتو كما حدث مع آل مياك، ألا تذكرين؟"

"من المؤكد أني كثيرة النسيان إلا أن ذاكرتي لا تعي للأسف ما يشير إليه أبي."

مكتبة الفكر الجديد

"ويحك يا سيتسوكو، إن كلامك لغريب."

توقفتْ سيتسوكو بغتة هاتفة: "يا لروعة أشجار القيقب في ذلك الوقت من السنة!"

"فعلاً، بل إنها ستتبدى بالتأكيد في صورة أجمل مع تقدم الخريف."

"غاية في الروعة،" نطقتْ ابنتي باسمة الثغر ثم طفقنا نسير من جديد. أسرت بعدها إليّ: "اتفق في الحقيقة يا أبي أننا كنا نناقش موضوعاً أو اثنين في الليلة الفائتة، وتصادف أن ذكر السيد تارو محادثة أجراها معك الأسبوع الماضي بالتحديد، محادثة تخص الملحن الذي انتحر مؤخراً."

"يوكيو ناجوشي؟ آه نعم، أذكر تلك المحادثة. دعيني أتذكر، أعتقد أن تارو كان يوحي بأن انتحار الرجل لا مغزى له."

"كان السيد تارو مكترثاً باهتمام أبي الكبير بموت السيد ناجوشي. إذ لاح في الواقع أن أبي يعقد مقارنة بين سيرة السيد ناجوشي وسيرته، وقد راودنا كلنا شعور بالقلق من هذه المقارنة. الحقيقة أن انشغالاً يساورنا مؤخراً لانخفاض معنويات أبي قليلاً في أعقاب تقاعده."

ارتفعتْ ضحكتي: "يمكنك أن تريحي بالك يا سيتسوكو، أنا لا أفكر لحظة واحدة في الإقدام على ما آتاه السيد ناجوشي."

أردفتْ: "ما فهمتُه أن أغاني السيد ناجوشي انتشرت انتشاراً واسعاً على جميع مستويات المجهود الحربي، ويظهر أن هذا كان وراء رغبته في مشاركة السياسيين واللواءات المسؤولية. إنما أبي غلطان لو شرع حتى في التفكير بهذه الطريقة عن نفسه، فقد كان أبي في النهاية رساماً."

"دعيني أؤكد لك يا سيتسوكو أني لن أفكر لحظة واحدة في القيام بما أتاه ناجوشي لكني لا أغتر بنفسي حين أعتقد أني أنا أيضاً تمتعت ببعض النفوذ، نفوذ مهد السبيل لنهاية مفجعة."

بان على ابنتي التفكير في كلماتي وهلة ثم قالت:

مكتبة الفكر الجديد

"معذرة يا أبي، على أنه قد يكون من المهم رؤية الأشياء من منظور سليم. رسم أبي بعض اللوحات البديعة، وكان بلا مراء أكثر الرسامين نفوذاً إلا أن عمل أبي لم يتصل بهذه الشؤون الأضخم التي لا نتكلم عنها إلا بالكاد. كان أبي مجرد رسام وعليه أن يكف عن الاعتقاد أنه اقترف خطأ فادحاً."

"حسناً يا سيتسوكو، إن هذه النصيحة تختلف تماماً عن نصيحة العام الماضي. فقد لاحت سيرتي وقتها عائقاً ضخماً."

"معذرة يا أبي، ليس بمقدوري سوى أن أكرر أني لا أفهم تلك الإشارات إلى مفاوضات الزواج. فالأمر بحق لغز لي، فلم يجب أن تكون سيرة أبي وثيقة الصلة بالمفاوضات، فالبادي أن آل سايتو كانوا يقيناً غير عابئين، وكما قلنا اعترتهم أشد الحيرة من سلوك أبي خلال اللقاء."

"إن كلامك مذهل بحق يا سيتسوكو. المسألة هي أني والدكتور سايتو نعرف بعضنا البعض منذ عمر طويل. وبصفته واحداً من أبرز نقاد الفن بالمدينة، كان متتبعاً لمسيرتي على مدار الأعوام ومدركاً تمام الإدراك لجوانبها المؤسفة. وكان من الصواب واللياقة بناء على هذا أن أوضح موقفي في تلك المرحلة من الأحداث، وأنا كلي ثقة في الواقع أن الدكتور سايتو قدر بشدة ما صنعتُه."

"لا تؤاخذني يا أبي، لكن يبدو مما ذكره السيد تارو أن الدكتور سايتو لم يكن محيطاً قط بسيرة أبي. كان بالقطع يعرف أبي كجار لكن يبدو أنه لم يفطن البتة إلى أن شغل أبي متصل بعالم الفن حتى السنة الماضية حين بدأتْ المفاوضات."

"أنت مخطئة تماماً يا سيتسوكو،" قلت ضاحكاً. "الدكتور سايتو يعرفني منذ سنوات عديدة وكثيراً ما اعتدنا التوقف في الشارع وتبادل أخبار الفن."

"لا ريب إذاً أني مخطئة. معذرة. لكن من المهم مع ذلك أن أشدد أنه ما من شخص ينظر قط إلى ماضي أبي باعتباره اتهاماً، ونرجو إذاً أن يكف أبي عن التفكير في نفسه في إطار رجال مثل ذلك الملحن التعس."

مكتبة الفكر الجديد

ما تابعتُ الجدل مع سيتسوكو وسرعان ما انتقلنا إلى مناقشة مواضيع عابرة. لا شك مع ذلك أن ابنتي قد جانبها الصواب في أغلب ما أكدتْه، فمن المستحيل مثلاً أن يكون الدكتور سايتو جهل شهرتي كرسام طوال كل تلك السنوات. وفي ذلك المساء بعد العشاء عندما احتلت كي أجعل تارو يؤكد المعلومة، ما فعلتُ ذلك إلا لأبين الأمر لسيتسوكو، فما داخلني أي شك مطلقاً. إن ذكرى ذلك اليوم المشمس منذ حوالي ست عشرة سنة ما زالت ساطعة كل السطوع في مخيلتي. خاطبني عند ذاك الدكتور سايتو لأول مرة عندما كنت واقفاً لأضبط السور خارج منزلي الجديد. "إنه لشرف عظيم أن يقيم بحينا فنان له مثل مكانتك" قال بعد أن تعرف على اسمي المكتوب على عمود البوابة. إن ذاكرتي عن هذا اللقاء واضحة لا لبس فيها، ومما لا جدال فيه أن سيتسوكو قد حادت عن الصواب.

مكتبة الفكر الجديد

يونيو 1950

بعد أن تلقيت خبر وفاة ماتسودا في ساعة متأخرة من صباح الأمس، أعددت لنفسي غداء خفيفاً وخرجت بعدها لأمارس القليل من الرياضة.

كان نهار دافئاً لطيفاً عندما قطعتُ الطريق نازلاً التل. انتهيت إلى النهر وصعدتُ جسر التردد مردداً بصري حولي. كانت السماء تتلون بزرقة صافية وبالقرب من الضفة في الأسفل – بموازاة الموقع الذي بدأ فيه تشييد العمارات الجديدة – رأيت ولدين صغيرين يلعبان بصنانير الصيد عند حافة الماء. راقبتُهما هنيهة وأنا أتأمل في خاطري أخبار ماتسودا.

كنت قد عزمت دوماً على زيارة ماتسودا ثانية منذ عاودتُ توطيد صلتي به أثناء مفاوضات زواج نوريكو على أني في الحقيقة ما تمكنتُ من الذهاب إلى أراكاوا إلا منذ حوالي شهر فقط. كان الباعث على ذهابي مجرد دافع مفاجئ، إذ لم تكن لدي أية فكرة وقتئذ أنه يقف على عتبة الموت. لعل ماتسودا قضى نحبه أسعد قليلاً لأنه شاركني أفكاره في تلك الظهيرة.

عند وصولي إلى منزله، تعرفتْ الآنسة سوزوكي عليّ تواً وأدخلتني وهي من اللهفة في حال. وقد أوحى سلوكها إليّ بأن ماتسودا لم يستقبل زواراً عديدين منذ زيارتي الأخيرة من ثمانية عشر شهراً.

"إنه أقوى بكثير من آخر مرة كنتَ فيها هنا،" أفضت إليّ بكلمات تمتلئ سعادة.

مكتبة الفكر الجديد

رافقتْني حتى غرفة الاستقبال وبعد لحظات معدودة أقبل ماتسودا يمشي دون أن تسنده يد وهو يرتدي كيمونو فضفاضاً. انتابته سعادة واضحة لرؤيتي، وتحدثنا قليلاً عن شؤون عادية ومعارفنا المشتركين. أخالني ما تذكرتُ أن أشكره على خطاب تشجيع بعثه إليّ أثناء مرضي الأخير سوى عندما أحضرتْ الآنسة سوزوكي الشاي وخرجتْ مجدداً.

قال: "يظهر أنك تعافيت جيداً يا أونو، عندما أنظر إليك لا أخالك قط كنت مريضاً مؤخراً."

"أنا أحسن بكثير الآن. يجب ألا أرهق نفسي وعليَّ أن اتكئ على هذه العصا. غير هذا وذاك أشعر أني بصحة موفورة كما كنتُ على الدوام."

"خيبتَ أملي يا أونو، ظننتنا سنجتمع كرجلين عجوزين يناقشان معاً صحتهما المعتلة. لكن ها أنت ذا، تماماً كما أتيت في المرة السابقة، وعليّ أنا أن أجلس هنا وأحسدك على صحتك."

"كلام فارغ، أنت تبدو بصحة وعافية."

"لن تقنعني بهذا يا أونو،" قال ضاحكاً. "برغم أنه صحيح أني استعدت قليلاً من وزني خلال العام الماضي. لكن أخبرني، هل السيدة نوريكو سعيدة؟ سمعتُ أن زواجها تكلل بالنجاح. لمّا جئتَ آخر مرة، كان القلق يتملكك على مستقبلها."

"انتهت الأمور على خير، فهي ستنجب طفلاً في الخريف. وبعد كل هذا القلق، أمست حياتها على ما يرام، أحسن مما كنتُ أتمنى لها."

"حفيد في الخريف، لا بد أنك تتطلع إليه."

"في الواقع ستلد ابنتي الكبرى طفلها الثاني الشهر المقبل. كانت تصبو إلى طفل آخر، لذا فهي أخبار عظيمة."

"فعلاً، فعلاً، تتطلع الآن إلى وصول حفيدين." جلس برهة هناك يبتسم ويومئ برأسه لنفسه ثم قال: "لا شك في أنك تتذكر يا أونو أني كنت دائم

مكتبة الفكر الجديد

الانهماك في تحسين العالم ولم أفكر في الزواج. أتذكر تلك المجادلات التي وقعت بيننا قبيل زواجك من السيدة ميشيكو؟"

انطلقتْ ضحكاتنا.

"حفيدان،" كرر ماتسودا. "ثمة شيء لتتطلع إليه الآن."

"بالفعل، حالفني حظ وفير مع بناتي."

"قل لي يا أونو، هل ترسم هذه الأيام؟"

"بعض اللوحات المائية لصرف الوقت، نباتات وزهور في الغالب حتى أسلي نفسي فحسب."

"يسعدني أنك ترسم مجدداً على أية حال. عندما حضرتَ آخر مرة لرؤيتي، بدا وكأنك هجرت الرسم إلى الأبد. كنتَ تشعر حينذاك بخيبة أمل شديدة."

"كنتُ هكذا دون شك، لم أكن قد لمست الألوان منذ زمن."

"أجل يا أونو، بدت عليك خيبة أمل شديدة،" ثم رفع بصره إليّ بابتسامة: "لكن لا ريب أن رغبة عارمة استولت عليك لتحقيق إسهام ضخم."

رددت على ابتسامته بأختها: "لكنك أردت الشيء نفسه يا ماتسودا، فأهدافك لم تكن أقل عظمة. فأنت فبرغم كل شيء مَن أعد البيان الخاص بحملتنا عن الأزمة الصينية. كانت تلك المطامح بعيدة كل البعد عن التواضع."

ضحك كلانا مرة أخرى ثم أنهى إليّ:

"لا شك في أنك ستتذكر يا أونو كيف اعتدت أن أرميك بالسذاجة، كيف اعتدت أن أسخر من منظورك الضيق عن الفنان. كنتَ تستشيط غضباً. طيب، الظاهر أن كلينا في النهاية لم يكن يتمتع برؤية رحبة بما يكفي."

"أظنك على حق. على أننا لو كنا فطنا إلى الأمور بصورة أوضح قليلاً، لكان أمثالي وأمثالك يا ماتسودا – مَن العالِم؟ ربما كنا حققنا بعض الخير الحق. فقد تحلينا ذات يوم بطاقة هائلة وشجاعة أي شجاعة. لا بد وأننا كنا مفعمين حقاً بكليهما حتى نستطيع أن نقود شيئاً مثل حملة اليابان الجديدة تلك، أتذكر؟"

مكتبة الفكر الجديد

"فعلاً. وقفتْ بعض القوى الجبارة وقتئذ في وجوهنا وكان من الممكن أن نفقد جسارتنا بسهولة. أحسبنا كنا من أولي العزم يا أونو."

"لكن أنا عن نفسي لم تتجل الأوضاع قط أمام عينيّ تمام التجلي. إنه منظور الفنان الضيق كما تقول. ياه، بل إني الآن يشق عليّ التفكير في العالم المترامي وراء هذه المدينة."

قال ماتسودا: "في هذه الأيام يشق عليّ التفكير في العالم المترامي وراء حديقتي، لذا لعلك الآن يا أونو صاحب المنظور الأوسع."

استأنفنا الضحك معاً ثم احتسى ماتسودا رشفة شاي من قدحه.

قال: "إنما لا داعي للمغالاة في لوم أنفسنا. نحن على الأقل أقدمنا على ما آمنا به وبذلنا ما في وسعنا. كل ما هنالك أنه اتضح في النهاية أننا رجال عاديون، رجال عاديون بلا أية مواهب متفردة فيما يخص نفاذ البصيرة. فمن سوء حظنا فحسب أن كنا رجالاً عاديين في مثل تلك الآونة."

حازت إشارة ماتسودا الآنفة إلى حديقته انتباهي. كانت ظهيرة ربيعية معتدلة، تركتْ الآنسة سوزوكي جزءاً من الستارة مفتوحاً فأبصرتُ من مجلسي الشمس وهي تنعكس بضيائها الساطع على ألواح الشرفة اللامعة. خفت نسمة رقيقة إلى داخل الحجرة ومعها رائحة دخان خفيفة. نهضتُ واتجهتُ إلى الستائر.

أسررتُ إليه: "ما زالت رائحة الحريق توقع في روعي اضطراباً. كانت منذ عهد وشيك تعني القصف بالقنابل والنيران،" رحت أحدق برهة في الحديقة: "سوف تمر الشهر القادم خمسة أعوام على وفاة ميشيكو."

ظل ماتسودا مطرقاً وهلة ثم نمى إليّ صوته خلفي:

"رائحة الحريق في هذه الأيام تعني في المعتاد أن جاراً ينظف حديقته."

ومن مكان ما بالمنزل طفقتْ الساعة تدق.

أنبأني ماتسودا: "حان وقت إطعام سمك الشبوط. أتعلم أني اضطررت أن أتشاجر مع الآنسة سوزوكي كثيراً قبل أن تسمح لي بالبدء في إطعام الشبوط مرة أخرى. كنتُ معتاداً على إطعامها بانتظام لكني تعثرت منذ أشهر قليلة بواحد من

مكتبة الفكر الجديد

تلك الأحجار التي أخطو عليها، وكان عليّ أن أتنازع معها بعدها لفترة طويلة."

وقف ماتسودا على قدميه ولبس صندلاً من القش كان متروكاً في الشرفة ثم نزلنا إلى الحديقة. وقعتْ البركة في الطرف البعيد من الحديقة وسط أشعة الشمس، تقدمنا بخطوات حذرة على الأحجار الموضوعة بين الطحالب الملساء.

وأثناء وقوفنا على حافة البركة نرسل بصرينا إلى الماء الأخضر السميك، علا صوت جعلنا نرفع رأسينا، فألفينا ولداً في حوالي الرابعة أو الخامسة يتشبث بذراعيه الاثنين بفرع شجرة عند موضع ليس ببعيد عنا ويحدق فينا من فوق سور الحديقة. أشرق وجه ماتسودا بابتسامة وصاح:

"آه، مساء الخير يا بوتشان!"

ظل الولد يحملق إلينا برهة ثم توارى عن الأنظار. ابتسم ماتسودا وجعل يلقي بالطعام في الماء وهو يقول: "ابن أحد الجيران. كل يوم في هذا الوقت يتسلق جذع تلك الشجرة ليراقبني وأنا خارج لإطعام الأسماك لكنه خجول ولو حاولتُ أن أتكلم معه يولي هارباً." صدرتْ عنه ضحكة خفيضة لنفسه. "كثيراً ما أتساءل عن سبب بذله مجهوداً كهذا كل يوم. فلا يوجد الكثير ليراه، مجرد رجل عجوز يتعكز على عصا ويقف بجوار بركته ليطعم الشبوط. تُرى ماذا يجده ساحراً في مثل هذا المشهد."

عاودتُ النظر تجاه السور حيث أطل الوجه الصغير منذ لحظة وقلت: "طيب، اليوم لقي مفاجأة، شاهد رجلين عجوزين بعكازين يقفان بجوار البركة."

ضحك ماتسودا ضحكة لا تخلو من سعادة وأخذ يقذف الطعام في الماء، فصعدتْ إلى السطح سمكتان من أسماك الشبوط الرائعة أو ثلاث وقد تلألأتْ حراشفها تحت ضوء الشمس.

قال ماتسودا: "ضباط جيش، سياسيون، رجال أعمال، كلهم تلقوا اللوم على ما جرى لهذا البلد. لكن بالنسبة لمن هم على شاكلتنا يا أونو، كان إسهامنا هامشياً على الدوام. لا أحد يكترث الآن لما جاء به أمثالك وأمثالي في يوم من الأيام، فهم ينظرون إلينا ولا يرون سوى عجوزين بعكازين." ابتسم في وجهي

مكتبة الفكر الجديد

ثم واصل إطعام السمك. "نحن مَن نأبه الآن ولا أحد غيرنا. ولمّا يتطلع أمثالنا إلى حياتهم من خلفهم ويفطنون إلى أنها قد شابتها النقائص، سيجدون أنهم وحدهم العابئون."

لكن حتى عندما تفوه ماتسودا بتلك الكلمات، لبث أمر ما بسلوكه في تلك الظهيرة يوحي بأنه لم يكن خائب الأمل على الإطلاق، ولم يكن هناك قطعاً أي سبب يدعوه إلى أن يموت خائب الأمل. لعله رنا بحق إلى حياته وألفى بعض الغلطات إلا أنه كان بلا مراء سيتعرف على نواح له أن يفخر بها، ذلك أن أمثالنا يتولاهم الارتياح لمعرفة أن أياً كان ما فعلوه قد فعلوه وقتها بحسن نية كما بيّن هو نفسه. أقدمنا بطبيعة الحال على خطوات جريئة وكم من المرات قمنا بأعمال تزخر بكل تصميم وعزم؛ لكنه من الأفضل بلا ريب ألا يضع الإنسان بتاتاً اعتقاداته على المحك لِما قد يعوزه من إرادة أو شجاعة. وعندما يكون إيمان الإنسان باعتقاداته على جانب من العمق، تأتي بالتأكيد مرحلة يصبح فيها من الحقارة أن يراوغ أكثر من ذلك. وأنا على يقين أن ماتسودا تدبر الأمر بصورة متسقة مع هذه الأفكار عندما اجتلى ماضيه.

ثمة لحظة محددة طالما وثبتْ إلى ذهني - كانت في مايو 1938 عقب تسلمي جائزة مؤسسة شيجيتا مباشرة. كنت قد تقلدت في تلك المرحلة من مسيرتي شتى الجوائز والأوسمة غير أن جائزة مؤسسة شيجيتا كانت في نظر أكثرية الناس نقطة تحول بارزة. أذكر بالإضافة إلى هذا أننا كنا قد فرغنا في نفس ذلك الأسبوع من حملة اليابان الجديدة التي لاقت نجاحاً منقطع النظير. وهكذا أمضينا ليلة تقديم الجائزة في احتفال كبير. كنت أجلس في الميجي-هيداري محاطاً بتلاميذي ومختلف الزملاء. توالى تقديم الخمور إليّ، واستمعت إلى الخطاب بعد الآخر تكريماً لشخصي. ليلتها وفد جميع المعارف إلى الميجي-هيداري ليقدموا التهاني بل إني أذكر أن ضابطاً ما قابلتُه في حياتي من قبل أتي ليهنئني. لكن على قدر سعادتي ليلتها، كان من الغريب أني افتقدت الإحساس العميق بالانتصار والتحقق الذي كان حرياً بالجائزة أن تبثه في قلبي. الحقيقة أن

مكتبة الفكر الجديد

هذا الإحساس لم يراودني سوى بعد أيام قليلة عندما خرجتُ إلى ريف إقليم واكابا المليء بالتلال.

لم أكن قد زرت واكابا منذ قرابة ست عشرة سنة – منذ ذاك اليوم الذي غادرتُ فيه فيلا السيد موري مصمماً على المضي لكن دون أن أنجو من الخوف ألا يدخر لي المستقبل نجاحاً. ورغم أني قطعت كل الاتصالات الرسمية بالسيد موري، بقيت في غضون تلك الأعوام محباً للاطلاع على أية أخبار تتعلق بمعلمي السابق، ومن ثم كنت على وعي تام بما آلت إليه سمعته بالمدينة من تدهور مستمر. فمساعيه لدمج التأثير الأوروبي بتعاليم يوتامارا باتت تُعتبر محاولات غير وطنية في جوهرها، ويسمع الناس من وقت لآخر أنه ينظم المعارض بصعوبة بالغة في أماكن أقل مقاماً من ذي قبل. الحق أنه ورد إلى مسامعي من أكثر من مصدر أنه طفق يرسم الرسوم التوضيحية للمجلات الشعبية ليحافظ على دخله. وبإمكاني في الوقت عينه أن أثق تمام الثقة أن السيد موري تابع تقدم مسيرتي وسمع بالتأكيد بتسلمي لجائزة مؤسسة شيجيتا. وفي ذلك اليوم ترجلتُ من القطار بمحطة القرية حاملاً بين جنبيّ إدراكاً عميقاً لِما جلبه الزمن علينا من تغييرات.

كانت ظهيرة ربيعية مشمسة عندما شرعتُ في التوجه إلى فيلا السيد موري الواقعة بحذاء تلك الطرق المنحدرة التي تقطع الغابة. تمهلتُ في المشي مستمتعاً بمسيرة عرفتُها ذات يوم حق المعرفة. وأثناء سيري حامت أفكاري حول ما قد يحدث عندما أرى السيد موري وجهاً لوجه مرة ثانية. لعله سيستقبلني كضيف محترم؛ ربما سيعتليه نفس البرود والتحفظ اللذين كان عليهما أثناء أيامي الأخيرة بالفيلا؛ لكن من ناحية أخرى قد يعاملني كما عاملني دوماً حين كنت تلميذه الأثير – أي وكأن هذه التغييرات الهائلة لم تمتد يدها إلى مكانة كلينا. استوقفني آخر هذه الاحتمالات كأكثرها ترجيحاً. أتذكر أني فكرت ملياً في رد فعلي فقررتُ أني لن أرجع إلى العادات القديمة وأخاطبه بـ "أيها المعلم"؛ وعوضاً عن هذا سأخاطبه ببساطة كما لو كان زميلاً. ولئن

مكتبة الفكر الجديد

أصر على عدم الاعتراف بما أحتله الآن من منزلة، سأطلق ضحكة ودودة قائلاً شيئاً له الوقع التالي: "كما ترى يا سيد موري، لم أضطر إلى تمضية وقتي في رسم الرسوم التوضيحية لمجلات الأطفال المصورة مثلما خشيتَ في يوم من الأيام."

ألفيت نفسي في النهاية عند ذلك الموضع فوق الطريق الجبلي المرتفع الذي يشرف على منظر جميل للفيلا بين أشجار الوادي. توقفتُ برهة لأطالع المشهد في إكبار كما كنت أفعل كثيراً منذ سنوات خلت. هبت عليّ رياح منعشة، وبالأسفل عند الوادي مددت عينيّ إلى الأشجار وهي تترنح في نعومة. تساءلتُ في قرارة نفسي إذا كان قد تم تجديد الفيلا على أنه استحال التحقق من هذا عن هذا البعد.

جلستُ بعد فترة قصيرة وسط العشب البري النامي بطول سلسلة التلال وأخذتُ أرنو إلى فيلا السيد موري. كنت قد ابتعت بعض البرتقال من كشك بجوار محطة القرية فتناولتُها من منديلي ورحت آكلها الواحدة تلو الأخرى. وفيما كنت أقعد هناك وعينايّ على الفيلا مستمتعاً بطعم ذلك البرتقال الطازج، إذا بي يخامرني ذلك الإحساس العميق بالانتصار والقناعة. يصعب عليّ وصف الشعور، فقد اختلف تماماً عما يحس به الإنسان من ابتهاج من جراء الانتصارات الأقل قيمة - وكما سبق القول اختلف كلية عن أي شيء قام في نفسي أثناء احتفالات الميجي-هيداري. كان شعوراً عميقاً بالسعادة مستمداً من قناعتي بأن جهود المرء انكتبتْ لها البراءة؛ وأن ما اضطلعتُ به من عمل جاد وما تغلبتُ عليه من شكوك كلها تستحق العناء؛ قناعتي بأن المرء أنجز شيئاً ذا قيمة فعلية وامتياز حقيقي. لم أدن يومها أكثر من هذا صوب الفيلا - فقد بدا اقترابي لا مغزى له على الإطلاق. فما كان مني سوى أن جلستُ هناك لمدة ساعة تقريباً آكلاً برتقالي وأنا في حالة من الرضا البالغ.

أتخيل أن هذا الإحساس لن يختلج في صدر العديد من الأشخاص. لعل أمثال السلحفاة وشينتارو يتهادون في الحياة راضين مسالمين غير أن أمثالهم لن

مكتبة الفكر الجديد

يخبروا البتة ما داخلني من سعادة يومذاك، فأمثالهم لا يفقهون معني أن يغامر المرء بكل شيء في مسعاه للعلو فوق المستوى العادي.

مع ذلك كان ماتسودا حالة مختلفة. فبرغم أننا لم نسلم كثيراً من العراك معاً، فقد تماثلتْ مناهجنا في الحياة، وأنا واثق أنه استطاع أن يجتر من ماضيه واحدة أو اثنتين من تلك اللحظات. أنا متأكد بالفعل أن تفكيره كان متسقاً مع هذا المجرى عندما قال لي بابتسامة وديعة على وجهه في المرة الأخيرة التي تحادثنا فيها: "نحن على الأقل أقدمنا على ما آمنا به وبذلنا ما في وسعنا." لأنه مهما أعاد الإنسان تقييم إنجازاته بعد مرور السنين، يستشعر دائماً العزاء حين يعلم أن بحياته لحظة أو اثنتين من القناعة الحقة كالتي شعرتُ بها يومها أعلى ذلك الطريق الجبلي المرتفع.

بعد أن وقفتُ صبيحة الأمس على جسر التردد أتأمل حال ماتسودا بضع لحظات، قادتني قدماي إلى حيث وقع حي المتعة. بُنيت المنطقة من جديد وأصبح من العسير التعرف عليها. فالشارع الضيق الصغير الذي اخترق الحي في يوم ما وهو يغص بالناس واللافتات القماشية المعلنة عن مختلف المنشآت شُيد الآن محله طريق عريض من الإسفلت تروح عليه الشاحنات الثقيلة وتجيء طوال اليوم. وفي الموضع الذي قامت فيه حانة السيدة كاواكامي يعلو الآن مبنى للمكاتب ذو واجهة زجاجية ارتفاعه أربعة طوابق تجاوره المزيد من تلك المباني الشاهقة. وخلال النهار يستطيع المرء أن يبصر الموظفين وعمال التوصيل والسعاة يتحركون كلهم بهمة داخل المباني وخارجها. لم تعد هناك الآن أية حانات حتى منطقة فوروكاوا إلا أن المرء قد يتعرف هنا وهناك على جزء من سور أو شجرة تبقت من الأيام الخالية، تلوح متنافرة شاذة في موقعها الجديد.

توجد الآن في البقعة التي استقرتْ فيها الميجي-هيداري ذات يوم ساحة أمامية بعيدة عن الطريق تقوم أمامها مجموعة من المكاتب. يوقف بعض كبار الموظفين سياراتهم في هذه الساحة لكنها على العموم مساحة خالية مرصوفة

مكتبة الفكر الجديد

بالإسمنت زُرعت في مواضع مختلفة منها قلة من الأشجار الصغيرة. وأمام هذه الساحة ثمة مقعد يواجه الطريق من النوع الذي قد تجده في المتنزهات. لمنفعة مَن وُضع هناك؟ لا أعلم، فأنا لم أر قط أياً من هؤلاء المشغولين يتوقف ليسترخي عليه. لكن خيل إليّ أن ذلك المقعد شغل مكاناً قريباً للغاية من مكان مائدتنا القديمة بالميجي-هيداري. لذا درجتُ على الجلوس عليه في بعض الأوقات. قد لا يكون مقعداً عاماً لكنه على بُعد يسير من الرصيف، ولم يعترض أحد مطلقاً على جلوسي عليه. وفي صباح الأمس مع إشراقة الشمس الصافية قعدتُ عليه ومكثتُ هناك برهة أرقب ما يموج حولي من نشاط.

لا بد أن الوقت أشرف آنذاك على موعد الغداء لأني رأيت على الجانب الآخر من الطريق مجموعات من الموظفين بقمصانهم ناصعة البياض وهم يخرجون من المبنى ذي الواجهة الزجاجية حيث كانت فيما مضى حانة السيدة كاواكامي. وبينما كنت أشاهدهم، استوقفني كيف كان هؤلاء الشبان مفعمين بالتفاؤل والحماسة. توقف في إحدى اللحظات شابان خارجان من المبنى ليتجاذبا أطراف الحديث مع ثالث في طريقه إلى الدخول. وقف ثلاثتهم على درجات المبنى يتضاحكون معاً وأشعة الشمس تكللهم. أمكنني أن أتبين وجه أحد الشبان بوضوح تام، كان يضحك بابتهاج شديد وبراءة الأطفال المنفتحة تنطبع على محياه. تفرق الزملاء الثلاثة بعدها بإيماءة سريعة وذهبوا في حال سبيلهم.

رفت على شفتيّ ابتسامة ونظري لا يزال يتعلق بهؤلاء الموظفين الشبان. لا ريب أني عندما أسترجع أحياناً تلك الحانات ساطعة الإضاءة وكل هؤلاء المحتشدين تحت المصابيح - يتضاحكون ربما بصخب أعلى قليلاً من شبان الأمس إنما بنفس الروح الطيبة - ينازعني حنين إلى الماضي وإلى الحي كما كان. بيد أني حين أبصر كيف شُيدتْ المدينة من جديد وكيف تعافت الدنيا بسرعة فائقة خلال هذه الأعوام، يشمل قلبي سرور أصيل. إذ يبدو أن أمتنا لديها الآن فرصة لتحسين أوضاعها مهما كانت الأخطاء التي وقعتْ فيها في الماضي، ولا يسع المرء سوى أن يتمنى الخير لهؤلاء الشبان.

كازو إيشيغورو

في هذه الرواية، التي نشرها كازو إيشيغورو عام 1986، يصور الكاتب الياباني الأصل - البريطاني الجنسية، اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث يحاول الناس انتشال أنفسهم من حطام الحرب. ويتأمل الرسام الشهير ماسوجي أونو ماضيه، بعد أن توقف عن الرسم ووبدأ يعتني بحديقته، ويفكر في مستقبل ابنتيه وحفيده. إن ماضي اليابان القريب بنزعته العسكرية الصاعدة، التي أدت إلى هزيمته المدوية خلال الحرب، تقض مضجع أونو وتجعله يعيد النظر في دوره قبل الحرب وتدفعه إلى الاعتذار والنظر إلى مسيرته الفنية بعين أخرى.

ولد كازو إيشيغورو عام 1954 في مدينة ناغازاكي اليابانية، التي ألقت عليها القوات الأمريكية قنبلة ذرية عام 1945. وقد انتقل مع والديه إلى إنجلترا عام 1960 ليستقر هناك ويبدأ الكتابة باللغة الإنجليزية. نشر إيشيغورو سبع روايات: «منظر شاحب للتلال» (1982)، و«فنان من العالم العائم» (1986)، و«بقايا النهار» (1989)، و«من لا عزاء لهم» (1995)، و«عندما كنا يتامى» (2000)، و«لا تدعني أرحل أبداً» (2005)، و«العملاق المدفون» (2010)، إضافة إلى مجموعة قصصية واحدة. وقد تحولت روايتاه «بقايا النهار» و«من لا عزاء لهم» إلى فيلمين سينمائيين شهيرين. كما حصل إيشيغورو على عدد كبير من الجوائز من بينها: جائزة البوكر البريطانية (1989) عن روايته «بقايا النهار»، وجائزة نبول للآداب 2017 عن مجمل أعماله.

الفكر الجديد
22-12-2017

www.hbkupress.com
ISBN 978-9927129018
90100
9 789927 129018

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS